مذاهب وشخصيات

مطبوعات الإذاعة والتليفزيون

ماو تسي تونج

حياته وعصره

بقلم ردى مالك جرجور هاسى

ترجمة حسين الحوت

مراجعة حمدى حافظ

اهداءات ۲۰۰۱
ا.صلاح راتب
القاهرة

مذاهب وشخصيات

ماوتسي تونج

حياته وعصره

بقلم: روى ماك جريجور هاستى

ترجمة: حسين الحوت

مراجعة: حمدي حافظ

تقديم

فى أواخر القرن الثامن عشر انتقل ماكارتنى ، أول سفير بريطانى فى بلاط أباطرة المانشو ، من تينتسن الى بيكين ، لتقديم أوراق اعتماده ، فى زورق ثبتت على ساريته لافتة كبيرة كتب عليها « أحد البرابرة الحمر يحمل الجزية » • ذلك أن أباطرة الصين كانوا يقسمون البشر قسمين : « الصينيون » أى المتحضرون ، « والبرابرة » أى الهمج الذين لم ينالوا نصيبا من الحضارة وهم فى نظر الصينيين كل من عداهم من الأجناس ، ولما كان الاوروبيون من هؤلاء الهمج ، فقد أطلق عليهم الصينيون اسم « البرابرة الحمر » • وكان المفهوم لديهم ان صوابا أو خطأ أن الصين هى الدولة الوحيدة العظيمة فى العالم وان كل ما عداها بلاد تابعة تحمل الجزية لأباطرة الصين دليل الولاء والاخلاص ، وحتى البريطانيون على قوتهم وسيطرتهم على البحار كانوا فى نظر الصينيين من بين هؤلاء البرابرة الحمر •

وفى ٢٢ من يوليو ١٨٦٨ وقف النائب الامريكى ن• ب• بانكس يلقى خطابا فى الكونجرس بمناسبة شراء أمريكا لشبه جزيرة ألاسكا من روسيا فقال : سوف يكون المحيط الهادى مسرحا لمدنية العصور القادمة ، وسوف يصبح ميدانا لمعارك الغد الكبرى ، وسوف تصب فى بوتقته نظم العالم القادمة ، وسوف يكون فى هذا المحيط الأعظم تقرير مصير عالمنا الحاضر ، وسوف يبطل الحديث عن مدنية أوروبا ومقدراتها ، اذ تقوم على شواطىء هذا المحيط مدنية أعظم شأنا ومصيرها للعالم أجل خطرا •

وفى العصور الأخيرة من القرن التاسع عشر كان مستقبل الصين يعرض للمناقشة وتقرير المصير ، لا فى بيكين ، ولكن على الموائد المستديرة بين دبلوماسيى الغرب فى لندن وباريس وموسكو وبرلين •

وفى مطلع القرن العشرين أصبحت قوة امبراطورية الصين أضحوكة تتندر بها الدوائر الدبلوماسية الغربية فتقول « ان قوة الصين تعادل قوة الاسطول السويسرى » ، أى أنها تساوى صفرا •

وفى الأول من اكتوبر عام ١٩٤٩ وقف ماوتسى تونج فى ميدان تين آن مين يعلن قيام جمهورية الصين الشعبية ثم يردف قائلا : « والآن فليحذر أعداء الجمهورية داخل الصين وخارجها » •

ومنذ عهد قريب سأل أحد الامريكيين السفير الروسى فى واشنطون عما اذا كان من الأفضل أن يعلم ابنه اللغة الروسية ، ورد السفير قائلا : « ان كنت متفائلا فيمكنك أن تعلمه الروسية ، أما ان كنت متشائما فخير

لك ان تعلمه الصينية » . تلك تعليقات بعض كبار الرجال على الصين ، فما هذه البلاد التى تضم ستمائة وعشرين مليونا من البشر ، ومع ذلك لا تزال لغزا أمام ساسة الدول : من أهلها ؟ وما أهدافهم ؟ .

هذا ما يحدثك عنه روى ماك جريجور هاستى مؤلف الكتاب ، ولكن المؤلف لم يبدأ قصة الصين من أولها ، اذ بدأها منذ عهد الاحتكاك بين الصين وأوربا ، ولما كانت هذه البلاد ذات تاريخ موغل فى القدم ، اذ عاصرت حضارتها حضارة الفراعنة فى وادى النيل ، وحضارة الساميين من بابليين وكلدان وآراميين في وادى الرافدين وبقية الهلال الخصيب ، لذلك رأيت أن أقدم للقارىء نبذة من تاريخ الصين منذ نشأتها ، ثم انتقل به عبر العصور حتى عهد الاحتكاك بين الصين وأوربا وهى نقطة ابتداء المؤلف ، وبذلك يستطيع القارىء أن يكون صورة واضحة عن هذه البلاد .

نبذة تاريخية

سكان الصين يتكونون من خمس مجموعات عنصرية وهى العنصر الصيني الأصيل والمغولي والتبتي والتركي والمنشورى · ويقول بعض المؤرخين ان الصينيين هاجروا الى الشرق أولا من أواسط آسيا حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد فأخذوا يفلحون الأرض فى أحواض أنهار الهوانجهو واليانجتسي وغيرها ويزرعون الحبوب ويستأنسون الحيوان ويصنعون الأوانى الخزفية ·

وتقول الأساطير الصينية ان أول من حكم الصين اثنا عشر ملكا سماويا ثم خلفهم نسلهم من ملوك الارض ، وأول امبراطور صينى عرفه التاريخ هو الامبراطور هوانج تى أو الامبراطور الاصغر الذى يظن أنه عاش حوالى ٢٧٠٠ ق· م· وعلم الصينيين دراسة الفلك وصناعة الحرير · وأهم الأسرات الحاكمة فى الصين القديمة أسرة شانج التى تقدمت فى عهدها الكتابة الصينية وازدهرت صناعة الحرير ، وفى عهد أسرة تشو التى حكمت الصين فيما بين ١١٢٢ ، ٢٥٦ ق· م· اتسعت البلاد اتساعا عظيما وكان الامبراطور يملك السلطتين الروحية والزمنية وفى عهد هذه الأسرة ظهر كبار المعلمين من أمثال كنفوشيوس مؤسس الكنفوشية ولاوتزو مؤسس التاوية ، وانتقلت الصين من العصر البرنزى الى العصر الحديدى وارتقت الفنون والصناعات وتحسنت وسائل الرى والزراعة واستخدمت النقود المعدنية ·

وفى عهد أسرة تشن التى خلفتها أنشأ الامبراطور شيه هوانج تى سور الصين الكبير حماية للحدود الشمالية من غارات البرابرة (المغول فى ذلك الوقت) ·

أسرة هان ٢٢٠ ـ ٢٠٦ ق · م ·

فى عهد أسرة هان امتدت امبراطورية الصين من منشوريا وكوريا شمالا الى أنام وتونكين جنوبا ومن المحيط الهادى شرقا الى هضبة الباميز غربا وكانت امبراطورية هان فى الصين معاصرة للامبراطورية الرومانية وتضارعها مساحة وسكانا · وفى عهد هذه الأسرة اخترع الصينيون صناعة الورق ونهضت الموسيقى والرسم والحفر وتعلم الفلاح الصينى نظام الدورة الزراعية · واتقنوا صناعة الخزف وطلاءه واخترعوا آلة قياس الزلازل (السيسموجراف) وفى العصر التالى اخترعوا البوصلة للبحرية وتعلموا صناعة الزجاج من البارثيين وبدءوا يستخدمون الفحم كوقود ·

وفى عهد أسرة تانج (٦١٨ ــ ٩٠٧ ميــــلادية) تم جمع القوانين وتقسيم الصــــين وحدات ادارية وابتداع طريقة عقد اختبارات المسابقة لاختيار الموظفين ذوى الكفاية • كذلك أنتج الصينيون أول نوعمن البارود وعرفوا طريقة استخدام المكبس فى الطباعة • وفى عهــــد هذه الأسرة وفدت الديانات الأجنبية على الصين من مسيحية واسلام ومنوية وزرادشتية وكانت أوسعها نفوذا البوذية •

وفى عصر أسرة سونج (٩٦٠ ــ ١٢٧٩ ميلادية) طرأ على الطباعة تحسن كبير باستخدام الحروف المتحركة وبلغت صناعة ونقش الأوانى الخزفية درجة رفيعة من الفن وعرف الصينيون استعمال القطن واستخدام البارود فى العمليات الحربية •

أسرة مينج ١٣٦٥ ــ ١٦٤٤ م •

ثار الصينيون على حكامهم المغول وأسقطوا دولتهم وتأسست أسرة مينج التى ضمت اليها منشوريا ، وأصبحت كوريا ومنغوليا وبورما دولا تابعة لها • وارسل أباطرة مينج حملات بحرية الى جنوب شرقى آســـيا وجزر الهند الشرقية (أندونيسيا) والهند وسيلان وبلاد العرب وافريقية •

النفوذ الأوربى يبدأ فى الصين

فى عهد أسرة مينج أخذ « البرابرة » ذوو الشعر الأحمر والأنف الطويل » والمقصود بهم الاوربيون يغيرون على سواحل الصين ، ثم جاءت البعثات التجارية الاوروبية الى مدينة كانتون لتبادل منتجات الصــين من الحرير والخزف ومواد الترف بالسلــــع الاوروبية ، وبدأت البعثـــات التبشيرية المسيحية تفد على الصــــين وبخاصة اليســـــوعيون ثم تبعهم البروتستانت •

امبراطورية المانشو ١٦٤٤ ــ ١٩١١

المانشو قبائل من التتار كانت تقطن منشوريا وقد استطاع زعيمها نورهاشو أن يشق عصا الطاعة على أسرة مينج ، ثم اغار هؤلاء التتار على بيكين فسقطت فى أيديهم عام ١٦٤٤ وأسسوا أسرة المانشـــو التى ظلت تتربع على عرش التنين حتى عهد الثورة الصينية عام ١٩١١ •

اول اتصال بين اوربا والصين

فى عهد أسرة هان كان للرومان تجارة واسعة فى السلــع الصينية خصوصا الحرير ، وكانت الطرق البرية تسير من خنجان فى غربى الصين الى بحيرة لوب نور وحوض نهر تاريم وتنتهى فى انطاكيه ، كذلك اتخذ الرومان الطريق البحرى للاتجار مع الصين فكانت تجــــارتهم تنتقل الى البحر الأحمر فالمحيط الهندى الى بحار الصين الجنوبية ، وظل الحـــــال كذلك حتى قامت الامبراطورية الاسلامية فانتقلت التجارة الى أيدى العرب ومن دخل فى الاسلام من الشعوب الأخرى ، واستمر هذا الوضــــع من

القرن الثامن الى القرن السادس عشر الميلادى حيث أفلح البرتغاليون فى كشف طريق جديد الى الهند والشرق الأقصى بالدوران حول رأس الرجاء الصالح فى جنوبى افريقيا ·

انجلترا والاتجار مع الصين : ـ

بعد أن أفلح البرتغاليون فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح على أيدى فاسكو دا جاما والفونسو دى البوكيرك احتكروا الاتجار مع الهند وجنوبى آسيا والصين · ولكن بعد أن استقر الانجليز فى الهند وجهوا ضرباتهم الى الاحتكار البرتغالى للتجارةمع الصين · وبدأت التجارة المنظمة بين انجلترا والصين فى أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر ·

أمريكا والاتجار مع الصين

بعد أن تخلصت المستعمرات الأمريكية من الحكم البريطاني سارعت السفن الأمريكية الى دخول ميناء كانتون ، وكانت أول سفينة أمريكية أبحرت الى الصين عام ١٨٧٥ هى « امبراطورة الصين » وكانت السفن الأمريكية تنقل الى الصين الخمور والمصنوعات الحديدية والفراء وتنقل منها الحرير والشاى والخزف والأثاث ·

تدفق الاوروبيين على الصين فى القرن السابع عشر

فى القرن السابع عشر أصبحت تجارة كانتون احتكارا للبرتغاليين وفى عام ١٦٨٤ زاحمهم الانجليز فى هذه التجارة ، وما بدأ القرن الثامن عشر حتى كانت تجارة كانتون قسمة بين الدول الاوروبية فدخل فى التسابق على تجارة الصين كل من انجلترا والبرتغال وأسبانيا وهولنده وفرنسا بالاضافة الى أمريكا ·

بدء النزاع بين الصينيين والأوروبيين ـ حرب الافيون

أفزع الصين تدفق الاوروبيين عليها ففرضت الحكومة قيودا شديدة على التجار الأجانب وهذه القيود جعلت التجار الاوروبيين يجأرون بالشكوى الى حكوماتهم · ولعل تجارة الأفيون كانت هى السبب الرئيسى فى النزاع الذى نشب بين الصين وبريطانيا · فقد أدخل البحارة الاوروبيون عادة تدخين الأفيون فى الصين منذ القرن السابع عشر وانتشرت هذه العادة بسرعة فى جميع أنحاء البلاد ولما سنت حكومة الصين تشريعا يقضى بتحريم تجارة الأفيون اعترضت بريطانيا ومنهنا بدأت سلسلة من النزاع المسلح المعروف فى التاريخ باسم حرب الأفيون ·

الفصل الأول

الانجليز ليسوا بأى حال أذكى الشعوب ولا اشجعها ، لا ولا أجلها ، ولكن لا شك انهم أكثر الشعوب أهلا للتقدير والاعتبار .

بهذه العبارة امتدح أحد الساسة الفرنسيين فى أواخر القرن التاسع عشر الشعب الانجليزى ، وان كان مديحه لا يخلو من شائبة من النقص فى هؤلاء القوم .

كان لذلك المديح مناسبة ، فقد ساعدت فرنسا الولايات المتحدة الامريكية فى حرب الاستقلال ضد الامبراطوريه البريطانية ، وكان أمل فرنسا من هذه المساعدة أن تعجل باضمحلال هذه الامبراطورية ثم سقوطها نهائيا .

ولكن خاب فال فرنسا ، فان بريطانيا بدلا من محاولة غزو الجمهورية الامريكية الناشئة بقوات جديدة او فرض حصار بحرى عليها يكلف بريطانيا أموالا طائلة بدلا من كل ذلك ولت بريطانيا وجهها شطر المشرق ، ذلك أنها بعد أن فقدت امبراطوريتها فى أمريكا أرادت ان تعوض الخسارة بانشاء امبراطورية غيرها فى آسيا لم تضيع بريطانيا وقتا فى البكاء والعويل وندب حظها العاثر فى أمريكا ، بل وجهت سفنها ورجالها لاستعمار استراليا ونيوزيلندة والجزء الأكبر من جنوب شرقى آسيا وعديد من الجزر فى المحيط الهادىء ، لا بل انها بدأت توجه اهتمامها الى الصين .

ان هذه المرونة البريطانية أدهشت فرنسا . ذلك ان نقطة الضعف فى الفرنسيين بصفتهم شعبا استعماريا هى انهم فى كل مرة يخسرون المباراة السياسية يضيعون ربع قرن فى جدل لا طائل دونه مع الحكم الذى أصدر قراره بهزيمتهم فى المباراة .

كانت الهند حجر الزاوية فى الاستعمار البريطاني فى الشرق ، وكانت شركة الهند الشرقية البريطانية تهيىء وسائل الراحة والاقامة للقوات البريطانية والسياسيين البريطانيين الذين تبعث بهم الحكومة البريطانية لبناء امبراطوريتها الجديدة في الشرق الأقصى . ولما أصدرت هذه الحكومة البريطانية أوامرها الى شركة الهند الشرقية بأن تتجه نحو الشرق بقصد التوسع الاقتصادى أو السياسى ، بادرت الشركة بارسال سفنها ورجالها الى شبة جزيرة الملايو والى سواحل الصين . وعاد هؤلاء الرسل يحملون بشرى الآمال التي يبعثها الاتجار مع هذه البلاد وخاصة مع الصين . وهنا أسر أحد القباطنة الانجليز قائلا : ان الصينيين شعب متأخر ولكن أراضيه فسيحة الارجاء وهى مكان طيب لزراعة الخشخاش : وقصده من ذلك أن الصين سوف تكون سوقا ذات أرباح هائلة من تجارة الأفيون ، الذى كان

الانجليز ينتجونه بكميات كبيرة فى الهند ليبيعوه في الشرق دون الغرب ٠

فى عام ١٧٨٧ أعدت أول شحنة من الافيون فى دلتا نهر بيرل وصدرت للبيع فى مدينة كانتون والغريب أن بيع هذه الكمية الضخمة لم يستغرق الا اسبوعا واحدا فقط ٠ وفي مدى خمس سنوات كان هناك خط ملاحة بحرية ، منتظم بين كلكتا وكانتون لتصدير الأفيون من مزارعه فى الهند الى بلاد الصين ٠ كانت السفن التى تحمل الافيون الى الصين تعود محملة بالحرير والشاى لتشحن مرة أخرى من الهند الى بريطانيا ٠ ولم يات عام ١٧٩٠ حتى كانت السفن الانجليزية قد تقدمت على طول الساحل الصينى حتى بلغت تينتسن وبيكين ٠

وفي عام ١٧٩٢ تراءى للحكومة البريطانية أن حجم تجارتها مع الصين أصبح يدعو الى اعتماد سفير لها فى بكين ٠ وقدرت بريطانيا أن هذا أقل ما تقدمه للصين ، ولا بد أن أمبراطور الصين سوف يعتبر أنه حظى بشرف عظيم وأن السفير البريطاني سوف يكون موضع ثقة ٠ وقد يكون الحظ مواتيا فيصبح النفوذ البريطاني فى مجلس الامبراطور بحيث يجعل من الصين حليفا طيعا خاضعا لبريطانيا ٠

غير أن امبراطور الصين ، وكان فى ذلك الوقت من خيرة أباطرة المانشو ثقافة ، لم يكن قد سمع عن بريطانيا العظمى ، وعلى فرض أنه علم بأن بريطانيا أقوى دولة فى العالم ، فما كان ليقر ذلك ٠ ذلك أنه يقسم سكان العالم فريقين « الصينيون والبرابرة » ٠ قد يحتمل الامبراطور هؤلاء البرابرة اذا اتجروا معه ودفعوا له الجزية أو الضرائب ، ولكن لا يريد ان يتقدم خطوة أخرى فى تعامله معهم أو مع ملوكهم الهمج ٠

لقد دهش امبراطور الصين حينما سمع أن ملك بريطانيا قد أرسل له سفيرا فهو لم يسبق له أن طلب من ملك بريطانيا ذلك ٠ وماذا يمكن أن يستفيد من وجود ذلك الهمجى الذى لايدرى شيئا من أداب السلوك فى البلاط الامبراطورى الصينى ، ولا شك انه يجهل اللغة الصينية وهى اللسان المهذب الوحيد على وجه الارض ، كما أنه قد يسبب مشكلات من اتصاله بالحريم ؟

ولذا قرر الامبراطور ان يكون اتصاله بالسفير البريطانى الجديد على أقل مستوى تسمح به المجاملة ، وحينما وصل ماكارتنى السفير البريطانى قرب سواحل الصين ، ذهب موظف صغيرفى البلاط الامبراطورى لاستقباله ٠

وقد وجد الصينى هذا السفير البريطاني ثائرا ساخطا ، يعتقد أن ارساله الى بيكين ليس الا مؤامرة من زملائه فى الهيئة الدبلوماسية البريطانية ، أو أن تعيينه فى منصبه هذا نوع من التحقير ٠ لقد أركبوه زورقا الى بيكين وكان على سارية الزورق لافتة صغيرة عليها كتابة صينية ٠ سأل مرافقه الصينى عما تعنيه هذه الكلمات الصينية فرد المرافق قائلا : أن معناها هو « أحد البرابرة الحمر يحمل الجزية » وهنا شعر السفير ماكارتنى بسهم أصاب عزة نفسه ٠

لقد كانت العلاقات بين السفير وبين الامبراطور فى توتر دائم ٠ ذلك أنه كان للامبراطور الصينى صديق برتغالى يلازم القصر ، وكان هذا

البرتغالي يسمم الجو بين أباطرة المانشو والانجليز بوجه عام، وماكارتني بنوع أخص • لقد كان البرتغاليون في الصين منذ مائة سنة وليس هناك من ينافسهم ، فكيف لهؤلاء الانجليز اليوم يدخلون معهم ميدان المنافسة ؟ •

بعد شهر من وصول ماكارتني الى بيكين نسلل يوما الى داخل القصر الامبراطوري ومر بجماعة من موظفي البلاط الذين اذهلتهم هذه المفاجأة وفي أثناء وجوده في القصر ترك مذكرة خاصة للامبراطور تحتوى على « أدنى مطالب صاحب الجلالة البريطانية » ، وهي تتلخص فيما يلي :ــ

١ ــ ان توافق حكومة بيكين على قبول ملحق تجاري بريطاني في بيكين على أن يسمح له بالمثول بين يدي الامبراطور عند اللزوم ، وذلك لكي يشرف على مصالح التجار البريطانيين •

٢ ــ فتح باب الاتجار الحر امام البريطانيين في ننجبو وشنغهاي وتيينتسن •

٣ ــ التنازل للحكومة البريطانية عن جزيرة أو اثنتين من مجموعة جزر تشوسان يستطيع التجار البريطانيون الاقامة فيهما دون أي تدخل من السلطات الصينية •

٤ ــ منح البريطانيين الحق في انشاء مخازن للبضائع خالية من الرسوم الجمركية على طول الساحل الصيني •

٥ ــ تخفيض رسوم الشحن من كاو البرتغالية الى كانتون •

ولم يسع الامبراطور الا أن يرفض قبول المذكرة البريطانية لما فيها من اهانة لشخصه وبسبب تحريض صديقه البرتغالي له • وهنا يبادر ماكارتني بتوجيه رسالة الى لندن يلح فيها على حكومته باعلان الحرب على الصين فورا • ولكن بريطانيا كانت حينذاك مشتبكة في معركة عنيفة مع خصمها الشديد البأس نابليون ، واذن فليس لديها متسع من الوقت للقيام بمغامرات في الصين •

ثارت ثائرة ماكارتني ووهنت عزيمته فقبع في كانتون في انتظار ما تفعله به حكومته • لقد اتخذ بعض أصدقاء من الصين وعشيقة صينية وأتقن لعب الشطرنج ويشاع أنه (عكف على تدخين الأفيون) •

لقد مات ماكارتني قبل أن تتم هزيمة نابليون في واترلو . ولكن بريطانيا لم تنس موضوع الصين ، ففي ١٨١٦ بعثت بريطانيا بلجنة استطلاعية لدراسة الموقف • وقد ثبت للجنة أن الصين « تحت حكم يكاد يكون اقطاعيا » فالامبراطور حاكم مطلق ، وبلاده مقسمة الى أقاليم يحكم كلا منها حاكم يحمل لقب « نائب الامبراطور » وبعض هؤلاء الحكام من الأسرة الامبراطورية وغيرهم من الاقطاعيين المحليين أو من أمراء الحرب • وكانت الأراضي الزراعية شركة بين المالك وفلاحيه ، على أن يفوز المالك بنصيب الأسد ولا ينال الزراع الا التافه القليل ولم يكن هناك اى ضمان لملكية الارض ، وكلما ازداد الفلاح فقرا ثقل عبء الضرائب عليه • والزراع الأجراء كانوا يدفعون الايجار عينا مما تغله الأرض التي يزرعونها • ولاحظت

اللجنة البريطانيةأن ضريبة الارض ترتفعأو تنخفض تبعا لما بينصاحبهاوبين جباة الضرائب من روابط وصلات · أما فلاحة الارض فتجرى بآلات زراعية بدائية · والغزل والنسيج يتمان فى المنازل على مناسج يدويةللاستهلاك العائلى ، على أن يباع الفائض فى الاسواق المحلية · ولما كان الفلاح الصينى وعائلته يعملون ست عشرة ساعة يوميا فى الحقل ، فلم يبق لدى النساء من القوة والنشاط مدخر للغزل أو للجلوس الى المنسج · وهكذا لم يكن لدى الاسرات الصينية أى فائض من الغذاء أو الكساء ليطرح فى السوق ·

ولم يكن على الزراع أن يقدموا ايجار الاراضى ويدفعــوا الضرائب المطلوبة فقط ، بل عليهم أداء الخدمة العســكرية تنفيذا لتعليمات نائب الامبراطور · ولم يكن الفلاحون المجندون يتناولون أجرا · والحاكم وكثير من أعيان الاقاليم يحتفظون بجيوشهم الخاصة ، وبعض أمراء الحرب فى شمالى الصين يحتفظون بقوات عسكرية كبيرة يؤجرونها لمن شاء أثنـــاء الحروب التى لم تنقطع بين أقاليم الصين المختلفة · وكان الامبراطور يبيح بعضا من هذه الحروب الأهلية على اعتبار أنها « عملية فصد » تخرج الـدم الفاسد وتستبقى الجسم صــحيحا ، مادام لم يعتد أحــد على سلطات الامبراطور ·.

وبالاختصار كان الزراع البؤساء بين تلبية أوامر حــكام الاقاليم وأوامر الحرب كأنهم بين شقى الرحى ·

وقد لاحظت اللجنة البريطانية بارتياح كبير أن الامبراطور قد منع «تنمية نظام المصانع الكبيرة» ذلك أنصديقه البرتغالىأفهمه أن «الرأسمالية» تجر فى أعقابها آراء خطيرة مثل فكرة الديموقراطية · فاقتصر الأمر على المصانع الصغيرة لعمل قوالب الشاى وصهر الحديد وصناعة الخزف ونسيج الحرير ، على أن تفرض قيود قاسية شديدة على أى اتجاه نحو التوسع فى الانتاج · وكانت هناك مكاتب حكومية (يامن) منتشرة فى كل أنحاء الصين لمراقبة عدم توسيع المنشآت الصناعية الصغيرة · ويحرم على أى صاحب مصنع نسيج أن يمتلك أكثر من مائة منسج · وكانت الحكومة تجبى من كل منسج شغال ضريبة قدرها ٥٠ أوقية من الفضة · وهذا يشل حركة صناعة النسيج لأن متوسط دخل الفلاح الصينى لم يزد عن أوقية واحدة من الفضة أسبوعيا ·

وأخيرا أوصت اللجنة الحكومة البريطانية بأن تعيد الاتجار مع الصين فورا وأكدت اللجنة أنه لن تكون هناك منافسة ، وأشارت بعدم المطالبة بامتيازات تجارية خاصة لان مثل هذا الطلب لن يجاب ، ولكن جهاز ادارة الدولة كان من الفوضى بحيث أن البريطانيين يستطيعون الحصول على هذه الامتيازات دون أى تدخل من حكومة الصين المركزية ·

وفى خلال العقدين الثالث والرابع من القرن الثامن عشر «اتسع حجم التجارة البريطانية فى الصين اتساعا كبيرا · ولكن أنواع السلع المشحونة لم يطرأ عليها أى تغيير · كانت أكثر السلع الواردة على الصين ربحــا الأفيون ، فسوق هذه السلعة رابحة فى الصين ، ولم يأت منتصف القرن الثامن عشر حتى كانت غالبية الارستقراطية الصينية وكثير من الموظفين.

ونسبة عالية من الضباط من بين مدمنى الافيون . ولم يكن بين الصينيين من يعارض تجارة الافيون ، فالمعارضة اما انها صفيت من تلقاء نفسها أو قضى عليها .

كانت تجارة الافيون كارثة كبرى على الاقتصاد الصينى . ذلك أن البريطانيين كانوا يصرون على أن تدفع اليهم أثمان هذه السلعة الخبيثة من سبائك الفضة ، وفى سنة ١٨٣٥ صدر من ميناء كانتون وحده ثلاثون مليون أوقية فضة (الاوقية الصينية تساوى $1\frac{1}{3}$ أوقية انجليزية) ثمنا للأفيون المستورد . وكانت الاوقية من الفضة تساوى ١٦٠٠ قطعة نحاسية فى عام ١٨٣٨ مع انها قبل ذلك بعشر سنوات كانت تساوى ١٢٠٠ قطعة فقط . ويلاحظ أن الفلاحين كانوا يدفعون الضرائب بالفضة ولكنهم يتناولون أجورهم بالقطع النحاسية ، والنتيجة الطبيعية لذلك هى هبوط مستوى معيشة الفلاح بنسبة الثلث . ولم يقتصر الامر على الفلاحين فموظفو البلاط الامبراطورى الذين كانت دخولهم من الارض الزراعية وجدوا أن ثروتهم تتناقص بسرعة أكثر مما يتصورون ، ولقد اشتكى أحدهم وهو لينى تسى رهسو الى الامبراطور تاو كوانج محتجا على هذا الفارق الكبير بين أسعار الفضة والعملة النحاسية ، وبعد سيل من الاحتجاجات وافق الامبراطور على التصريح الى لينى تسى رهسو « باتخاذ الاجراءات » ولكن احتياطى الصين من سبائك الفضة كان يتضاءل باستمرار ، والبلاد كلها أخذت تنحدر الى الشلل الاقتصادى .

وفى ربيع ١٨٣٩ وصل لينى تسى رهسو الى كانتون وأصدر أوامره الى القبطان اليوت المراقب التجارى البريطانى بأن يسلم جميع ما لديه من الأفيون . ولما رفض اليوت الاذعان ، قابل لينى هذا الرفض بمحاصرة البريطانيين فى مستودعات البضائع البريطانية . ولما نفدت كميات الأغذية والماء من المستودعات البريطانية لم يسع القبطان اليوت الا التسليم وفى يوم ٣ من يونيو ١٨٣٩ أحرق لينى تسى رهسو على الشاطىء عشرين ألف صندوق من المخدر (الأفيون) وظلت النار مشتعلة فى الأفيون طوال عشرين يوما . وقد سمى الشاطىء منذ ذلك الحين «شاطى الأسماك النائمة (المخدرة) » .

وفى يوليو قتل بحار بريطانى مواطنا صينيا كان على حد قول البحار «يتجسس» على الأسطول التجارى البريطانى فى أثناء الليل . ولما طلبت السلطات الصينية تسليم هذا البحار القاتل لمحاكمته رفض القبطان اليوت اجابة الطلب واستدعى لحمايته سفينتين حربيتين بريطانيتين كانتا راسيتين على بعد من كانتون وكلفهما اطلاق النار بين الزوارق الصينية الراسية فى مياه نهر بيرل بصفة انذار ، وهنا ثار أهالى كانتون وانتقموا باحراق اثنى عشر مستودعا بريطانيا . وهنا انسحب الاسطول التجارى البريطانى ومعه السفينتان الحربيتان خارج الميناء . وقد طير الخبر الى بريطانيا فقامت الحكومة البريطانية من جانبها باعلان الحرب على الصين فورا .

وفى يونيو ١٨٤٠ وصل أسطول بريطانى فتجنب مدينة كانتون التى كانت وسائلها الدفاعية قوية واستولى على ميناء تنجهاى على ساحل تشيكيانج وهى لاتقل اهمية عن كانتون .

ولما بلغت مسامع الامبراطور أنباء سقوط تنجهاى فى أيدى الانجليز استولى عليه الفزع فاعفى لينى من قيادته المؤقتة للقوات المسلحة الصينية وأخذ يستشير حاشيته • وقد أشار عليه تشى شان حاكم شيهلى وأعظم أمراء الحرب قوة وثراء ، أن يتفق مع الانجليز ، لانه سمع بأن أسطولا حربياً بريطانيا فى طريقه الى تيننتسنى وهى على مقربة من بكين •

وقد اجتمع تشى شان مع رجال الاسطول البريطانى فى تيننتسنى واتفق مع أميرال الاسطول على فتح باب المفاوضات لعقد معاهدة صلح وصداقة بشرط أن يعود الاسطول أدراجه الى كانتون •

وحينما وصل تشى شان الى كانتون أمر بتجريد المدينة من كل وسائلها الدفاعية وبدأ مفاوضات الصلح • وقد خشى البريطانيون من أن يخدعهم الامبراطور فارسلوا قوة برية من مشاة البحرية للاستيلاء على تشينكيانج ونانكنج وفى ٢٩ من أغسطس ١٨٤٢ حينما كانت القوات البريطانيه على وشك دخول نانكنج بادر تشى شان بوقف المساومة ووقع معاهدة نانكنج التى أنهت حرب الافيون الاولى ، وكانت حدثا هاما لكل من الصين وبريطانيا •

فقد نصت المعاهدة على الاعتراف بأن لبريطانيا المركز الاول بين الدول التى تتجر مع الصين • وتقرر فتح خمس موان بصفة مستمرة للرعايا البريطانيين سواء للاقامة أو للاتجار وهذه الموانى هى : كانتون وفوشو وآموى وننجبو وشنغهاى • وتنازلت الصين عن هنج كنج لبريطانيا وأصبحت مستعمرة بريطانية • كذلك تقرر أن يتم تحديد الرسوم الجمركية على الصادرات والواردات الصينية بواسطة لجنة صينية ـ بريطانية على أن يكون للبريطانيين وحدهم حق الاعتراض على قرارات اللجنة • ولا يصح أن تزيد الرسوم الجركية عن ٥٪ بأى حال من الاحوال • وألا يخضع الرعايا البريطانيون الا للقوانين الانجليزية حتى ولو كان النزاع بينهم وبين الصينيين •

والنص الأخير هو تعهد الامبراطور بأن يدفع مبلغا قدره واحد وعشرون مليون دولار فضى كتعويض لاحراق الافيون البريطانى على «رمال الاسماك النائمة» • لقد كانت معاهدة تسليم غير مشروط لا ينقصه الا النص الصريح •

ولما علمت فرنسا والولايات المتحدة بشروط هذه المعاهدة بادرتا بارسال مبعوثين الى البلاط الامبراطورى • فقامت فرنسا باقراض الامبراطور المال اللازم لتسديد الغرامة فى مقابل امتيازات تجارية مماثلة لتلك التى حصلت عليها بريطانيا ومنحها الحق فى التبشير بالكاثوليكية فى الصين • وقد تم الاتفاق على ذلك فى معاهدة هوامبوا •

أما أمريكا فقد قنعت بمعاهدة وانجهيا التى حصلت بمقتضاها على ما يقرب من مثل الامتيازات التى منحت لبريطانيا •

ان معاهدة نانكنج ، ولو أنها كانت كارثة على الصين الا انها لم

تخل من أهمية • ذلك أن الشعب الصيني بأكمله استنكر هذا الاذلال ، ولقد عمد سكان المدن الخمس التى منح فيهـــا البريطانيون حق الاقامة والاتجار الى الاضطرابات وأعمال العنف طوال عشر سنوات • وفى كانتون وحدها بلغت أعمال العنف واتلاف الممتلكات البريطانية من القسوة حدا أصبح من المستحيل معه الوصول الى تسوية الا بعد أن عين ضباط بريطانيون لقيادة بوليس المدينة واعادة النظام •

وكان أهم من ذلك كله شعور الاستياء العام ضد الامبراطور خاصة وحكم أسرة المانشوبوجه عام •

ان الامة اذا ما بدأت تتشكك فى أن الملوك لهم « حـــق الهى » فى الحكم ، فهذا دليل على بداية الثورة أو على الاقل بداية الاصلاح • فعندما اعترض البريطانيون عـــلى حق شارل الاول فى الحـــكم دون استشارة البرلمان ، كانت هذه هى الخطوة الاولى على الطريق الذى أدى الى الحرب الاهلية وقيام الملكية الدستورية •

كذلك كان الحال فى الصين ، فان الشعب الصينى ما ان ارتاب فى مسلك الامبراطور فى حرب الافيون الاولى حتى تواردت على ذهنه سلسلة من الأسئله التى أدت فى النهايه الى الثورة ، وما تلا ذلك من قيام حكومة شيوعية على أساس الحزب الواحد •

كان أول احتيـــاجات الطبقة المســـتنيرة فى صيغة التماســـات مقدمة الى الامبراطور وتقديم المشورة الى المسئولين عن حـــكومة البلاد • لقد رأى ويه يوان ان الرد على عجز الصين فى مواجهة بريطانيا هو دراسة أساليب البريطانيين فى الحياة والعمل • وكان هو أول من دعا الى الأخذ بالاساليب الغربية ، وألف فى ذلك كتابا اسمه « تاريخ وجغرافية البلاد الاجنبية » أورد فيه موجزا لما حققته أوروبا من تقدم اقتصادى وتكنولوجى • أما أصدقاء ويه يوان فقد جاوزوا حد الاعتدال ، ذلك بأنهم رأوا أنه لايكفى تعديل الاسلوب الذى يحكم به المانشو بلاد الصين ، بل يجب وضـــع حد نهائى لحكمهم • تلك هى الطريقة التقليدية لاجراء الاصـــلاحات فى الصين فقد جلس على عرش التنين اثنتان وثلاثون أسرة حاكمة ، وكانت الاسرة القديمة تخلى مكانها لأسرة حديثة كلما أصيبت البلاد بالكوارث •

وكانت الخطوات العملية الأولى للقضاء على حـــكم المانشو فى اقليم هونان وهو موطن المياو ، ان هؤلاء المياو يعتبرون أقليـــة فى الصـــين طالما كانوا مصدر شغب ، ولذلك فان الحرس الامبراطورى فى هونان كان أكثر منه فى أى اقليم صينى آخر • وفى خلال الفترة من ١٨٤١ الى ١٨٤٨ قام الفلاحون فى اقليم هونان وكويشو وهوبيـــه بأكثر من مائة تمرد ، وغالبية هذه الاقاليم الثلاثة من المياو ، وطالما كان المياو معارضين لحكم المانشو ، وكانت اتجاهاتهم ونزعاتهم متطرفة فى الوطنية ، وكان مفهوم الوطنية لديهم ضيق الحدود يتسم بالعناد والاصرار وهذا شـــأن غالبية الشعوب الزراعية • كذلك كان المياو شديدى التدين والصـــلاح • وقد اتسمت ثوراتهم بأنها احتجاج على ماكان متفشيا فى أسرة المانشو من فساد خلقى وانحطاط ، وأنهم جروا على الصين الفشل والدمار • وقد أنشأ المياو

جمعية سموها جمعية « السماء والارض » أهدافها احباط جهود الأجانب ، وذلك باحياء تعاليم كونفوشيوس وبوذا بعد أن تصب فى قالب يناسب روح العصر على أن يضاف اليها بعض تعاليم طائفة النظاميين من المبشرين المحليين · وقال المياويون انهم سوف يحاربون البريطانيين والفرنسيين والكتب المقدسة فى يد وسيف الحق فى اليد الأخرى ·

فى عام ١٨٤٩ اشتدت المجاعة فى اقليم هونان بشكل لم يعهد من قبل · والمعروف أن هونان كانت ولا تزال تعتمد فى معيشتها على محصول الأرز ، ومدينة تشانج شا عاصمة الاقليم هى أيضا عاصمة الأرز فى الصين · ولما كان محصول الأرز رديئا جدا فى ذلك العام ، فان لى يوانفا رئيس جمعية «السماء والارض» فى هونان قرر أن هذه علامة من السماء بأن هذا هو الوقت المناسب لاعلان حكم جديد ، وهنا غادر المياو حقولهم المجدبة وتسلحوا بالعصى الغليظة والسيوف وزحفوا على تشانج شا العاصمة وهم يرتلون الأناشيد ويعزفون على المزمار ·

واقتحموا المدينة وأخضعوا الاقليم كله · ولم يسع الحاكم الا الفرار لتبليغ الامبراطور بهذا الخطب الجلل · ذلك أن قواته لم تكن لها القدرة على الوقوف فى وجه نصف مليون من الفلاحين الزاحفين تحت تأثير الحماسة لفكرة دينية · ولقد بلغت أنباء نجاح المياو الى الفرع المحلى لجمعية السماء والأرض وجمعية «عبادة الله» فى اقليم كوانتونج المجاور لهونان · وقد أجمع الكل هنا أيضا على أن المجاعة وزحف لى يوان المظفر على العاصمة تشانج شا هما علامتان من السماء ··

فدعا زعيم جماعة عبادة الله الى اجتماع عام فى تشين تنى · وعلى أثر الاجتماع تسلح فلاحو كوانتونج بكل ماتصل اليه أيديهم وخرجوا يغنون وينشدون متجهين نحو هونان للاتصال باخوانهم هناك · وبعد ثمانية عشر شهرا من المعارك وايقاع الهزائم بالحرس الامبراطورى وقوات أمراء الحرب ، اتحدت الجمعيتان وأعلنتا قيام « المملكة السماوية للسلام الأعظم » وذلك فى ١١ من يناير ١٨٥١ · وتلك هى المعروفة بثورة تاى بينج · وقد تزعم هذه الثورة هونج هسيو تشان مؤسس جمعية عبادة الله ، وهو الذى اعتقد بأنه شقيق المسيح عيسى بن مريم · وقد زحفت قوات تاى بينج عبر حدود الاقليم ونزلت فى اقليم كيانجسى ثم اتجهت شمالا الى آنهوى وكيانجسو · وهزمت الجيش الامبراطورى فى معركة كبيرة فى خلال شهر ابريل ١٨٥٢ ، واستولت على أسطول من الزوارق وأبحرت نحو مصب نهر اليانجتسى وحيثما سارت قوات تاى بينج استقبلها الفلاحون بالهتاف والبشر والابتهاج · وفى يناير ١٨٥٣ اقتحمت ووهان وفى مارس من العام نفسه دخلت نانكنج (عاصمة اقليم كيانجسو) ، وأطلقت على نانكنج اسم تينى تشنج (العاصمة السماوية) وجعلتها مركز «المملكة السماوية للسلام الأعظم» وظلت كذلك طوال الأحد عشر عاما التالية ·

لقد وقف جورج بونهام وزير بريطانيا المفوض فى بيكين يشاهد تقدم هذه الحرب المقدسة بعينين شاردتين · فهذه المملكة السماوية التى يغشاها جو من الموسيقى المرحة ، والجمعيات التى تحمل أسماء غير مألوفة ، وتجمع ملايين الفلاحين فى أقاليم كانت من قبل معروفة بولائها للعرش ، وترتيل

اناشيد غريبة في اصوات هادئة ، واعلان مملكة داخل حدود الامبراطورية على أصوات النواقيس وأنغام المزمار ، كل هذه اذهلت بونهام لقد كتب الى بلاده يقول : «ان هذه دنيا جلفر وقد طار صوابها» •

ولكن «المملكة السماوية للسلام الأعظم» كانت حقيقة واقعة لامراء فيها ، وقد أثبتت وجودها في مظاهر شتى • وقد أسر الامبراطور الى بونهام أن كل أمله هو أن يكتفي ثوار تاى بنج بما في أيديهم من الاراضي، والا يتقدموا في زحفهم حتى يبلغوا عاصمة الامبراطورية •

واستطرد الامبراطور قائلا : «لو أنني أحصيت جميع الطلقات الموجودة فيما لدى من مخازن الأسلحة ، فلن أجد منها ما يكفي لتصويب طلقة واحدة على كل واحد من الثوار،واذا ما تحرك الشعب الصيني فليست هناك قوة في العالم تستطيع أن تقف في سبيله • وقد نقل بونهام كل هذه التصريحات الى حكومته في لندن ، وتلقى منها تعليمات بأن يتجه من فوره الى العاصمة السماوية دون ابطاء ، ليرى اذا كان من الممكن التعامل مع الحكام الجدد على مستوى دبلوماسية دنيوية لا علاقة لها بمملكة السماء •.

وفي فبراير ١٨٥٤ غادر بونهام مدينة بيكين في طريقه الى العاصمة السماوية • ولما كان يخشى العدوان ، فقد اصطحب زميليه السفير الفرنسي دى بوربولون ، والسفير الامريكي ماك ليني • وصل الثلاثة الى العاصمة السماوية في أوائل مارس• وقد علق دى بوربولون على هذه الزيارة بقوله: لقد شاهدت مظاهر ثورة حقيقية• فلأول مرة أرى النساء الصينيات يسرن في الشوارع بملء الحرية • والعاصمة السماوية هي المكان الوحيد في الصين الذى تتمتع فيه المرأة بحقوق اقتصادية وسياسية • لقد بطل هنا بيع النساء بيع الرق أو التسرى وكذلك الغى تعدد الزوجات ، ويبدو أن نظام ابتياع المرأة بهدايا العرس أو بالهبة قد الغى أيضا• لقد رأيت النساء يسرن في شوارع العاصمة بكامل حريتهن لأول مرة منذ قدومي الى الصين وهذا هو المكان الوحيد في الصين كلها ، الذى تمارس فيه المرأة الصينية بعض حقوقها الاقتصادية والسياسية ، ولقد أبطلت عادة ربط أقدام الفتيات باعتبارها عملا مخالفا للقانون • ولأول مرة أدرك ماعليه المرأة الصينية من جمال • ولقد أثبتت المرأة الصينية أنها جديرة بتحمل أعباء المسئولية منذ أن تحررت •

أما السفير الامريكي فلم يتعرض لذكر النساء ولكنه قال : انالحكومة الجديدة ترفض التصديق على المعاهدات التي تم توقيعها بيننا وبين حكومة بيكين ، ويقول المسئولون في هذه الحكومة انهم سوف يقصرون عملهم على رعاية الشئون الخاصة ببلادهم فقط حتى يتلقوا رسالة من السماء تخالف ذلك • ولا أدرى ان كانوا يهدفون الى السيطرة على بقية امبراطورية الصين ويبدو أن ذلك أيضا يتوقف على رسالة من السماء •

أما جورج بونهام السفير البريطاني وهو رجل عملي فقد كتب ما يلي: ليس هناك أمل مطلقا في انشاء علاقات تجارية بيننا وبين مملكة السماء • فتجارة الأفيون ممنوعة منعا باتا •

واقترح على حكومة جلالةالملكة (الحكومة البريطانية) التعجيل بارسال مساعدات الى امبراطور الصين اذا تلقى ثوار تاى بينج أمرا من السماء بأنه لابد من سقوط بيكين • وعلق السفير قائلا : ان نهاية حكم المانشـو فى الصين معناه حرماننا من تجارة تدر علينا أرباحا كبيرة جدا •

وفى مايو سنة ١٨٥٤ تلقت العاصمة السماوية رسالة من السماء بأنه لابد من الاستيلاء على بيكين ، وكان ذلك بعد سفر بونهام مباشرة •• وهنا تحرك جيش من الثوار قوامه عشرة آلاف جندى فعبر نهر يانجتسى واتجه زاحفا نحو العاصمةالامبراطورية ، ولم تمض خمسة أشهر حتى كان الجيش قد أخضع أقاليم أنهوى وهونان وشانسى وشيهاى واقتحم تينتسن وهى على بعدمائة ميل فقط من بيكين، وكان ذلك فى الأيام الأولى من اكتوبر ولما سمع البلاط الامبراطورى بأنباء هذا الزحف امتلأ رعبا وهلعا • وبادر الامبراطور وحاشيته بارسال أسرهم الى جوهـول حتى تكون فى مأمن • وعاد الامبراطور مرة أخرى يدعو أمراء الحرب فى شيهلى الى مساعدته •

وقد انقضت جنود الصاعقة من ناحية الشمال الغربى لتحـول بين الجيش السماوى وخطوط تموينه • ولم يكن لهذا الجيش السماوى خطوط تموين منظمة بل انه كان مفتقرا كلية الى التنظيم • وكان يعتمد على كثرة العدد والايمان بالرسالة التى يقوم بأدائها ، فواصل زحفه وتقدمه وأخذ يسحق تحت قدميه كل مايصادفه فى طريقه من مظاهر الوثنية •

وقد استطاعت قوات شيهلى المحـــاربة أن توقف زحف الجيش السماوى وتحاصره فى تينتسن ، وبادرت العاصمة السماوية بارســـال الامدادات .. ولكن قوات شيهلى قطعت عليها الطريق وأبادتها •

استطاع لين فنج ـ هسيانج قائد الجيش السماوى فى تينتسن أن ينسحب من المدينة ويرتد الى لينتشن ، ولكن جيشه مات جوعا • فقـد ظل الجند يتناولون غذاءهم من «حب اللبلاب» فترة من الزمن ، ولما نفد الغذاء وأنهكهم الجوع والتعب استلقوا على الارض حيث عاجلتهم المنيـة دون أن يفكروا فى الاستسلام للعدو • وهكذا أنقذت مدينة بيكين •

وعلى الرغم من أن زحف الجيش السماوى نحو الشمال انتهى عاجلا بتلك المأساة • فان مملكة السماء ظلت على اتساعها وقوتها • لذلك بعث الامبراطور أوامره الى حكام الأقاليم الذين لايزالون مسيطرين على مناطقهم بأن يسعوا بأية طريقة لاخضاع الثوار • ولم يكن لدى أحد من هؤلاء الحكام وسيلة لتنفيذ أوامر الامبراطور ، ولكنهم ردوا على الامبراطور برســائل مشجعة تفيض ولاء وطاعة ووقفوا عند ذلك الحد •

وظل الحال كذلك حتى أخذ تسنج كو فان على عاتقه شن حرب منظمة على قوات تاى بينج ، وكان تسنج كو فان هذا أحد كبار ملاك الأراضى فى اقليم هونان الذى نبتت فيه فكرة المملكة السماوية • وعندما أعلنت المملكة السماوية فقد كل عماله وسراريه • كما كان يحمل ضغينة شخصية الى هونج هسياتشانج رئيس «جمعية عبادة الله» الذى كان فى الأصل مدرسا نجح فى امتحان المسابقة الامبراطورى بفضل تسنج كو فان •

قرر تسنج كو فان أن ينشىء جيشا من المتطوعين فى اقليم هونان ويبدأ حملة تأديبية على ثوار تاى بينج • وأمله أنه اذا نجح فى اخضاع هؤلاء الثوار ، فقد يصبح نائبا للامبراطور فى اقليم هونان وهى أمنية تستحق المغامرة فضلا عن أنه سوف يسترد عماله وسراريه • جمع تسنج جيشا من الساخطين على ثورة تاى بينج ، وقد احتاط فى ألا يكون بين هؤلاء المتطوعين من تجرى فى عروقه دماء عنصر المياو ، ثم بدأ تدريب الجيش ولما أن بلغ الجيش مستوى طيبا من التدريب ، زحف به تسنج شمالا نحو بحيرة بويانج وهى مسطح كبير من الماء على حدود مقاطعة هونان ، ويغذيها أحد فروع نهر يانجتسى • وقد كانت هناك بعض فرق الجيش السماوى مرابطة على حافة البحيرة ، فأخذ تسنج يستعد لملاقاتها ، وفى الوقت نفسه بعث رسالة الى الامبراطور بأن الحملة التأديبية قد بدأت عملياتها العسكرية

ولسوء حظ تسنج لم تحقق حملته الأولى نجاحا ، فعندما خيم الظلام على البحيرة قذف جند الثورة أسهما مشتعلة على أشرعة الزوارق التى تحمل جنوده فاحترق أكثر من ربع أسطول الزوارق الذى أعده تسنج لمهاجمة قوات الثوار ، ثم عمد الثوار الى محاصرة قوات تسنج داخل البحيرة وأبادوهم ، ولم يسع تسنج الا أن ينجو بحياته •

كان جورج بونهام السفير البريطانى ، يراقب تحركات قوات تسنج فى قلق زائد ، ذلك أنه كان قد أشار على الحكومة البريطانية بتأييد قوات أباطرة المانشو ضد ثوار تاى بينج ، واذا فنجاح الثواريين خطأ فكرته•• لذلك عمد بونهام الى ارسال أنباء متناقضة لحكومته حتى يبعث فى نفسها الحيرة ويدفعها الى عدم اتخاذ أى اجراء • وقد نجح فى ذلك • وحاول بونهام خلال هذه الأزمة الطاحنة أن يحصل من الامبراطور على امتيازات جديدة للتجار البريطانيين ولكن الامبراطور لم يصغ اليه لانه لم يجد على مقربة منه أسطولا بريطانيا يستطيع المبادرة لمساعدته •

وفى أكتوبر ١٨٥٦ بدأ الموقف يتبدل ، فبينما كان زورق صينى محمل بالافيون ورافع للعلم البريطانى ، راسيا فى مياه نهر بيرل قرب مدينة كانتون ، اذ صعد الى سطحه بعض رجال السلطات المدنية فى كانتون فصادروا حمولة الأفيون وسجنوا البحاره ، وهنا بادر القنصل البريطانى بتقديم احتجاج وطالب حكومة بيكين بتقديم اعتذار ، واطلاق سراح البحارة والافراج عن شحنة الافيون المصادرة ولما رفض الحاكم المحلى اجابة طلبه ، استدعى القنصل بعض السفن الحربية التابعة للأسطول البريطانى فى الشرق الأقصى فألقت قنابلها على مدينة كانتون ، ثم استولت على المدينة ووضعتها تحت حكم عسكرى بريطانى ، وفى ديسمبر ١٨٥٧ أنزل الاسطول البريطانى قوات من مشاة البحرية فى مدينة كانتون •

وفى يونيو ١٨٥٨ سمع الامبراطور أن الاسطول البريطانى فى الشرق الأقصى فى طريقه لضرب مدينة تينتسن بالمدافع ، فبادر بعقد معاهدة صلح وصداقة مع أميرال الاسطول ، ولما كان جيش الثوار يواصل زحفه فلم يكن لدى الامبراطور متسع من الوقت للمساومة مع البريطانيين على شروط المعاهدة فسلم بما يلى :ـ

١ ـ يمنح البريطانيون استخدام سبع موان صينية جديدة مع اعفائهم من الرسوم الجمركية وضريبة الانتاج ، ومن بين هذه الموانى السبع نانكنج ، العاصمة السماوية حينما يتم تخليصها من أيدى الثوار ٠

٢ ـ يوافق الامبراطور على أن يكون للأسطول البريطانى حق ابقاء بعض قطعه بصفة دائمة فى هذه الموانى ، كما يكون للبريطانيين حق الانتقال الحرفى داخل الصين بقصد « التفتيش » ٠

٣ ـ تعهد الامبراطور بدفع تعويض قدره ٤ ملايين أوقية من الفضة ٠

٤ ـ تعهد الامبراطور بأن يكون على علاقات ودية دائمة مع التاج البريطانى ٠ وهكذا انتهت حرب الأفيون الثانية ٠

لم يكن أميرال الاسطول البريطانى مقتنعا باخلاص الامبراطور فى العهد الذى قطعه على نفسه بأن يكون على علاقات ودية دائمة مع بريطانيا، كما أنه كان متأكدا من أن سيطرة الامبراطور على رعاياه فى ضعف مطرد، ومع ذلك فقد فضل التعامل مع الامبراطور على التعامل مع تلك الفئة « المتعصبة » التى كانت تحكم مملكة السماء ٠ لذا قرر استدعاء امدادات عسكرية من الهند وتعزيز مركز الجيش الامبراطورى الذى يقف فى مواجهة قوات ثوار تاى بينج ٠ وفى نوفمبر ١٨٥٩ وصلت طلائع القوات الهندية ووزعت فى الشمال على مشارف تينتسن وعلى طول النهر الأصفر ٠ وقد تحرك الجيش الامبراطورى تعززه القوات البريطانية جنوبا ، ودفع أمامه قوات الثوار حتى نهر اليانجتسى على جبهة عريضة تمتد من نانكنج الى آنكنج ٠ وقد ابتهج الامبراطور بهذا النصر فأعاد أسرته من جيهول الى بيكين وأضاف ملحقا الى المعاهدة يصبح بموجبه ميناء تينتسن ضمن قائمة « الموانى البريطانية » أى الموانى الصينية التى للبريطانيين حق استخدامها ٠ فى ذلك الوقت كان تسنج كوفان قد جهز جيشا جديدا هاجم به قوات الثوار من جهة الغرب ٠ وقد استطاع تسنج أن يوقع الهزيمة بقوات الثوار على الحدود بين هونان وكيانجسى ، ثم زحف نحو آنكنج وفى الطريق انضمت اليه قوات لى هونج تشانج ٠ وفى سبتمبر ١٨٦٠ دخلت قوات تسنج ولى مدينة آنكنج وحاصرتا نانكنج عاصمة المملكة السماوية ٠ وفى مايو ١٨٦١ سقطت نانكنج فى أيديهم وبذلك انتهى عهد « المملكة السماوية للسلام الأعظم » ٠

ان عهد المملكة السماوية يمثل أعظم ثورة قام بها الفلاحون فى تاريخ الصين ٠ أما سقوطها فيرجع الى التناحر والمنافسات التى ثارت بين حكامها كما يرجع الى عجز قوادها وعدم خبرتهم بأساليب الحرب اذ كانت غالبيتهم من الهواه ٠ كذلك يرجع فشل الثورة الى المهارة العسكرية والثبات الذين أظهرهما قائدان لم يجر فى عروقهما الدم الامبراطورى ٠ ولقد هزت هذه الثورة عرش المانشو هزا عنيفا امتد الى أسسه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ٠ وفى خلال ثورة تاى بينج ، تذوق سبعة عشر اقليما من أقاليم الصين الحكم الجمهورى وما كان لها بعد ذلك أن تنساه ٠

عاد تسنج كوفان بجيشه الى هونان بعد أن غمره الامبراطور

يفيض من مظاهر التكريم • وليس هذا بالشيء الكثير ، فلقد بدأت ثورة تاي بينج في هونان ، ولكن الذي أخمدها هو أحد أبناء الاقليم • ومن هنا اعتقد تسنج أن ما تفكر فيه هونان اليوم ، تفعله الصين غدا •

ولشد ماهزه الطرب حينما دخل تشانج شا عاصـــمة الاقليم وهو يحمل لقب نائب الامبراطور • ولم يشأ تســنج أن ينفرد وحده بغنائم النصر ، فقد أصدر أمره - بصفته حاكم الاقليم - بقطــع رأس كل من اشترك في ثورة تاي بينج وتوزيـــع أملاكه على الضباط والجند الذين اشتركوا في القضاء على الثورة •

أما هو فقد انتقل الى قصر الحاكم ليستمتع بالحياة مع سراريه •

وكان بين رجال تســنج جندي ممتاز ذو موهبة وقدرة على التنظيم والتملك ولقد عاد من الحرب بقدر كبير من الغنائم رغبة في أن ينال من الدنيا نصيبا حسنا ، فغادر العاصمة تشانج شا الى مكان يبعد عنها ١٥٠ ميلا نحو الجنوب وهناك اشترى مزرعة كبرى وتزوج ثم بدأ يعمــل على انجاب البنين وتحسين المزرعة • أما اسم هذا الرجل فهو « ماو » •

أخذ ماو ينجب البنين ويزيد من حجم المزرعة • وكان أحب أبنـائه اليه ماو كو فان • وعندما بلغ ماو كو فان أربعة وعشرين ربيعــا تزوج وأقام في مزرعة خاصة به مجـاورة لمزرعة والده • وقد أنجبت زوجــة ماو كو فان بدورها عدة أبناء اشتغلوا كلهم بفلاحة الارض •

وكان أبوهم قاسيا ، خشــنا وهو في هذا يفخر بأنه أب مثالي • وكان كل همه أن يطمئن الى تنشئة أولاده تنشئة يستطيعون بهــا أن يشقوا طريقهم في الحياة بجهودهم » •

نشأة ماوتسي تونج :-

وفي عام ١٨٩٣ أنجبت زوجته ابنا آخر سماه «تسي تونج» ولم يكن الابن الجديد على درجة من قوة البنية وبطء التفكير كاخوته ، وهذا ممـا أفزع والده فكيف يكون والدا لمثل هذا المولود الرقيــق الشعور الضئيل الجسم ؟ كان كلما رأى هذا الطفل الصغير الحــالم يهيم على وجهه في الحقول يقطف الزهور ويتحدث الى الكتاكيت الصغيرة بلغة رقيقة ، أرغى وأزبد ، حتى لقد يبلغ به الحنق أن يتهم زوجته بعدم الامانة الزوجية •

وكان جيران كوفان يتهامسون فيما بينهم : « ان ماوتسي تونـــج سوف يودي بوالده الى القبر •

أما الفتى تسي تونج فما كان ليعبأ بما يقــوله الجيران ولا بسلوك والده فما كانت ثورات غضب والده لتهز أعصابه ، وظل همه العيش بين الزهور والطيور في سماء الصين الجنوبية الصافية وشمسها الدافئة •

كانت الاحداث تترى ، ودخلت الصـــين في حرب دفاعية ضـــد اليابان ، ومع ذلك فلم يكترث • فليس هذا يومه •• ان معركته لا تزال في ضمير الغيب •

الفصل الثانى

ان ما تعرضت له الصين من اهانة واذلال بعد حرب الأفيون الثانية، آكد ما كان يخشاه أكثر الصينيين بعد اذلالها فى حرب الأفيون الأولى • لقد اصبحت هذه الامبراطورية الشرقية العظيمة فى نظر ساسة الغرب نكتة سياسية • كان ساسة الغرب يتندرون بقوة جيش الصين ، فيقولون « ان قوة جيش الصين مثل قوة الاسطول السويسرى » • والقارىء يعلم ان الاسطول السويسرى شىء لا وجود له •

ولم يكن من السهل على الصينيين أن يصبحوا موضع سخرية الغرب ، خاصة وهم قوم حريصون على الاحتفاظ بكرامتهم أمام الأجانب • واشد خطرا من السخرية السياسية ذلك الاستغلال المتزايد لموارد الصين، الذى كانت تتسابق فيه بريطانيا وفرنسا وأمريكا ، ثم روسيا القيصرية واليابان فيما بعد •

لقد ظل البريطانيون والأمريكيون والفرنسيون حتى منتصف القرن الماضى ، قانعين ببناء أحدث السفن لضمان شحن البضائع وتفريغها على سواحل الصين • وكان حوض السفن الذى بنته بريطانيا فى مدينة كانتون عام ١٨٤٥ ، والموانى الفرنسية والامريكية فى شنغهاى وأموى وفوتشاو تستخدم العمال الصينيين • هذا كان يدعم الاقتصاد الصينى بعض الشىء • وبعد اتفاقيات بيكين فى عام ١٨٦٠ بدأ الأجانب ينشئون المصانع والمراكز التجارية • فقد أنشأ الروس مصانع لتعبئة الشاى فى هانكلو وفوتشاو ، وأنشأ البريطانيون (١٨٦٢) مصنعا للحرير فى شنغهاى وتبعهم فى ذلك الفرنسيون والامريكيون • وقد كانت كلها مصانع كبرى ، فقد استخدم المصنع الامريكي وحده ألف عامل صينى وأصبح منافسا خطيرا للصناعة الوطنية الصينية ثم قضى عليها نهائيا • ولما أصبح أرباب الحرف من الصينيين الذين كانوا يستغلون فى تصنيع الشاى ونسيج الحرير بلا عمل ، اشتغلوا أجراء فى المصانع الأجنبية • وقد بلغ بهم ضيق الحال الى حد أن يقدموا الرشوة أو يقتل بعضهم بعضا فى سبيل الحصول على عمل فى هذه المصانع الاجنبية • ولما ازداد العرض على الطلب هبطت أجور العمال الصينيين ، وصار العامل الصينى يعتبر سعيد الحظ ان هو استطاع الحصول على أجر قدره ٣٠ شلنا لمدة ١٤ ساعة من الشغل يوميا • وهذا الأجر لا يكاد يقيم أوده • أما نقابات العمال فلم يكن لها وجود فى الصين •

وقد دأب البريطانيون والفرنسيون على تحريض الامبراطور « بالا يتدخل فى الصناعة » • وكانوا يوحون اليه بأن الاهتمام بالصناعة

والتجارة أمر لا يليق بمركزه الامبراطوري . ولقد أفلح روبرت هارت البريطاني الذي كان مفتشا عاما للتجارة في بيكين في اقناع الامبراطور بأن يعينه مفتشا عاما للجمارك الصينية وبلغ روبرت هارت هذا من الشهرة في بيكين ومن الحظوة والثقة لدى الامبراطور درجة جعلت مشورته ضرورية حتى في اختيار نواب الامبراطور في الأقاليم الصينية المختلفة . وكان في أواخر حياته مستشارا امبراطوريا للشئون الداخلية والخارجية وهو بذلك يقوم فعلا بادارة شئون الصين كلها دون أي «تدخل صيني» .

ولقد تعلمت الطبقة المستنيرة في الصين درسا قيما من ثورة تاي بينج وما أعقبها من هزيمة الجيش السماوي عام ١٨٦٢ . أما ذلك الدرس فهو اقتناعها بأن البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين كانوا مصممين على المحافظة على عرش المانشو تمشيا مع مبدأ « خير لك أن تتعامل مع شيطان ضعيف تعرفه ، من أن تتعامل مع شيطان قوي لا تعرفه » .

غير أن موقف المحافظة على أباطرة المانشو الذي اتخذته الدول الغربية لم يمنع الصينيين من اعداد المؤامرات والجمعيات السرية لاغتيال الامبراطور أو نفيه ، وان كانت هذه الجمعيات قليلة العدد . أما الصينيون الأوسع حيلة فقد كانوا يرون ان خير طريق يتبع هو الدخول في منافسات تجارية وصناعية مع الأجانب لمنعهم من استغلال موارد الصين . كان هؤلاء الصينيون العقلاء يرون ان الثورة الصناعية ومائة عام من النشاط التجاري ، هما اللذان جعلا بريطانيا أعظم دولة في العالم . وعلى الشعب الصيني اذن أن ينشىء المصانع ويبني السفن وسوف يجيء وقت تستطيع فيه الصين مزاحمة بريطانيا في الأسواق ولقد انبرى كتاب صينيون من امثال فنج كوي فن وتشنج كوان يلج يستحثون مواطنيهم على الحد واحراز المهارة كي يصبحوا مثل البريطانيين .

ولقد أعدم تشنج عندما نادى بأن من وسائل حرية التجارة الحد من سلطة الامبراطور المطلقة ووضع التجارة الوطنية في أيدي أحد رجال الأعمال الصينيين .

والملاحظ في الصين أن تاليف الكتب فيما يجب أن يعمل هي نقطة ضعف وطنية ، وأنه قد جرت تقاليد هذه البلاد على أن من يريد أن يفعل شيئا من أجل بلاده لا يقرأ الكتب ، وأن من كثرت قراءته قل فعله . ومن هنا فقد تولى حركة الانتاج القومي نفر ممن نالوا حظا ضئيلا من التعاليم .

كانت نواة هذه الجماعة الوطنية من التجار وأرباب الصناعة نقابة صغيرة من التجار في فوتشاو اشترت آلة لعمل قوالب الشاي وبدأت تنافس بمصنعها الصغير المصنع الروسي في المدينة .

وفي شنغهاي قام فريق من تجار الارز الوطنيين عام ١٨٦٣ بشراء آله لتبييض الارز ، وفي سنة ١٨٨٠ أسست في تانهاي مصانع وطنية لنسج الحرير .

تلك هي عدة مصانع وطنية في بلد كان تعداده أربعمائة مليون

ولكنها على أى حال بداية طيبة . ولم يجيء عام ١٨٩٠ حتى ارتفع رقم المصانع الوطنية الى ستين وارتفع رأس المال الصينى المستثمر فى هذه المصانع من ٣٣٠ الف دولار الى ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار . وتلا ذلك عدد من مصانع النسيج واستخراج الفحم .

وبعد القضاء على ثورة تاى بينج اتجه تسنج كو فان لانشاء مصنع للذخائر فى هونان وأعانته السلطات الفرنسية ببعض ضباطها لتدريب جنوده فى مقابل الحصول على جانب من أرباح المصنع . وأنشأ تسو تسونج تشانج حوضا للسفن فى فوتشاو فى عام ١٨٦٦ وأداره بمساعدة الروس ، واشترك الفرنسيون مع لى هونج تشانج فى انشاء مصانع للأسلحة فى شنغهاى وفوتشاو ونانكنج مما أثار الريبة فى نفوس البريطانيين . ولكن عندما نشبت حرب صغيرة بين الصين وفرنسا (١٨٨٤ ــ ١٨٨٥) توقفت المصانع عن العمل .

ولقد أعد روبرت هارت تقريرا عن مصنع الأسلحة فى نانكنج فقال : ان آلات المصنع كلها مستوردة من الخارج ، وانتاجه ضئيل وهو عاجز عن انتاج الأسلحة الثقيلة وان ادارته سيئة يشيع فيها الفساد وتبدد الأموال .

وأصبح من الواضح أن اندفاع الصين نحو اقتباس النظم الغربية يسير قدما الى غايته واذا كان فى استطاعة الصين بعد هذه البداية المتعثرة أن تحكم الربط بين الصناعة الوطنية الناشئة والتجارة الطليقة من كل قيد ، وبين قدرة الشعب الصينى الطبيعية على العمل الشاق والنشاط التجارى الكبير ، فانها بذلك قد تتمكن يوما ما من أن تقف من دول العالم الصناعية موقف الند للند . ذلك أن فى باطن أرضها كل المعادن اللازمة للصناعة ، ولديها وفرة فى اليد العاملة والأسواق المتجه أمامها فى الداخل والخارج .

ولم تكن هذه الفكرة سائدة فى الصين وحدها فى أواخر العقد التاسع من القرن الماضى ، بل كان يدركها شعب أسيوى آخر . أخذ بدوره يقتبس أساليب الغرب ، ذلك هو الشعب اليابانى . فقد عكفت امبراطورية نيبون (اليابان) منذ ثلاثين عاما على بناء المصانع وحفر المناجم ، وهى حين ذاك فى طريقها لكى تصبح دولة صناعية . وكانت سياسة اليابان تتجه الى عدم تشجيع الصين على اقتفاء أثرها ، وتعمل على عرقلة مساعيها فى هذا السبيل ، حتى اذا ما أصاب الاقتصاد الصينى الركود بادرت اليابان الى استغلال ثروة الصين المعدنية وأسواقها . وهكذا نجد اليابان ترقب هذه النهضة الصناعية الصينية فى ضيق ولم يجيء عام ١٨٩٤ حتى وجدت اليابان سبيلا للتنفيس عما تشعر به من ضيق .

ففى يناير من ذلك العام أثارت الاضطرابات فى كوريا طائفة دينية تدعى طائفة التوغاك ، ولما اعتقدت حكومة كوريا أن اليابانيين يزودون التوغاك بالمال استنجدت بامبراطورية المانشو لاخماد هذه الاضطرابات . وبادر امبراطور الصين بارسال قواته المحاربة عبر الحدود الشمالية

لكوريا حيث أوقعت الهزيمة بجيش التوغاك الصغير • وقد لاحظ الوزير البريطاني في تهكم أن هذا الجيش الصيني هو أكبر قـــوة تستطيـــع امبراطورية المانشو ارسالها الى ساحة القتال مع تجنب الهزيمة ، ولكنه أوقف المزاح والتهكم عندما سمع بأن اليابانيين قد أنزلوا قواتهمفي كوريا الجنوبية • هنا أشار على امبراطور المانشو بأن يعجـــل بالتفاهم مـــع اليابانيين ، فيعرض عليهم انسحاب القـوات الصينية واليابانية فورا من أراضي كوريا • ولكن اليابانيين رفضـــوا هذا العرض وزحفت القوات اليابانية شمالا حتى مدينة سيول • وفي يوليو ســـنة ١٨٩٤ ، أعلنت اليابان الحرب على الصين دون انذار ســـابق ، وذلك مثلما فعلت مـــع الأمريكيين في بيرل هاربور بعد ذلك بخمسين عاما ، فلم يكن اعلان الحرب في صورة تصريح أو مذكرة مكتوبة على قصاصة من الورق ، ولكنه اتخذ طريقا عمليا باغراق أسطول الصين الشمالي على بعد من آسان في جنوبي سيول • وفي أعقاب ذلك مباشرة ، وبتواطؤ مع الحـــكومة الامريكية ، اتجه الاسطول الياباني جنوبا نحو البحر الأصفر رافعا العـــلم الأمريكي وشتت القوات البـــحرية الصينية في بيبانـــج • كذلك أوقعت القوات اليابانية الهزائم بالجيش الصيني حيثما تصدى لقتالها •

وتجنبا لنكبات وهزائم جديدةفي البر والبحر توجه لي هونجنشانج الى شيمونوسيكي في اليابان في شهر مارس ١٨٩٥ لاجراء مفـــاوضات وعقد معاهدة صلح • وكانت المعاهدة كارثة جديدة على الصين أضيفت الى قائمة كوارث المعاهدات السابقة • فقد قضـــت معاهدة شيمونوسيكي بتنازل الصين لليابان عن شبه جزيرة لياوتونج وجزر بنجهو وفورموزا • كذلك قضت شروط الصلح بأن تدفع الصين لليابان ٢٠٠ مليون أوقية من الفضة كغرامة حربية ، وأن تفتح موانى شاسي وتشنكيانج وسوتشاو وهانجتشاو للتجارة اليابانية وهكذا شاركت اليابان بريطانيا وفرنسا وأمريكا في التحكم في شئون الصين •

لم تعر بريطانيا معاهدة شيونوسيكي أى اهتمام ، ذلك أنها كانت قد خطت في استغلال الصين خطوات بعيدة لا تخشي معها أى منافســـة من الجنس الأصفر • وهذا هو رأى الوزير البريطاني في الصين •

ولكن روسيا لم تقف من معاهدة شيمونوســـيكي وشروطها موقف المتفرج فكوريا قريبة من أراضيها • ولذلك تحالف قيصر روسيا مع فرنسا وألمانيا ثم أخذ يضغط على اليابان كي تعيد الى الصين شبه جزيرة لياوتونج ولكي تحقق روسيا أهدافها قام الأسطول الروسي في الشرق الأقصى بمناورات على بعد من شانتونج ، ولما لم تكن اليابان على استعداد للدخول في معركة مع روسيا فقد أعادت شبه جزيرة لياوتونج الى الصين في مقابل غرامـــة حربية قدرها ٣٠ مليون أوقية من الفضة •

لقد أصبحت خزائن المانشو خاوية بعد هذه الحرب، واضطر الامبراطور فيما بين ١٨٩٥ ، ١٨٩٩ الى اقتراض ٣٧٠ مليون أوقية من الفضـــة من بريطانيا وفرنسا كي يقوم بدفع التعويضات ويحتفظ بالخزانة الامبراطورية وقد حصل البريطانيون على حق التعدين في كايلوات وحق مد سكة حديد

شانغهاى ـ تانكنج وتشغيلها وحق انشاء مصانع فى جميع انحاء الصين مع دفع ضريبة رمزية فقط ، كل هذا ضمانا لسداد القرض ، أما روسيا وأمريكا وفرنسا (والوافدةالجديدة على الصين) وهى ألمانيا فقد حصلت كلها على امتيازات لمد السكك الحديدية فى مقابل تقديم قروض للامبراطور حينما كان فى مسيس الحاجة لهذه القروض · ولم ينته عام ١٨٩٠ الا وقد بطل تقرير مصير الصين فى بيكين ، فاصبح هذا الموضوع يطرح على بساط البحث فى اجتماعات دبلوماسية تعقد فى باريس ولندن وموسكو وبرلين ، وفى اجتماع عقد فى باريس عام ١٨٩٨ تقرر تقسيم الصين الى مناطق نفوذ فحصلت فرنسا على كيانجتسى وكونجتونج وبعض أجزاء هونان المجاورة للهند الصينية · واستأجرت كوانجتشو من الامبراطور ودفعت فى مقابل ذلك «ايجارا طيبا» · أما بريطانيا فقد فازت باقليم ييه جن وشبه جزيرة كولون وجزر هنج كنج وخلجان تابيانج وشومتشوف وقائمة كبيرة من الموانى وحصلت ألمانيا على خليج كياوتشاو مع حقها المطلق فى مد السكك الحديدية من كياوتشاو الى داخل الصين · وكان نصيب روسيا هيلونج وكيانج وكيرين والحق فى مد سكة حديد سيبريا عبر ممتلكاتها الجديدة · وتم الاتفاق على أن يكون وادى اليانجتسى من نصيب بريطانيا ، وكل مايقع شمالى سور الصين الكبير لروسيا ·وتم ابلاغ هذه القرارات الى الامبراطور فى سلسلة من المذكرات الدبلوماسية ·

هكذا انحدرت الصين الى ما يكاد يكون مستوى المستعمرات ، وفى اجتماع عقد فى لندن عام ١٩٠٠ كانت « النكتة » الدبلوماسية هى أن امبراطورية الصين أصبحت فى مرتبة البحرية السويسرية ·

لم يكن من المعقول أن يقبل جميع الصينيين هذه الخطة دون اعتراض ولكن ما العمل ؟ فى امتحانات المسابقة التى عقدتها الامبراطورية عام ١٨٩٨ تقدم ألف من المتحنين يتزعمهم كانج يوواى بالتماس الى الامبراطور لاجراء اصلاحات دستورية ، وقدمت عدة التماسات أخرى من جهات متعددة ولكن كان مصيرها جميعا الضياع فى متاهة دهاليز القصر الامبراطورى ·

وفى هذه الفترة صدرت صحيفتان تدعوان الى الاصلاح وهما كووون ياو (الصحيفة الوطنية) وتشونج واى تشى ون ياو (النشرة اليومية العالمية) ولكن الصحيفتين لم يقدر لهما النجاح بسبب ندرة القراء حينذاك ·

الدكتور صون يات سن :

ولكن رجلا واحدا حقق النجاح · ذلك هو الدكتور صون يات سن · لقد شاهد الرجل عجز بنى وطنه الظاهر فى مواجهة الغزو الأجنبى ، كما شهد عدم كفاية الادارة الامبراطورية ، فتخلى عن عمله وغادر الصين الى الخارج لينظم حكومة ثورية فى المنفى · وكان اعتقاده أنه لابد أن يأتى يوم لقيام ثورة فى الصين ، خاصة اذا كان لدى الاجانب مايشغلهم فى جهات أخرى · ذهب الدكتور صون يات سن الى هونولولو حيث توجد جالية صينية كبيرة وبدأ يجمع حوله الرجال والآراء · وانشأ «جمعية احياء الصين» وافتتح خزانة ثورية ، واستطاع صون يات سن أن يرسل مبعوثيه الى كل أقاليم

آسيا الجنوبية الشرقية التى تكثر بها الجاليات الصينية لنشر الدعوه بين مواطنيه وشن على الامبراطور حربا اقتصادية لاهوادة فيها ، بمنع الصينيين فى الخارج من دفع «ضريبة الولاء» التى كانت ركنا قويا من أركان دخل الخزانة الامبراطورية ٠

وفى ١٨٩٨ حقق الدكتور صون يات سن أول نجاح له ولو انه كان ضئيلا ، فقد اضطر الامبراطور هوانج هسوان يصدر مرسوما يقضى باصلاح النظام التعليمى العتيق وآخر بتخفيض عدد الموظفين ، وثالثا بانشاء مكتب دائم لنشر الآراء المؤدية للاصلاح ٠ كذلك منح الامبراطور كل مواطن صينى حق التظلم وتقديم المشورة للادارة الامبراطورية ٠ وكان هنـــاك كثير من المواطنين الذين يرغبون باخلاص فى التعاون مع الامبراطور لمعالجة نواحى الخلل الاقتصادى والادارى ٠ ولسوء الحظ اعترضت عمة الامبراطور على كل اتجـــاه للاصلاح ، وكانت تعيش مترفة على مبلغ ضخم خصصه لهـــا الفرنسيون ٠ ولذلك لم تمض مائة يوم على اصدار مراسيم الاصلاح حتى أصبح الامبراطور حبيس قصره وألغيت المراسيم ٠

قد يقال ان هذه المراسيم لم تكن ذات دلالة كبيرة ولكنها فى الواقع أصبحت ميثاقا ، بنيت عليه كل حركات الاصلاح فى المستقبـــل ٠ وهى بوصفها وبتوقيع الامبراطور عليها صارت هدفا دستوريا للصينيين يماثل الماجناكارتا (العهد الأعظم) لدى الانجليز ٠ ولقـــد أبلغ صون يات سن أصدقاءه أن عليهم الانتظار حتى وفاة الامبراطورة الأرمل (عمة الامبراطور) فتصدر قوانين الاصلاح مرة ثانية ، وأنهم لو تذرعوا بالصبر لتحققت ثورة بيضاء دون اراقة نقطة من الدماء ٠

لقد عمل أنصار صون يات سن بمشورته ، ولكن لم يكن جميـــع الصينيين من أنصار الدكتور ، واذن فلم يكن الصبر رائد الجميع ٠

لقد كانت ذكرى ثوار تاى بينج ماثلة فى أذهان أبنائهم ، فهم لايزالون يتطلعون الى «مملكة السلام الأعظم» ٠ وبدا لهم كأن عهد الثورة هو الفترة الوحيدة فى تاريخ الصين خلال القرن التاسع عشر التى تستحق أن تسمى فترة حضارة وكرامة ٠

فى ذلك الحين كان جباة الضرائب من عمـــال الامبراطور لايزالون يحصلون الغرامات التى فرضتها الادارة الامبراطورية على بقايا ثوار تاى بينج فى اقليمى آنهوى وكيانجسو المحيطة بالعاصمة السماوية (عاصمة ثوار تاى بينج) ٠ أخذ هؤلاء الجباة فى عملية التحصـــيل دون مراعاة للفيضانات والمجاعات التى اكتسحت المنطقة فى عامى ١٨٩٧ ، ١٨٩٨ ، بل اشتدوا فى المطالبة بمبالغ اضافية لتسديد الغرامة الحربية التى فرضتها اليابان على الامبراطور ٠ ولكن أنى لهم المال وملايين الفلاحين يعيشون على لحاء الشجر وجذور النبات ٠ لقد مات من بين هـؤلاء ١٨٧ ألفـا عام ١٨٩٧ ، ٦٧٢ ألفا فى عام ١٨٩٨ بسبب سوء التغذية ٠

حرب البوكسر :

ولما اشتدت غائلة الجوع على هؤلاء الفلاحين التعساء ، انضموا عام

١٨٩٨ الى حركة تمرد كان يتزعمها يوتونج تشن ، حفيد أحد مؤسسى حركة تاى بينج · وفى ١٨٩٩ قاد يوتونج تشن أتباعه الى اقليم شانتونج حيث انضموا جميعا الى «جمعية البر والقبضات المتضامنة» (البوكسر) وهي الوريث الروحي للمملكة السماوية · وقد كانت هذه الجمعية على درجة كبيرة من المرونة السياسية والتنظيم فغيرت شعارها من «ابادة المانشو» الى «اعزاز المانشو وابادة الأجانب» ·

وفى يناير ١٩٠٠ اكتسح يوتونج تشن هو وجماعة البوكسر اقليم هوشيى (الذى عاصمته بيكين) واحتلوا تينتسن · ونجح الثوار فى قطع المواصلات الحديدية عن مدينة بيكين ، وضم غالبية الجيش الامبراطورى الى صفوفهم ·

وفى شهر مايو دخلوا مدينة بيكين نفسها وأحرقوا الكنائس المسيحية التى صادفوها فى أثناء زحفهم ، ذلك ان يوتونج كان يعتقد أن هذه الآلهة الأجنبية هى التى قضت على المملكة السماوية واذا فلا بد من التخلص منها نهائيا · ولما سمعت بريطانيا وفرنسا وروسيا أنباء نهب الكنائس واحراقها أرسلت تعليمات الى أساطيلها أن تقف على أهبة الاستعداد على بعد من ساحل الصين الشمالى للأخذ بالثأر ولم تكن الامبراطورة الأرمل فى مركز يسمح لها بتقديم الاعتذار الى الدول الغربية وقمع الاضطرابات ، ذلك أن الثوار كانوا قد اقتحموا عليها القصر عندما تلقت مذكرة الاحتجاج البريطانية ، وفى يونيو عام ١٩٠٠ لم يكن أمامها الا أمر واحد وهو التفاهم مع جماعة البوكسر واعلان الحرب على «المعتدين الأجانب» ·

وفى يوليو نزلت قوة مشتركة قوامها ألفا جندى بريطانى وفرنسى وروسى وأمريكى فى ميناء تينتسن ، واتجهت نحو بيكين ولكن الثوار نصبوا لها كمينا فى الطريق وأهلكوا الجانب الأكبر منها · وفى أغسطس نزل أول جيش للحلفاء قرب تينتسن وزحف على بيكين فاحتلها ، ولكن الثورة كانت قد عمت أرجاء الصين ، وسالت الدماء أنهارا وارتكب الجانبان أشد الأعمال الوحشية · ولقد دامت حرب البوكسر عاما دمويا كاملا ، وانتهت بهزيمة الثوار وتوقف حركتهم أمام ذلك التجمع القوى لقوات الحلفاء الغربيين ووقوف أساطيلهم بالمرصاد أمام كل موانى الصين · وعاد الفلاحون الى دورهم ليخفوا أسلحتهم وينتظروا سنوح فرصة أخرى ·

وكان على الامبراطورة التعسة أن توقع معاهدة صلح تضاءلت بجانبها معاهدة الصلح اليابانية ، سواء فى حجم الغرامة الحربية التى فرضتها أو فى درجة الاذلال التى تعرضت لها امبراطورية الصين المتداعية ، ولقد حلت الهيئة الدبلوماسية الأجنبية فعلا محل حكومة الصين فى ادارة شئون البلاد ، وشوهد الحرس البريطانى خارج القصر الامبراطورى على زعم أنه جاء للمحافظة على الامبراطورة من الاغتيال ، ولأول مرة فى التاريخ توغل الجنود الأجانب فى داخلية الصين «للقيام بأعمال الحراسة» ·

كان عمر ماوتسى تونج ثمانى سنوات حينما تم قمع ثورة البوكسر ولم يكن قد زار تشانج شا عاصمة هونان من قبل ، كما أنه لم يشاهد الحامية البريطانية هناك · ولكن جده كان يتميز غيظا لوجود جنود أجانب

في اقليم هونان على غير دعوة منه • وأخذ الجد يحـــدث حفيده الغريب الأطوار الذى لم يكن قويا كأخوته ، ويهدىء من مخاوف والده ويطمئنه على أنه من الخير للأسرة أن يكون بينها مثل هذا الولد الضعيف ، اذ قد يجتاز امتحان المسابقة ويلتحق باحدى وظائف الخدمة المدنية في امبراطورية الصين • واستأجر الجد (ماو) مؤدبا ليعلم حفيده المحبوب (تسي تونج) القراءة والكتابة أما كو فان والد تسي تونج فقد استجاب لرغبة أبيه (ماو) وترك الولد وشأنه •

كان نمو تسي تونج بطيئا ولكنه كان سليم التفكير ، ففي سن الثامنة كان قد ألم ببضع مئات من رموز الأبجدية الصينية ، كما أصبح على ادراك واسع ولو أنه سطحي ، بالأدب الصيني وخاصة مايتعلق منه باقليم هونان وكان يتحدث عن نفسه فيقول أن رأسه الغريب التكوين الذى يشابه الكمثرى كان مملوءا بالشعر وبقصص الحرب التى كان يحكيها له جده •

كان تسي تونج يحب جده ولو أنه كان يخشاه ، وعندما مات تسنج حاكم الاقليم أعد تسي تونج قصيدة وقدمها لجده ليبعث بها الى أسرة تسنج

وبتشجيع والده أعد قصيدة ترحيب بالحاكم الجديد تشانج تشبه ـ نونج وما كان الفتى تسي تونج ليهتم بما تلقاه كتاباته من عناية أو اهمال وظـل يحيا حياته الخاصة مستمتعا بتدليل جــده له وما يشتريه له من مداد وقراطيس للكتابة • وقد حاول التودد الى والده ولكنه فشل فى محاولته •

وفي عام ١٩٠٣ مات الجد ولم يوص بشيء لابنه كوفان ، فلم يسع الرجل الا أن يصب جام غضبه على الفتى ماوتسي تونج ذلك الفتى الذى كان جده يدلله • وما أن وورى جسد ماو التراب حتى هب كوفان فمزق الصحائف وأوراق المداد وبعث بابنه تسي تونج للعمل فى الحقل ، مع اخوته الأقوياء الجهلة • لطالما كان هؤلاء الأخوة يحسدونه على حياته الأدبية ، أما الآن فهو بين ظهرانيهم وتحت رحمتهم فكلفوه أشق مافى المزرعة من أعمال الفلاحة • كان عليه أن يشتغل بجانب أسرع العمال فى مزرعة والده ، وأن يبزهـم فى اقتلاع الحشائش الضارة واستعمال الفأس على أن تكون وجبته أقل من وجباتهم • وكان العامل الزراعي يتناول وعاء من الأرز كل يوم وبيضة واحدة فى الشهر • ولقد قال ماوتسي تونج مرة لاحد المراسلين الآجانب «ماكنت أنا ولا اخوتى نحصل على البيضة ، أما اللحم والسمك فلم نذقهما أبدا » •

لم يكن ماوتسي تونج ابن العاشرة قد تعود على العمل الشــــاق فى الحقل طول اليوم ، وقد استنفدت ساعات العمل الشاق الطويل كل مافى جسمه الضئيل من قوة ، ولكنه ثابر على هذا العمل الشاق بسبب ماكان يوجهه له اخوته من تهكم وسخرية • لقد ظل عامين كاملين يشــتغل فى الحقل وحده ، ولا يكلم أحدا بل يفكر فيما فى عالم الطفولة من ظـــلم وقسوة • وأخيرا فقد صبره ولم يعد يطيق حياته فى الحقل • وفى احدى الليالى لم يعد الى دار أبيه ، بل حمل منديلا مملوءا بحبات الأرز وولى وجهه شطر تشانج شا عاصمة اقليم هونان • وبعد أن قطع عشرين ميلا قابله فلاح طيب القلب فرق له وآواه • كان هذا الفلاح فقيرا ولكنه لم يكن مكتئبا وقد انخرط فى سلك احدى الجمعيات السرية الصينية المتعـــددة التى كرست

حياتها للثورة • وأمل هذا الفلاح في مجيء يوم تبتسم فيه الحياة • هو الذي بعث فيه البهجة وبدد أحزانه •

كان الفلاح يؤمن بأن الصين خسرت حربها ضد اليابان بسبب عجز الامبراطور وبلاطه • وكان ماو تسي تونج يشاهد أعضاء الجمعية السرية كل ليلة في دار الفلاح يتحادثون ويدبرون الخطط في انتظار «اليوم الموعود» فيرقد على الأرض ويصغى الى مايقولون •

كان الفلاح ولى نعمته عضوا في «جماعة التعاون الأخوى» وقد أصغى اليهم ماو وهم يرددون شعارات مثل «فليسقط المانشو والأجانب» •

لم يكن ماو قد رأى الأجانب ولا الامبراطور من قبل ولكنه اعتقد ان أعضاء الجمعية السرية يعرفونهم جميعا • ولقد جال بخاطره أن حضـــور اجتماعات الجمعية السرية أمر جدير بالاهتمام ، ولم يعقه عن التفكير في ذلك أنه لايزال فتى وأنه أصغر من أن يقحم نفسه في المغامرات • لقد انتهى فرار ماوتسي تونج من بيت أبيه بكارثة ، فقد أغار البوليس على أعضاء الجمعية أثناء أحد الاجتماعات ، ووجد الفتى قابعا على الأرض بجوار أولئك المنشقين وقد أعيد الفتى الى دار أبيه ، فجلده أبوه بلا رحمة أمام جمع من الناس •

ومنذ ذلك اليوم بدأ ماو يقوم بأشق الأعمال، فالغيت من سجل حياته أيام الراحة وكان طعامه صنفا واحدا لايتغير وبكميات قليلة ، وأنكره أخوته وماكان أبوه يوجه له حديثا غير السب والشتائم• وبرغم كل تلك الكراهية التي أظهرها والده فقد عكف على عمله بلا شكوى • لقد كان لديه متسع من الوقت للتفكير فيما سمعه من أعضاء « جمعية التعاون الأخوى » وقد أصبح الامبراطور في نظره معادلا لوالده ، فهو رمز الظلم والقسوة والتجرد من النزعة الانسانية وعلى النقيض من ذلك فان الفلاحين من أمثال «ولى نعمته» كانوا يمثلون مافي الحياة من سخاء ورحمة• أما ملاك الأراضي ورجال البوليس فلم ير فيهم الا صورة طبق الأصل من اخوته ، وهنــا كان يقول : كانت قسوة والدى السبب الاول في اتجاهاتي الثورية ، وكان سلوكه يبدو لي كأنه شيء لابد من تغييره ، وأن يوضـــع حـــد لما في كل أسرة صينية من ظلم واضطهاد •

كان ماوتسي تونج حريصا على أن يراجع بعد عودته من الحقـــل ما سبق ان تعلمه في أثناء حياة جده ، وأن يزيد عليه ان استطاع • وكان بيت أبيه لايحوى الا قلة من الكتب ، ولكنه أخذ يستعيد قراءة هذه الكتب القليلة حتى حفظها عن ظهر قلب • وكثيرا ماكان النزاع يثور بين أبيه وأمه حينما تقف أمه بجانبه اذا حاول أبوه انتزاع الكتب من بين يديه وارغامه على أن يأوى الى فراشه بعد تناول العشاء ، فقد كانت أمه مخلوقة وديعة ودودا لايعرف الشر الى قلبها سبيلا • وفي عام ١٩٠٥ اختفت هذه الأم الحنون ، فقد أغرقت نفسها في بركة ماء ودفنت سرا ، لقد كان الانتحار لديها أخف ألما من العيش مع والده كو فان الذى ازداد قسوة وطغيانا •

ولما حرم ماوتسي تونج نصيره الوحيد في دار أبيه عكف على عمله في الحقل في أثناء النهار ، وعلى الاشتغال بقلمه في أثناء الليل • ولم يكن عكوفه على الكتب مشابها لما يفعله أهل العلم • بل كان كل همه أن يؤهل نفســه

بكل طريقة ممكنة حتى يستطيع مغادرة دار أبيه في أقرب فرصة ، ويقوم بعمل نافع . لم يكن يدرى على وجه التحديد ماهو هذا «العمل النافع» ولكن كانت لديه فكرة مبهمة ، ذلك أن «يبيد الرجال الذين هم على شاكلة أبيه، ويحرر أولئك الذين هم من طراز أمه» .وكان هذا الحلم يمتزج فى نفسه بالجوع والخوف فيترجم ساعة الغداء بالعمل على تحسين مستوى معيشة لفلاح الصيني الفقير . كان عيشه أقسى من عيش هؤلاء الفلاحين ، ولقد اتخذ لنفسه أصدقاء كثيرين من بينهم وبخاصة أولئك الذين يعملون فى مزرعة والده ، وذلك على الرغم من التعليمات المشددة التى تفرض عليه أن يباعد بينه وبينهم باعتباره ابن رب الدار وهم أجراؤه . وكان الفلاحون بدورهم يبادلونه ودا بود ويبذلون أقصى مافى طاقتهم لتخفيف عبء الحياة عليه .

وفى عام ١٩٠٦ وكان ماوتسى تونج قد بلغ الثالثة عشرة ، كان محصول الأرز رديئا فى اقليمي هونان وكيانجتسى ، بل امتدت رداءة المحصول الى جميع مناطق انتاج الأرز فى جنوب وجنوب شرقي الصين . وقد رحب والد تسى تونج بالمجاعة على أنها نعمة مستقرة ، فرفع سعر مالديه من الأرز وجلس فى انتظار الثروةالموعودة. ولكن الثروة الموعودة لم ترد فلم يكن لدى الفلاحين من المال مايكفى لشراء الأرز بهذا الثمن الباهظ . ولما اشتد الجوع بالعمال والفلاحين تجمعوا أفواجا تلو أفواج وقدموا تظلمات للادارة المحلية . وقد شجعهم أنصار جماعة صون يات سن الثورية فهاجموا المخازن والمحـــال التجارية فى الليل وسرقوا كل ماتصل اليه أيديهم من مواد غذائية وتركوا على الجدران الشعارات الآتية :

«أنشئوا الجمهورية ووزعوا ملكية الارض بالتساوى» . وكان من بين مخازن الارز التى هوجمت مخزن والد ماوتسى تونج ، بل ان الرجل نفسه أخذ رهينة . وكان الفلاحون على وشك أن يمزقوه اربا لانه من « المختزنين» لولا أن أنقذته فرقة من الحرس الامبراطورى القادم الى تشانج شا . ولما تم قمع الاضطراب عين كو فان والد تسى تونج قاضيا للصلح ومنح ســلطة انشاء محاكم لمعاقبة المتمردين . وقد حكم على كل من وجهت اليه تهمة النهب أو اثارة الاضطرابات بالاعدام ، أما الفلاحون الذين كانوا يملكون قطعــا صغيرة من الارض حول مزرعته فقد وجه اليهم تهمة الخيانة العظمى. فأعدموا وصودرت أملاكهم وضمت الى مزارع كو فان .

كذلك وجه كو فان الى فلاحيه تهمة محاولة نهب مخازنه وأعدمهم جميعا باستثناء شخص واحد .

أما ماوتسى تونج فكان أبوه قد سجنه فى أثناء المحاكمات ثم أطلق سراحه بعدها .

وذهب الى الحقل بعد اطلاق سراحه فرأى رءوس أصدقائه الفلاحين معلقة على أعمدة حول مزرعة والده فجن جنونه . ان كل تلك الأعوام الطويلة من الظلم والتعسف ، واختفاء والدته ، وتلك القسوة الوحشية المتعمدة التى كان والده يصبها عليه صبا ، كل ذلك تجمع فى رأسه الصغير فطار لبه .. تناول سكينا وأخذ يجرى صارخا وسط الحقول باحثا عن القاتل .. عن والده . فلم يجده . ولما لم يجد والده لينتقم منه ، وجه ثورة غضبه الى

شخصه محاولا قتل نفسه • وهنا بادر أحد اخوته بمنعه من شنق نفســه وبعد معركة قصيرة نجا من الموت • ولكن ثورة غضبه لم تهدأ فاندفع نحو البركة التى غرقت فيها أمه • وهدد بأن يلقى نفسه فى الماء ان لم يعمل والده على «اصلاح نفسه» • ارتاع الوالد لموقف ابنه ، فقرر أن يعامله بشيء من الانسانية • وهنا يقول تسى تونج حينمــا دافعت عن حقوقى بالثورة الصريحة أذعن لى والدى ، لكن حينما التزمت جانب الخنوع والاستسلام لم يسعه الى أن يضربنى • ومنذ ذلك الحين حظيت بتأييد حزب معــارض فى أسرتى ، شقيقى والفلاح الأجير الذى بقى بعد أن أعدم والدى كل أجرائه •

وفي عام ١٩٠٧ بعد أن شفى ماونسى تونج مما سماه والده «اضطرابا عصبيا» أرسل الى تشانج شا والتحق بمدرستها الثانوية، على أمل أن يصبح يوما ما أهلا لدخول امتحان المسابقة والالتحاق بالخدمة المدنية تحقيقا لرغبة جده • لقد اعتقد كوفان انه ليست هناك قوة فى الحياة تستطيع أن تجعل من ابنه تسي تونج فلاحا ناجحا ، وهو فى ذلك يشبه والد خروشوف ووالدة البابا يوحنا الثالث والعشرين •

كانت المدرسة الثانوية تعد التلاميذ لامتحانات المسابقة تحت اشراف حاكم الاقليم . وكان منهج الدراسة فى مجموعه يتكون من موضــوعات انشائية وكتابة الرسائل ، ولم تكن بالمنهج نواحي نشاط أخرى كالرياضة والجمعيات المدرسية كما هو الحال فى المدارس الأوربية • وحتى لو كانت هناك أنواع من النشاط فما كان لهذا الشاب المكتئب الشديد الحساسية ذى العضلات الفولاذية والمزاج المنحرف أن يشترك فيها • لقد كان هدفه من الدراسة ان يعد نفسه لحياة أبعد ماتكون عن دار أبيه ، واذا فليس أمامــه فرصة لاضاعة الوقت •

لقد وجد الدروس على جانب من الصعوبة ولم يكن ماتلقاه منها على يد المعلم كافيا لاعداده لامتحان الدخول ، ولكن هذا الفتى الذى كان مزيجــا من الكبت والزجر والأمانى المعسولة والأحلام المزعجة والخيال الشــعرى وارتكاب جريمة قتل أبيه ، بذل فى العمل أقصى جهد •

لقد وجد ماونسى تونج فى المدرسة رفيقا أصبح صديق العمر • كان طفلا مبكر النضج دخل المدرسة الثانوية وهو فى سن التاسعة • كان المعــلم يكلفه الاعمال الحقيرة فى الفصل كجمع الكراسات فى آخر الدرس وملء المحابر بالمداد • أما اسم هذا الولد النابغة فهو ليوشاوتشى •

كان ماو وليو يتعاونان معا فى العمل بالمدرسة وقد توثقت بينهما عرى الصداقة ، وذاقا معا حلو الحياة ومرها حتى وصلا الى الذروة ، فليو اليوم رئيس جمهورية الصين الشعبية •

وكما كان ماو وليو يشتركان فى العمل المدرسى ، فقد اشتركا أيضا فى النشاط السياسى • كانت المدارس الثانوية فى أقاليم الصين الجنوبية والشرقية مراكز للمؤامرات السياسية • وكان الدكتور صون يات سن من منفاه فى اليابان ينظم توزيع النشرات الثورية فى المدارس الثانوية والجماعات الصينية واستطاع أن يدمج الغالبية العظمى من الجمعيات السرية فى جمعيته الثورية التى قال عنها الشيوعيون انهــا أول حزب ثورى

بورجوازى . وقد اجمعت كل هذه الجماعات الثورية أمرهـــا على تحقيق هدف مشترك وهو : طرد المانشو وانشاء الجمهورية وتوزيع الملكية توزيعا عادلا . أعد هذا البرنامج كي يرضى طبقتين فى الصين لايمكن تحقيق تغيير جوهرى فى نظام الحكم دون مساعدتهما ، وهاتان الطبقتان هما المتعلمون والفلاحون . لقد كان المتعلمون منذ زمن سحيق فى تاريخ الصين يكونون البيروقراطية التى يقوم على أكتافها الجهاز الادارى للدولة . وكانت هـــذه الطبقـــة ترى أنه مادام الامبراطور لم يأت أمرا يحط من كرامة الشعب الصينى ولم يتخذ أسلوبا من السلوك ينحدر «بالمدنية الصينية» الى مستوى «الهمجية» المتفشية خارج حدود الصين فالجهاز الحكومى يسير سيرا طيبا . أما الفلاحون فهم على استعداد للتغاضى عن كل شىء باســـتثناء التعسف الصارخ . انهم لايعارضون فى قدر محدود من سوء توزيع العدالة . بـــل ان فكرة الديموقراطية تبعث فى نفوسهم الحيرة ، ولكنهم يصرون على المطالبة بقدر كاف من الغذاء وعدم اللجاجة بالتدخل فى شئونهم ومنازعاتهم الخاصة لقد اضاعت أسرة المانشو ثقة هاتين الطبقتين فيها ، وأذلت الصـــين أمام «البرابرة» الأجانب من انجليز وفرنسيين وألمان . وجعلوا جباية الضرائب من الفلاحين أمرا لايخضع لنظام لدرجة أن بقاء الفلاحين فى الارض الزراعية اصبح أمرا مستحيلا .

كانت صحيفة صون يات سن هى مينىياو أو بيبولز هيرالد ، وكانت توزع على المدارس بالمجان . وكان ماوتسى تونج وليو شاوتشى يقبـــلان على قراءتها فى لهفة . ولقد نظما فى المدرسة الثانوية حلقـــات للبحث لمناقشة برنامج الجمعية الثورية وأعدا اقتراحات سلماها لمندوب صون يات سن الاقليمى على أن تسلم الى الدكتور نفسه . وكلما أثارالطلبةالاضطرابات قام ماو وليو بجمع المال لمساعدة الثوار .

وفى عام ١٩٠٧ عين «هسو هسي - بني» مديرا لكلية البوليس فى اقليم آنهوى ، وكان قبل ذلك فى بعثة دراسية باليابان حيث اجتمع هناك مع الدكتور صون يات سن . وفى الصيف أثناء حفلة التخرج طعن هسو حاكم الاقليم طعنة قاتلة ونظم الطلبة فى ميليشيا شعبية ، فاستولوا على الكلية وعلى مخزن البوليس المجاور لها وظلوا يقاومون ثلاثة أسابيع حتى استطاع الحرس المحلى اخضاعهم واعدامهم .

وقد اصبح هسو «شهيد الطلبة» وأخذ كل طالب يتطلع الى مـــدير مدرسة عله يجد فيه زعيما ثوريا مثل هسو ، ولكن هؤلاء المديرين خيبوا أملهم باستثناء مدير المدرسة التى كان بها ماوتسى تونج - لقد كان رجلا عمليا الى أقصى حد ، يتحدث الى الطلبة سرا وخلسة حين اجتماعهم فى دار صحيفة بيبولز هيرالد ، ولكنه كان يخشى أن يؤدى افتقار الصين الى منظمة عامة شاملة الى التفكك بمجرد بدء الحركة الثورية . وهو يرى أنه لابد من التخطيط الثورى الدقيق والصبر بعد فترة طويلة من الادارة الفاسدة .. ولكن الدكتور صون قد كبر فى السن فاصبح قلقا متعجلا للنجاح كى يشهده حيا .

كان هذا المدير يعتقد أن قيام الثورة قبل الأوان سوف يؤدى الى

حروب أهلية تمتد سنوات طويلة ، وهو فى هذا على حق ، غير أن طلبته لم يرضهم منه هذا التشاؤم • كانوا يرون صورة البطل ممثلة فى صون يات سن وهو رابض خلف البحر الضيق الذى يفصل بين الصين واليابان، وكانوا يتخيلون فيه الرأس المدبر الذى ركب على جسم جاب الأقطار واكتسب الخبرة الواسعة وانه لن يخطىء اذا ما آن الأوان ، وأن وقت الثورة قريب •

وفى عام ١٩٠٨ ماتت الامبراطورة الأرمل والامبراطور كوانج هسو• وكان الامبراطور قبيل وفاته قد وعد باعادة النظر فى « برنامج الاصلاح الدستورى» ورحب صون يات سن بهذه الخطوة على أنها بدايه « الثورة المنظمة» • ولكن بموت الامبراطور ماتت معه فكرة الاصلاح ، وأصبح ذلك جليا واضحا حينما اعتلى العرش الامبراطور بوبى ابن أخ الامبراطور السابق وهو طفل لا يتجاوز الثالثة وقدأصبح تساى فنج والد الامبراطور الصغير وصيا عليه • وما ان أصبح تساوى فنج وصيا حتى تولى منصب القائد العام للقوات الامبراطورية وعين أخدشقيقيه رئيس هيئة أركان حرب الجيش والآخر وزيرا للبحرية • واذا كانت أسرة المانشو قد عرفت بالجهل فقد كان تساى فنج من بينها أجهل الجهلاء •

وبعد شهر من ارتقاء الامبراطور بويى العرش تزعم هسيونج تشنج تشى ثورة فى أنكنج ، وجمع هسيونج حوله الانصار الذين يؤمنون مثله بأن تساى فنج سوف يعارض كل اصلاح دستورى ، وأعلنوا حكومة عسكرية فى المدينة • ولقد استطاعت القوات الامبراطورية أن توقع الهزيمة عاجلا بهذا الثائر وتقطع رأسه ولكن هذا الحادث لقن تساى فنج درسا نافعا ، ذلك أنه أيقن انه اذا كان لابد من الاصلاح فليتم ذلك عن طيب خاطر ، بدلا من أن ينتزع غصبا من التاج ويستطيع الحاكم أن يشل حركة أى اصلاح بانشاء صداقات له فى أى برلمان جديد يأتى به هذا الاصلاح • وهكذا أعلن تساى بداية عهد جديد من التعاون الدستورى بين العرش والشعب ، وحدد لتلك البداية مهلة قصيرة لاتتجاوز عام ١٩١١ • ولكن خدعة تساى لم تجز على أحد ، فقد مضى صون يات سن فى تنظيم ثورات الفلاحين كلما وجد الى ذلك سبيلا ، أما ماوتسى تونج وليو شاو فقد أخذا يؤلفان قصائدملؤها الهجووالتهكم على «عهد التعاون الجديد» وبدآيستعدان لخوض المعركة • وقرر ماو ــ متأثرا بما قرأه فى مكتبة المدرسة ــ انشاء فرق الهجوم الثورية ، فأخذ يستعمل اللين تارة والعنف تارة أخرى حتى جند لفرقته ثلاثين من زملائه الذين يزيدون عن متوسط السن ، وأطلق على هؤلاء اسم «الاسبرطيون» •

وأخذت الفرقة الجديدة تتدرب كل صباح قبل بدء اليوم المدرسى على الجرى مسافات طويلة فى الخلاء ، ويتخلل التدريب تعريض المجندين لقسوة الطبيعة والعنف • ثم يواصلون التدريب فى فترات الراحة بين الدروس ، وأخيرا يقومون فى المساء بتدريب أشد عنفا من تدريب الصباح وفى أثناء العطلات المدرسية كان الاسبرطيون يملأون حقائبهم بحبات الفول الجاف ويمارسون التدريب لمدة يومين أو ثلاثة وغذاؤهم الوحيد الفول الجاف والماء • لم يشترك ليو شاو تشى فى هذا التدريب الاسبرطى

العنيف ، ورغب عن ذلك الجهد البدني في سبيل اعـــداد نشرات نوزع على الاسبرطيين فتلهب حماسهم وتحفزهم على اقتحام المعارك ٠

وفي باكورة عام ١٩٠٩ وجه ليانج تشي تشا وهو صديق حميـــم للامبراطور السابق ، الدعوة الى أصدقائه للاجتماع في طوكيو ٠ وكان في اليابان حينذاك كثير من رجال الاعمال الصينيين وعدد كبير من السياسيين المنفيين ٠ وقد ابلغ ليانج المحتجين أسفه لان الوصي على العرش سوف ينجح في القضاء على عرش المانشو مالم يتخذ اجراء لصده ، ومضى ليانج يؤكد انه من العبث وقف التيار التقدمي كما زعم تساى ، وان حركات التطهير في الجيش والجامعة التى قام بها تساى لم يكن لها من نتيجة الا مضاعفة أنصار حزب صون يات سن الثورى ، وان السبيل الوحيد لمواجهة الحركة الثورية التى يتزعمها صون يات سن هو انشاء ملكية دستورية على النسق البريطانى ٠ وقال ليانج انه اذا أمكن انشاء هيئة مستنيرة من الأحرار فانها تستطيع تحقيق نصر سياسى، اذ لايزال بين الصينيين الكثير، ممن يحتفظون بولائهم لعرش المانشو ٠ لذلك أسس ليانج وأصدقاؤه «الرابطة السياسية»

ودفعه التفاؤل الى ارســـال مذكرة الى كانج الوصي على العرش بأن برنامج الرابطة السياسية هو الدعاية الوحيدة التى يمكن أن تسند العرش واذا أيد الوصي مطالب الرابطة فانشأ ملكية دستورية ، فهذا هو السبيل لانقاذ التاج ٠

لم يكن الوصي على درجة من الذكاء تتيح له تقدير مافى هذا العرض من رأى سليم ٠ ولقد كان من المستطاع انقاذ عرش المانشو ٠ ذلك أن غالبية الطبقة المستنيرة من الصينيين قد أدركت انه لابد من التعجيل بوضع برنامج على الأسس الغربية اذا أريد بالصين أن تنفض عنها غبـــار التخلف فى التنمية الزراعية والصناعية ٠ واذا كان تطوير الاقتصـــاد الصينى أمرا ضروريا ، فلا بد أن يقترن به تطوير أداة الحكم ، ودليل ذلك أن بريطانيا وهى أقوى دول الغرب اقتصاديا تحكمها ملكية دستورية ٠

ولقد أصم الوصي على العرش أذنيه عن سماع أى نصح ورفض بحث أى نوع من الاصلاح الا ذلك «التعاون الزائف» الذى دعا اليه ، وعقب على ذلك باعلان ان انشاء «الرابطة السياســـية» عمل غـــير قانونى ثم نفى أعضاءها ٠

وقد اعترض صون يات سن على انشاء هذه الرابطة وشن عليها حملة فى صحيفته «بيبولز هرالد» قائلا انها خدعة أجنبية وضاعف جهـــوده لتعبئة المادة الخام لثورته ٠ وفى عام ١٩١٠ اكتسب انصارا جـــددا من ضباط الجيش الجديد وشن هجوما على مدينة كانتون٠لقد شتتت القوات الامبراطورية شمل الثوار واضطرت صون يات سن الى الفرار الى هنج كنج ، ومع ذلك فقد استطاع الثوار الاستيلاء على كمية كبيرة من الأســـلحة والذخائر وأخفوها ليوم لقاء آخر ٠

كان شتاء ١٩١٠ ، ١٩١١ قاسيا على اقليم هونان فقد توالى هبوط محصول الأرز مما أدى بالفلاحين الى حالة خطيرة من الجوع واليـــأس ٠

فقد نظم ماوتسى تونج وهو فى السابعة عشرة قوة صغيرة زحف بها على مقر الحكم فى تشانج شا ، ولكن كثيرا من الفلاحين رفضــوا السير معه ، وفضلوا على ذلك سرقة الأغذية لاطعام اسرهم ، وطبعا كان والده من بين من سرقت منهم الأغذية أضف الى ذلك أن الفلاحين لم يكن لهم كبير أمل فى ذلك الشاب المرهف الحس المستسلم الى الحزن والكآبة والذى حاول أن يقتل نفسه .. ولكن ماو وصديقه ليوشاو لم يتسرب الى نفسيهمـــــا اليأس ، واستطاعا تعبئة كتيبة قوية من الطلبة والمعلمين وأصحاب المحال التجارية ولما لم يكن لدى هذا الجيش الصغير سلاح ، فقد قام بزحف سلمى الى مقر الحاكم لتقديم التماس بتقديم الأرز بلا ثمن الى المناطق المنكوبة ، وهذه هى الطريقه التقليدية فى الصين لدعوة الهيئات الرسمية للاشتراك فى تخفيف آثار المجاعة • ولما بلغ ماو وليو فناء قصر الحكم لم يلقيا ترحيبا من الحاكم فلم يكتف هذا الحاكم برفض الالتماس بل أصـــــدر أوامره الى الحرس بمهاجمة مقدميه •

ولم يسع ماو وليو وجيشهما الصغير الا الفرار ورجال الحرس فى أثرهم يطلقون عليهم النيران •

وفى ربيع ١٩١١ قدم الدكتور صون يات سن عدة التمــــــاسات متشابهة الى حكام الاقاليم الجنوبية فى الصين ، ولما قوبلت التماســـاته بالرفض واطلاق نيران الحرس كما هى العادة ، استدعى قواته المسلحة وأصدر أمره اليها باقتحام مقر الحاكم • ولكن قوات صون كان ينقصهـــا التدريب والقيادة القديرة ، ولذلك منيت بالهزيمة وقتل وجرح منهـــا الكثيرون • وفى ٢٧ من ابريل عام ١٩١١ جيء باثنين وسبعين من أنصار صون يات سن وأعدموا رميا بالرصاص فى قصر الحـــــاكم • وهؤلاء هم المعروفون حتى اليوم بالشهداء الاثنين والســـبعين ولهم ضريح كبير فى ضواحى مدينة كانتون •

لقدآن أوان الثورة ، فقد تتابعت الاضطرابات فى الصين الواحـدة تلو الاخرى ، وعلى الرغم من ان جماعة صون يات سن كانت سيئة التنظيم فقد كان مطمئنا الى أن الشعب الصينى — ان عاجلا أو آجلا — سوف يقوم عن بكرة أبيه بثورة يكون هو زعيمها ، والمسألة ليست الا مسألة الوقت والمكان والشرارة الأولى التى تلهب مشعل الثورة •

لقد كانت اول شرارة للثورة من خارج الصين ، ففى يونيو ١٩١١ قدم سفراء بريطانيا وفرنسا والمانيا مذكرة مشتركة الى الوصى على عرش الصـــين ، وكانت هـــذه المذكرة فى صيغة انذار نهائى • وسببها أن الدول الغربية قد أفزعتها كثرة الاضطرابات والثورات الداخلية فى الصين ولما كانت مصالح هذه الدول فى الصين تتوقف على صيانة السكك الحديدية فقد رأت أن الطريق الوحيد للمحافظة على مصالحهـــا هو تأميم الخطوط الحديدية على أن يصبح الوصى مسئولا شخصيا عن أى تلف يصيبهـــا • كذلك اتفقت الدول الغربية على برنامج لتوسيع شبكة الخطوط الحديدية الصينية • بشرط أن توضع ادارتها تحت اشراف شركة دولية لاتشترك فيها الصين •

وقف الوصى موقف العجز أمام مطالب الدول الغربية ، ولم يسعه الا أن يصدع بما أمرت به ، فاصدر مرسوما بتأميم السكك الحديدية . ومما يحير الفكر ، أن الشعب الصينى قد نفد صبره بهذا التأميم ، ولم يستطع الجوع ولا الاستغلال أن يفعلا فى نفسه مافعله ذلك التهديد بتأميم السكك الحديدية . لقد أخذ حملة الاسهم الصينيون فى شركات السكك الحديدية المهددة بالتأميم يعقدون الاجتماعات فى كل أنحاء البلاد ويوجهون الاحتجاجات الى الحكومة ، بل انه فى اقليم هونان الذى لم يكن فيه من الخطوط الحديدية الا القليل استطاع الفتى ماوتسى تونج أن يجمع حوله الجماهير الثائرة ويسير بها الى قصر الحاكم مهددين «ارفعوا أيديكم عن خطوطنا الحديدية » وفى تشنجتو عاصمة اقليم سزشوان استطاع الاهالى تكوين جمعية أطلقوا عليها اسم «جمعية المحافظة على حقوق الشعب فى ملكية السكك الحديدية » وعقدوا مؤتمرا ضم ممثلى جميع الطبقات ، ولم يسع الحاكم الضيق الأفق الا أن يأمر رجال حرسه باطلاق النار على المؤتمرين، فسقط آلاف من أفراد الشعب الأعزل صرعى فى شوارع المدينة .

وما أن انتشرت أنباء مذبحة تشنجتو ، حتى عمت الثورة ، فتكونت الجمعيات فى كل مكان ، وأصبحت نواة للجيش الثورى . وقام الثوار بمهاجمة دور حكام الاقاليم واستولوا عليها ووزعوا الأسلحة على الجماهير وكانت أشد الاضطرابات فى هسنتشن وجونجهسين وويوان وتشينواى حيث أطلق الثوار النار على الحكام وقطعوا رءوسهم وتولت الادارة المحلية « حكومات الشعب المؤقتة » واعلن الثوار عدم الولاء للامبراطور .

اعلان الجمهورية الأولى :

بادر الوصي على العرش بارسال قوات من اقليم هوبيه الى سزشوان فى محاولة بائسة للقضاء على الثورة فى مهدها . ولكن الجنود انضموا الى الثوار . وفى ١٠ من اكتوبر ١٩١١ ، انضمت كل قوات الجيش الامبراطورى المرابطة فى ووتشانج الى الثورة ، وهاجمت قصر الحاكم واستولت على مخازن الأسلحة فهرب موظفو حكومة المانشو وأنشأ قائد قوات ووتشانج حكومة عسكرية فى الاقليم وأعلن الحاكم الجديد انتهاء حكم المانشو وقيام «أول جمهورية فى الصين» ثم دعا الشعب الصينى كله للزحف معه الى بيكين . ولقد تدفقت على ووتشانج وفود من جميع المنظمات الثورية الصينية ولما بدأت القوات الموالية للمانشو هجومها المضاد ، انتقلت «الحكومة المؤقتة» الى نانكنج . وفى ٢٤ من ديسمبر ١٩١١ . عاد صون يات سن الى الصين من رحلة سريعة كان يقوم بها فى أوربا وانتخب رئيسا مؤقتا للجمهورية . وفى أول يناير تولى منصب الرياسة فى نانكنج وبلغته أنباء نزول أسرة المانشو عن الحكم .

وكان ماوتسى تونج وليو شاو تشى بين الجماهير الغفيرة التى وقفت فى شوارع نانكنج تستمع الى خطاب صون يات سن وهو يعلن الدستور الجديد . لقد كان خطابا مثيرا للمشاعر .

فالدستور الجديد يقرر مبدأ المساواة المطلقة دون اعتبار الى الطبقة

أو العقيدة أو اللون وهو يقرر حرية الكلام وحرية النشر وحرية الاجتماع وحق التظلم الى الحكومة وحق مقاضاتها ٠

وكان الشعب يهتف بحماس جنونى كلما انتهى صون يات سن من قراءة مادة من مواد الدستور ٠ وفى غمرة هذه الحماسة الشعبية التفت ماوتسى تونج الى ليو شاو قائلا :

« أتظن أن هذا الدستور سيوضع موضع التنفيذ ؟ ورد ليو قائلا : « سوف يجىء يوم نضع فيه دستورا خيرا منه ، وننفذ مواده » ٠

الفصل الثالث

لم يقدر للجمهورية الصينية الأولى البقـــاء أكثر من عامين ، ثم تفككت والسبب الأكبر فى سقوطها عـداء الدول الأوربيـة الـكبرى التى لم تدرك أن أملهـا الوحيد فى مسـتقبل دائم من الاتجار الحر فى الصين ، كان يتوقف على تأييدها للدكتور صون يات سن • لقد كان اعلان الجمهورية أقرب الطرق أمام الصين للأخذ بالأساليب الديموقراطية الغربية وخاصة منها أساليب الحكم الديموقراطى فى الولايات المتـحدة وفرنسا وهمـا الدولتان الغربيتان اللتان كانت الطبقة المسـتنيرة من الصينيين على المام واسـع بأساليب الحياة فيهما • لم يكن الصينيون يمارسون أى نوع من الحكم الديموقراطى من قبل ، وقـل من بينهم من عاش فى البلاد الأجنبية القليلة التى قبلت النظم الديموقراطية على أنهـا خير أساليب الحكم وأنه لا بد من الأخذ بهـا • ولقد عزم الصينيون على تجربة الحكم الديموقراطى عـام ١٩١١ ، لأن الحكم الامبراطورى فى الصين قد دب فيه الانحـلال ، وأنه جلب الخزى والعار للشعب الصينى أمام الاجانب • ومن هنـا صار الاعتقاد بين ذوى الرأى من الصينيين بأن أى بديل لحكم أسرة المانشو سوف يكون موضع قبـول الشعب • فاذا استطاعت هذه الديموقراطية الغربية التى تحدث عنها صون يات سن أن تجلب الرخاء الى الصين وترد للشعب الصينى احترامه وكرامته فهى اذا خير مايرتجى ، وينبغى تجربتها • وعلى كل فان الفـلاح الصينى فى ظل هذه الديموقراطية لن يكون أسوأ حالا مما كان عليه فى عهد المانشو • حقيقة انه كان يكره الأجانب ، ولكن لا مانـع من الأخذ بخير ما لدى هذا « الشيطان الأجنبى » والانتفاع به الى أقصى حد •

ولكن يؤخذ على دعاة الديموقراطية الصينيين أنهم لم يفعلوا شيئا لكسب ثقة المثقفين ولا الفلاحين • فالدكتور صون يات سن لم تكن خططه العملية دقيقة واضحة ، أما مساعدوه فكانوا اما من سيئى السيرة أو من المفكرين الخياليين ولما أعلن انعقاد أول برلمان فى يناير ١٩١٢ ، لاستماع خطاب الافتتاح الذى يلقيه صون يات سن ، كانت ردهات دار البرلـمان وأبهاؤه أشبه شيء بالسوق ، فالمقاعد والأصوات تباع وتشترى ، والدوائر الانتخابية يعاد تحديدها لمصلحة من يدفـع أعلى ثمن • أما المناصب فكان يتم تبادلها نظير جعل معين •

بل قد بلغت الحال الى أن عقد اصـلاح دار البرلمان طرح فى مزاد سرى ورسا على شقيق واحد من أشد أعضاء البرلمان ديموقراطية •

ولكن مثل هذا النمط من السلوك لم يكن مثيرا للدهشة ، فما كان هناك أحد يعرف السـلوك الديموقراطى السليم ، ولو أتيحت لهـؤلاء

البرلمانيين الحديثين فسحه من الوقت فقــد يدركون ان الامانة لا بد أن تسير جنبا الى جنب مع أساليب المناقشات البرلمانية والتشريع ٠

ولكن لم تتح للبرلمان الفرصة لاصلاح شئونه ، ففى حـين كان أول برلمان صينى يعقــد أولى جلساته الفاضحة فى نانكنج ، كان الناس فى داخل البلاد وخارجها يتحدثون عن حل هذا البرلمان ٠

لقد ربط ذلك الجانب من الصين الواقع جنوبى النهر الأصفر مصيره بمصير الثوار الديموقراطيين ، ولكن لا تزال هناك الاقاليم الشمالية مترددة بين حكم المانشو والحكم الجمهورى ٠ ولقد ظـل الأمل يراود الوصى على عرش المانشو والامبراطور القاصر ، حتى يناير ١٩١٢ ، بشن معركة من بيكين فى الشمال واعادة غزو وسط الصين وجنوبيها ٠ وقد رأى الوصى أنه اذا لم يفلح فى غزو البلاد كلها ، فلا أقــل من أن يحتفظ بالشمال وتصبح فى الصين حكومتان ، احداهما ملكية والأخرى جمهــورية ، وأن تبقى الحكومتان حتى تتاح له فرصة جديدة لتوحيد البلاد ٠ ومن سوء حظ هذا الوصى أنه لم يكن لديه فى البلاط الامبراطورى قائد مخلص قدير ٠ وكان القائد القدير الوحيد فى شمالى الصين هو يوان شيه كاى ٠ لقــد استطاع يوان أن يساعد الامبراطورة الأرمل على منع شقيقها من الوقوع فى خطة « الموافقة على الاصلاحات » عام ١٨٩٨ ، وهو الذى نظم الجيش الامبراطورى الجديد الذى كان على درجة طيبة من الكفاية والولاء لقـائده يوان ، ولو أن ولاءه للمانشو لم يكن اجماعيا ٠

ولكن الامبراطورة كانت تكره يوان بقدر ما كان يكرهها : ولذلك ظل الوصى تساى يبحث عن بديل لهذا القائد حتى اللحظة الأخيرة ، فلم يوفق لايجاد هذا البديل ٠ وفى ١٠ يناير ١٩١٢ دعا تساى القائد يوان ليكون رئيس وزراء لحكومة المانشو فى شمالى الصين ، وأن يتولى بجانب ذلك منصب القائد العام لقوات المانشو المسلحة ٠ وقد قبل يوان الاضطلاع بهذه المهمة ، وتسلم زمام الأمور ، ثم أخذ يفكر فى موقفه من جديد ٠

كان يوان شيه كاى رجلا واقعيا ، فهو على ولاء للنظام الامبراطورى ما دامت الامبراطورة على قيد الحياة ، فهى سـيدته ، مع كراهيتها له ، أما وقد ماتت فلم يجد هناك ما يدعوه للارتبــاط بعرش المانشو ٠ ومن جهة أخرى أدرك يوان أنه يستطيع غزو جنوبى الصين فى حياة صـون يات سن ، على الرغم مما كان عليه الجنوب من سوء الادارة ٠ كذلك علم يوان أن الدول الغربية مع انهــا لم تقف موقفــا وديا من الجمهورية الجديدة ، فهى على أى حال تفضلها على حكومة المانشو غـير المستقرة ، فضلا عن أن المانشو لم يجلبوا لبريطانيا وفرنسا الا العناء ٠ وبعـد أن قلب يوان الموقف على مختلف وجوهه ، قرر أن خـير سبيل يسـلكه هو مخادعة الوصى على العرش وذلك باقناعه بالتنازل عن الملك هو والامبراطور القاصر وربط مصيره بمصير الجمهورية فى مقـابل الحصول على منصب رياسة الجمهورية ، وعليه بعد ذلك أن يقنــع الدول الغربية بأن فى استطاعته تشكيل حكومة قـــوية على النظام الغربى ، اذا أقرضته هذه الدول المال اللازم لتدبير شئونه فى خلال العام الاول من رياسته للجمهورية واتصل بالسفير البريطانى وعرض عليه الأمر فلقى منه ترحيبا وتشجيعا

للفكرة . وبعد ذلك اتصل بالحكومة الجمهورية الناشئة في نانكنج وقدم اليها اقتراحا وحيدا يتلخص في أنه على استعداد لنقل الامبراطور الطفل الى مكان قصى وسليم جيشه بكامل عدته لحكومة الجمهورية وبذلك تعود الى الصين وحدتها . واشترط في مقابل ذلك كله شرطا واحدا ، وهو أن ينتخب رئيسا للجمهورية . لقد كانت هناك جمهورية وعلى رأسها صون يات سن . ولكن هذا لم يشغل باله كثيرا فرؤساء الجمهوريات يجيئون ويذهبون ، وعلى كل فمن الممكن التخلص من صون يات سن . وهدد يوان بأنه اما أن يقبل اقتراحه أو تنشب حرب أهلية يتولى هو بنفسه فيهـــا قيادة الجيش الامبراطوري .

لم يلق يوان من صون يات سن وحكومته في نانكنج اذنا صاغية . ولقد بادر صون بارسال مبعوثه الى السفارات الأجنبية في بيكين ليتحسس رأيها في شخصه وفي يوان وأيهما أفضل . وقد عاد رسله ينبئونه انهم على قدر استطاعتهم الحكم على الموقف ، فان يوان هو « الرجل القوى » الذي يحظى بتقدير السياسيين الأوربيين ، كما أنه من المؤكد أن يوان هو الرجل المفضل لدى المصارف الأوربية التي يهمها قبل كل شيء الحصول على ضمانات لاستثماراتها في الصين . ولما ســـمع صون يات سن آراء مستشاريه أخذته نزعة من المثالية ونكران الذات فقدم استقالته . وفي فبراير ١٩١٢ أعلن المانشو رسميا انتهاء حكم أسرتهم ، وســـار يوان بجيشه الى نانكنج حيث تسلم رسميا منصب الرياسة الشاغر . بعد ذلك عاد يوان الى بيكين وقد وقر في ذهنه أن يجعـــل من هذه الرياسة بداية لأسرة حاكمة جديدة يكون هو أول أباطرتهـــا . وقد وعدته السفارات الغربية بتقديم المساعدات المالية .

أما البرلمان في نانكنج فقد أهمل أمره ولم يعد أحد يعيره أى اهتمام وأخذ الغربيون يعتبرونه مثارا للتهكم والسخرية ، أما يوان فقـــد اغفله نهائيا . وفي يناير ١٩١٣ تقـــدمت شركة دولية مكونة من البريطانيين والفرنسيين والألمان واليابانيين والروس قدمت الى يوان قرضا أغناه عن طلب المال من حكومة الصين . وقد علق ماوتسى تونـــج على هذا القرض حينما قرأ عنه في جريدة بيبولز هرالد ، وعن مشروع يوان الخاص باعلان نفسه امبراطورا أمام البرلمان قائلا : —

« هذا ما جرته علينا الديموقراطية البورجوازية » .

وسرعان ما أدرك صـــون يات سن أن الـــدول الغربية تقضى على الديموقراطية في الصين بتاييدها للجنرال يوان ســـواء كانت تحبه أو تكرهه ، ولذلك فقد قام بمحاولة أخيرة لانقاذ الضحية . كان حزبه الثورى القديم قد انقسم ثلاثة أحزاب فرعية حين اعلان الجمهورية : أحدهما الحزب الجمهوري والثاني الحزب الديمـــوقراطي والثالث حزب الوحدة . وقد استطاع يوان شراء ضمائر زعمـــاء الأحزاب الثلاثة ، فكونت الأحزاب الثلاثة ائتلافا أطلق عليه اسم « العصبة التقدمية » وكانت هذه التسمية مدعاة للسخرية اذ أنها كانت تأتمر بأوامر الجنرال يوان .

نشأة الكومنتانج وظهور شيانج كاى شيك

وفى أغسطس ١٩١٢ اقترح أحد أعوان صون يات سن تكوين حزب ديموقراطى جديد . وفى يناير ١٩١٣ بارك صون يات سن قيام اتحاد يضم سبع هيئات سياسية ترتبط فيما بينها بقدر من الاتجاهات الوطنية ، ولكن غالبيتها لا تمت الى الديموقراطية بأية صلة ، وأطلق على الحزب الجديد باسم الكومنتانج (الحزب الوطنى الشعبى) . وقد ابدى صون يات سن قلقه حين اختار أعوانه لرياسته هذا الحزب الجديد رجلا تلقى تعليمه فى مدارس الارساليات الدينية ، ويتكلم الانجليزية بلهجة أمريكية غير مستحبة . ذلك الرجل هو شيانج كاى شيك . وفى حديث بين صون يات سن وزوجته علق على اختيار شيانج كاى شيك لرياسة الحزب قائلا: هو صينى ووطنى ، ولكن لديه من الدهاء أكثر مما يحتمله ذلك الرأس الصغير المعلق فوق عنقه .

كان ذلك الرجل الكريه ذا قدرة طبيعية على التنظيم ، ويتبين ذلك فى موقفه من الجنرال يوان . فما أن أودع يوان القرض الأجنبى فى خزائنه حتى بادر بطرد جميع الزعماء الثوريين من مناصبهم الادارية فى نانكنج وبيكين والأقاليم المختلفة . وقد رأى يوان انه لكى يتوج امبراطورا ، يجب أن يتحقق أولا من ولاء الرجال القائمين على ادارة الأقاليم وخاصة نواب الامبراطور فى هذه الأقاليم . وفى يونيو ١٩١٣ أصدر يوان مرسوما بتنحية ثلاثة من حكام الأقاليم الثوريين عن مناصبهم . وقبل أن يجف المداد الذى كتب به المرسوم ، كان شيانج كاى شيك قد اتصل بالحكام الثلاثة ، واستطاع اقناعهم بأن الكومنتانج هو وحده الهيئة الوطنية الحقيقية فى الصين بأجمعها . وأثبت لهم أن الكومنتانج يحظى بتأييد صون يات سن . وبايعاز من كاى شيك بعث لى ليبيه تشون أحد الحكام الثلاثة برسالة الى يوان يعلن فيها رفضه تنفيذ المرسوم الصادر باعفائه من منصبه ، وأتبع ذلك باصدار أمر الى جنوده باحتلال الاقليم باسم الكومنتانج ، كما دعا البلاد كلها لخلع يوان باسم « الثورة الصينية المجيدة » . وما لبث حكام أقاليم كيانجسو وكوانج تونج وفوكين وسزشوان أن اقتفوا أثره ، ولم يمض أسبوعان حتى وجد يوان نفسه فى مواجهة ثورة ثانية .

ماكان فى استطاعة تلك القوات المحدودة التى لدى الحاكم أن تواجه الجيش الجديد الذى نظمه يوان ، ولكن النصر فى حد ذاته لم يكن شيئا هاما ، فالأهمية الحقيقية تتركز فى قيام ثورة ثانية . فهذه الثورة جعلت اسم شيانج كاى شيك يبرز بين الأقلية المتعلمة من الزعماء الثوريين ، كما أنها أدت بالجنرال يوان الى ارتكاب خطأ فى التقدير ، فعجل باعلان نفسه امبراطورا قبل أن تسلم البلاد كلها بفكرة أن الجمهورية تحتضر .

وما لبث أن بدأ الطقوس الدينية التى تقترن باعتلاء عرش التنين (عرش الصين) ، ففى مايو ١٩١٤ شق خطا بالمحراث فى معبد الزراعة بمدينة بيكين وقدم القربان على مذبح السماء • وقد بدا لاول وهلة ان يوان بموارده المالية التى لا تنفد والتى كان يتلقاها من الانجليز والأمريكيين ، قد نجح فى انشاء أسرة حاكمة جديدة • لم يكن هناك من يعارضه فرجال الخدمة المدنية القدامى نشأوا على الاعتقاد بأن الملكية هى نظام الحكم الوحيد الذى يمكن أن يقوم فى دولة ، كما لم يجل بخاطر الفلاحين ان هناك بديلا لذلك النظام • ولقد شهدت البلاد حولين كاملين مما يسمونه « الحكم الديموقراطى » الذى ثبت فشله • ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، بل ان الجيل القديم من أصدقاء صون يات سن كفر بهذه المثالية التى يتضمنها الحكم الجمهورى •

ان الصينيين يمقتون الفشل ، وقد كانت تجربة الحكم الجمهورى فى نظرهم أخطر فشل فى تاريخ الصين جر على البلاد الكوارث ، وبما ان الامبراطورية قد عادت فكأن الأمور تسير مرة ثانية فى طريق الاصلاح • وليس فى الموقف ما هو جديد ، فان جنديا صينيا استطاع اسقاط أسرة حاكمة وأقام أسرة حاكمة جديدة باعلان نفسه امبراطورا • وقد كان هذا هو الطراز التقليدى لتغير نظم الحكم فى الصين منذ فجر التاريخ •

وأقل ما يوصف به هذا التغيير انه أسلوب صينى أصيل ، أما عن الآراء الديموقراطية الغربية ، فان أصدقاء صون يات سن الذين رحبوا أنفسهم بها ، لم تكن لهم ثقة فى الأجانب ، ووقفوا ينتظرون الخطوة التالية التى سوف يتخذها كل من يوان وصون يات سن •

أما صون الذى شجعه قيام ثورة ثانية ، فقد أنشأ حكومة فى كانتون بمساعدة شيانج كاى شيك ، غير ان حكومته كانت ضعيفة تعتمد فى وجودها على ما يجود به عليها ملاك الأراضى المحليون وأمراء الحرب ، ومع ذلك فقد كانت مظهرا للتصميم على القتال • ولما أنس بعض المترددين هذا التصميم تشجعوا وعاهدوا أنفسهم على خدمة قضية الجمهورية فانضموا الى الكومنتانج وفى العام نفسه أنشىء فى طوكيو فرع للكومنتانج ، واستطاع هذا الفرع أن يجمع مبلغا كافيا من المال دعم به خزانة الحزب فى كانتون •

ولقد صمم يوان على شن هجوم شامل على الكومنتانج قبل تتويجه ولكن حالفه نحس الطالع • ذلك ان الحرب العالمية الأولى اندلع لهيبها فى أغسطس ١٩١٤ وجرف تيارها الكاسح دول أوربا الكبرى فلم تجد لديها متسعا من الوقت ولا فائضا من المال لخدمة مصالحها فى الصين • ولماكانت اليابان حليفة للدول الغربية ، فقد وكل اليها رعاية جارتها التى عمتها الفوضى • وهكذا وجد يوان نفسه فجأة يعتمد فى الحصول على المال على أقل الدول موافقة على فكرة قيام حكومة قوية موحدة فى الصين •

وفى اليوم التالى لاعلان الحرب نزلت القوات اليابانية على أرض الصين واستولت على منشآت السكك الحديدية الألمانية فى تسنجتا وكياتشاو ــ تسينان • ووقف يوان عاجزا أمام هذا الغزو ، وكل

ما استطاع عمله هو الاتصال بالحكومة اليابانية والاستفسار عن الشروط التى تفرضها اليابان للتعاون معه • وكان رد اليابان هو «المطالب الاحدى والعشرون» المشهورة التى تهبط بالصين مرة أخرى الى مستوى المستعمرات ومنها ما يلى :ـ

١ ـ تنتقل جميع حقوق الألمـان وممتلكاتهم فى الصين الى الحكومة اليابانية •

٢ ـ يتم تشغيل جميع مصانع الحديد والصلب فى الصين مستقبلا على أساس المشاركة مع اليابان •

٣ ـ على حكومة الصين أن تتخذ مستشاريها السياسيين والاقتصاديين والعسكريين من بين اليابانيين •

٤ ـ توضع قوات البوليس فى المدن الصينية الكبرى تحت ادارة صينية يابانية مشتركة •

٥ ـ توضع جميع المناجم والسكك الحديدية ومصانع ومخـازن الأسلحة التابعة لحكومة الصين تحت ادارة صينية ـ يابانية مشتركة •

وهكذا تسير قائمة المطالب الفادحة التى اشترطتها اليابان كى تقبل التعاون مع حكومة الصين • وعلى الرغم من فداحة المطالب فقد قبلها يوان اذ لم يجد لها بديلا • فلو انه دعا البرلمان الى الاجتماع وطلب منه الموافقة على اعتمادات مالية ، لوجد نفسه مضطرا الى التنـازل عن بعض سلطاته الأوتوقراطية التى يشرف بها على الدولة وعلى اقتصـاديات الصين ومن ناحية أخرى فاذا لم تسعفه اليابان بالمـال ، بعد أن انقطعت عنه الموارد البريطانية والفرنسية والالمانية لتفككت امبراطوريته الناشئة ولقيت مصير امبراطورية المانشو ولما علم صون يات سن ورفاقه فى الجنوب بأن يوان قد « باع بلاده » لليابان بذل الكومنتانج كل ما يستطيع من جهود ليزج بالبلاد فى ثورة مسلحة مرة أخرى فتوجه شيانج كاى شيك الى الأقاليم ليحرض الحكام والقواد العسكريين على الانضمام الى صفوف الكومنتانج ، وقد نجح فى اقنـاع تساى الوصى السابق على العرش بأن ينظم « جيش انقاذ الوطن » وأن يوجه الدعوة الى زملائه الذين يتولون قيادة الجيوش فى المناطق الأخرى للعمل على عزل يوان • وقد نجـح شيانج كاى شيك فى هـذه الخطة ، فان جميع القوات المسلحة فى جنوبى الصين وجنوبها الغربى استجابت للدعوة التى وجهها تساى ، مما اضطر يوان الى الخضوع للأمر الواقع فدعا الى اجتماع عام يشترك فيه جميع الزعماء الثوريين • وما انتهى عام ١٩١٥ حتى كان يوان قد فقد كرامته واشرافه على الحكومة • وفى يناير ١٩١٦ أبلغه سفيرا بريطانيا وفرنسا انه لم يعد موضـع ثقة حكومتيهما وفى يونيو من العـام نفسه مات من الحزن والكمد • لقد ظلت الصين طوال تسع السنوات التالية مفككة الأوصال لا تجمعها حكومة واحدة ، فاليابانيون يحتلون قطاعا من البـلاد بحجة التحكم فى الموارد الألمانية ، وكانت هناك حكومة فى كانتون يرأسها صون يات سن ، وعدة حكومات أخرى مبعثرة فى طول البـلاد وعرضها • أما بيكين فقد كانت حكومتها تتغير كل ستة أشهر تبعا لارتفاع نجم أمراء الحرب أو أفوله •

وفى عام ١٩١٧ كانت هناك محاولة لاعادة الملكية ولكنها باءت بالفشل أما الاضطرابات والثورات فقد عمت أرجاء الصين ٠

لقد استفادت الصناعة والتجارة الوطنية من هذه الفوضى ، فقد اختفت المنافسة الأوربية حيث شغلتها الحرب المشتعلة على بعد آلاف الأميال وبذلك شقت رءوس الأموال الوطنية طريقها الى الصناعة والتجارة وهكذا تجد أن عدد المغازل قفز من ٦٥٠ الفا فى عام ١٩١٣ الى مليون ومائة وسبعين الف مغزل فى عام ١٩١٩ أى أن الزيادة فى عدد المغازل كانت بنسبة ٨٠٪ ٠ كذلك ارتفعت الطاقة الانتاجية فى مصانع النسيج من ٥٠٠ر٤ منسج الى ٥٠٠ر٩ وبدأت فى الصين صناعة طحن الدقيق ثم نمت وازدهرت ، حتى ان الصين أخذت تصدر الدقيق فى عام ١٩١٩ بعد أن كانت من البلاد المستوردة له حتى عام ١٩١٥ ٠ ولكن هذا التقدم لم يكن مطردا ، وقد تركز حول شنغهاى وتينتسن وتسنجتاو ووهان ، ومع ذلك فيمكن القول بوجه عام ان صناعة المنسوجات والطحن والكبريت ومواد الصباغة قد ازدهرت ٠

لقد كان ازدهار الصناعة فى نظر الماركسى الأصيل ذا دلالة كبيرة ذلك ان عدد عمال المصانع ، وهم فرق الهجوم فى الثورة الشيوعية ، قد ازداد من نصف مليون عام ١٩١٣ الى ما يزيد على مليونين عام ١٩١٩ ، أضف الى ذلك أن ظروف الحياة على درجة خطيرة من السوء والاضرابات منتشرة والمصانع تغلق أبوابها فى وجه العمال من وقت لآخر لاذلالهم ٠ وهكذا كان الجو مهيئا لمولد حزب شيوعى صينى ٠

وحينما هبت عواصف الثورة الروسية عام ١٩١٧ كان ماوتسى تونج وليوشاو ـ تشي لايزالان طالبين فى المدرسة يستعدان لامتحان مسابقة الخدمة المدنية ٠ كانا كثيرى الهرب من المدرسة ، يصرفان أغلب الوقت فى متابعة تطورات الملكية القديمة والحديثة ويشتركان فى مواكب الاحتجاج ٠ وقد نجح ماوتسى تونج فى اقناع حاكم هونان بأن يربط مصيره بمصير الثورة الثانية ، ولما أعدم الحاكم بعد فشل الثورة أصبح ماو موضع كراهية أهالى الاقليم ، ولكنه لم ينثن عن عزمه ، بل ظل يختلس أوقات الراحة وفترات الدراسة الخاصة فيذهب لانتقاء « الاسبرطيين » وتدريبهم ٠

كان ماو يجوب البلاد على قدميه ويعبر مجارى الماء الشديدة البرودة هائما ويتسلق الجبال ، كل ذلك لانتقاء مجندين لفرقته من الاسبرطيين ٠ وقد عادت عليه هذه الحياة العنيفة بالخير فاصبح صلب العود أهلا للزعامة ويتحدث ماو نفسه عن هذه الفترة من حياته فيقول انه قطع اربعة آلاف ميل سيرا على الأقدام فى الصين الوسطى وليس معه من الزاد الا كيس مملوء بالفول الأسود ٠

لقد كان لنجاح الثورة الروسية أثر عميق فى نفس ماوتسى تونج ٠ خاصة وأن الثورات الكثيرة التى اشترك فيها كانت كل منها تنتهى بكارثة ٠ غير أنه لم يكن فى درجة اقتناع رفيقه ليو شاو ـ تشي بأن الشيوعية هى الدواء الناجح لجميع مشكلات الصين ٠ لقد شهدا تجربة

الديموقراطية فى الصين وهى الأخرى شر أجنبى ، ولكن كل الصينيين أجمعوا على أن هذه الديموقراطية فشلت فى بلادهم فشلا ذريعا • كذلك نذكر ماوسى تونج ، مما ترامى الى سمعه من أنباء روسيا ، ان الروس شعب غريب الأطوار ، وأن روسيا تحت حكم القياصرة قد اقتطعت أجزاء كبيرة من شمال غربى الصين • وقد حاول ليو أن يثبت لماوتسى تونج ان الازدياد المطرد فى عدد العمال الصينيين معناه أنه سوف يكون فى البلاد عاجلا عدد كاف من هؤلاء العمال لتنظيم جيش من البروليتاريا • ولكن ماو ذكر صديقه بأن الصين بلاد الفلاحين ، وأن بها ٥٥٠ مليونا من هؤلاء بجانب أقلية ضئيلة من العمال لا تتجاوز المليونين واستطرد ماو قائلا ان هذه هى نقطة الضعف فى النظام الشيوعى الذى يعتمد على طبقة البروليتاريا (العمال) ، فأوربا بلاد صناعية ، بها عدد كبير من عمال المصانع الذين يجدون فى الأحزاب الشيوعية الزعامة المنشودة أما فى الصين فان هذه الزعامة يجب أن يبحث عنها فى طبقة المثقفين وهم أقلية ، أو فى طبقة الفلاحين وهم أكثرية ، والأفضل أن تتكون الزعامة فى الصين منهما معا •

كان ليو يقرأ مؤلفات لينين ويتعلم اللغة الروسية ، أما ماو فقد كان يقرأ تشن تو ـ هسيو ولو هسوف وهما أعظم الكتاب الصينيين فى زمنه ، وكلاهما عضو فى الكومنتانج •

كان تشن يشن هجوما على ذلك العهد الذى غرق فيه الصينيون الى آذانهم فى تدخين الأفيون ووقفوا موقفا سلبيا أمام ما وجه اليهم من اهانة وما أصابهم من أضرار ، ويهيب بمواطنيه أن يثوروا على مصدر الشر • وهذه دعوة محببة الى نفس ماوتسى تونج ، ولكن تشن كان من ناحية أخرى يميل الى الأخذ بالنظم الغربية ويدعو الى اعادة تنظيم الصين على أسس انجليزية • أما لو فقد كان صورة طبق الأصل من ستالين فى عهده الأول ، فهو وطنى سليم العقيدة ، والى جانب ذلك فلديه روح الدعابة التى يعجب بها ماوتسى تونج •

كتب لو قصة قصيرة عنوانها « يوميات مجنون » ، تفيض بالسخرية اللاذعة للحكم الامبراطورى فى الصين ، كما تبرز صورة ساخرة لشخصية رجل كريه من طراز والد ماو • وقد تأثر ماو بما كتبه الآخرون فبدأ هو الآخر يكتب ، وقد قنع بادىء ذى بدء بقرض الشعر وخصوصا الشعر الغنائى الذى ينتهى بمغزى ذى دلالة سياسية • وكان يرسل قصائده الى مجلة « الشباب الحديث » التى أنشئت عام ١٩١٥ • وتعتبر طليعة الدعوة الى الأدب الصينى الجديد • كانت المجلة تدعو الى التخلى عن الأساليب القديمة ، وقد وضعت معايير خلقية جديدة • واستحثت الحكومة ـ كيفما كان نوعها ـ على مضاعفة الاهتمام بالدراسات العلمية • ومع هذه النزعة التقدمية فان المجلة كانت من الحصافة بحيث لم تطالب بالغاء الكتابة الرمزية الصينية واحلال الأبجدية اللاتينية محلها • ذلك أن هذه الكتابة الرمزية هى السبيل الوحيد الذى تستطيع غالبية الصينيين عن طريقه أن تتلقى الآراء من مختلف بقاع الصين • ولا ننسى هنا أن الصين بلاد تضم خمس لغات متباينة وعددا لا يحصى من اللهجات ، وانك لتجد

الصينى ، حتى فى الوقت الحاضر ، يحتفظ بمرفقة . حتى اذا قابل صينيا آخر لأول مرة ، أخرج مرفقته ونقش عليها من الأفكار ما لايستطيع النطق به فى عبارة مفهومة ، وهذا يوفر على المراسلين الأجانب عناء قصورهم فى التعبير باللغة الصينية •

لقد كان ماوتسى تونج خطاطا ماهرا ، ولذلك اسـتطاع تصوير قصائده ، ثم مقالاته السياسية فيما بعد بوضوح وحذق • ولقد ساعدته ممارسة الكتابة لمجلة « الشباب الجديد » على بلوغ الدور الهام الذى كان ينتظره فى حياته القادمة ، ذلك هو التقدم لامتحان المسـابقة للالتحاق بوظائف الحكومة •

جلس ماو لأداء هذا الامتحان فى يناير ١٩١٨ ، ويقول انه لم يكن مضطربا فى أثناء الامتحان اذ قضى الليلة السابقة لهيتدارس مواد الامتحان مع صديقه ليوشاوتشى • ولقـد جاء والده الى مدينة تشانج شا فى أول أيام الامتحان وأثار دهشة ابنه بأن أحضر معه لفة كبيرة من الأطعمة كهدية لذلك الابن • ولم يمكث الوالد حتى ينهى الابن امتحانه ، بل اختفى فجأة كما ظهر فجأة قانعا بأن ابنه الأخرق قد أصبح فى عداد المتعلمين •

وكان يوم ١٠ من مايو يوم دهشة للجميع حينما علموا أن ماوتسى تونج كان فى مقدمة الناجحين • وانه الحق بوظيفة مساعد أمين مكتبة فى المكتبة المركزية فى بيكين •

ولهذه المناسبة اقام أحباء ماو وليو حفلا ، اذ لم يكن احد منهم يتوقع ان يصيب ماو كل هذا التوفيق • ولنذكر هنا أن اشتراك ماو فى النشاط الثورى كان يضطره كثيرا للتخلف عن المدرسة حتى ان مدير المدرسة كان يخشى من أن يعجز ماو عن تعـويض ما فاته • كذلك كان بعض أصدقائه يخشون أن يكون ما عرف عنه من اثارة الاضطراب والشغب ، سـببا فى استبعاد اسمه من قائمة المرشحين للوظائف • وهنا يعلق ماو على الموقف فيقول : « كانت امتحانات المسابقة تسير على أساليب عتيقة سواء فى مادتها أو فى طريقتها ، ولكن كان رائدها العدل المطلق • ولم يكن من السهل على أية حكومة أن تحـاول شراء ذمم المتحنين ، وذلك على الرغـم من أن الاضطراب الذى تفشى فى أعقاب اعلان الجمهورية الاولى أشـاع الفوضى فى جهاز الخدمة المدنية بدرجة لم تستطع أن تتخلص منها فيما بعد » •

وفى يونيو رحل ماو الى بيكين ، أما صديقه ليو شاو ـ تشى فلم يجد ما يغريه بالبقاء فى مدينة تشانج شا بعد أن غادرها (صفيه) فولى وجهه شطر شنغهاى للبحث عن عمل ومواصلة دراسة « البروليتاريا » الصينية ليرى ان كانت تصلح أساسا لانشاء نظام شيوعى •

لقدافترق الصديقان فى محطة سكة حديد تشانج شا ، ولم يتقابلا الا بعد عشر سنوات ، ولم يعيشا معا الا بعد خمس عشرة سنة • ذلك أن الصين لم تكن بعد على استعداد لقبولهما ولا لقبول ما تحمله رأساهما من أفكار •

لقد احب ماو مدينة بيكين وقيد اسـمه كطالب فى الجامعة بمجرد وصوله ثم وفق الى غرفة صغيرة للسكن فى مواجهة مسكن البروفسور

بانج أستاذ علم الأخلاق . لم يكن عمله بالمكتبة شاقا ، أما المحاضرات التى كان مطالبا بحضورها فلم تكن كثيرة وكان من المتوقـــع أن يعد نفسه للترقية بأن يقرأ قراءة واعية أكبر عدد مما تحت يده من الكتب . ولم يكن لديه من شكوى غير ضآلة راتبه لدرجة أنه لم يستطع شراء الطعام الا مرة واحدة فى اليوم . ولكن أحد زملائه بالمكتبة أسر اليه قائـلا : « ان المدير قد أبلغنى عنـد قدومى الى المكتبة أن لى الحق فى التهام ما فى الكتب من علم وفى هذا غنى عن أكل البطيخ » .

وسرعان ما اكتسب ماو محبة زملائه ، فقد كان ذكيا فى غير غرور ولا ادعاء ولم يكتم عن هؤلاء الزمـــلاء أنه بالرغم مما لدى أسرته من ثراء نسبى ، فهو فى قرارة نفسه فلاح ، وانه أول جيل متعلم بين آل ماو . كان يمزح مع هؤلاء الزملاء مثلما يمزح مع أصدقائه ، وفى أثناء المحادثة يستعمل من فاحش القول وبذيئه ما كان يســتعمله والده . ولطالما أثار الجدل مع هؤلاء الزملاء حول الثورة والأجانب ، وكانت غالبية زملائه فى المكتبة من أنصار الكومنتانج ، الذى تتلخص سياســته فى توحيد الصين واعادة ما كان لبيكين من مجد زائل . ولكن الحزب حاول فى ١٩١٩ أن يسعى الى تحقيق أهدافه بالتعاون مع « أولئـك الأجانب الأشرار » أو على الأقل مع من كان على علاقة ودية مع الجمهورية من أولئك الأشرار .

ولما كان ماو يكره الأجانب ، شأنه فى ذلك شأن كل أهالى هونان ، فان فكرة التعاون معهم كانت فى نظره شرا مستطيرا ، ولكن زمـــلاءه فى المكتبة كانوا على النقيض من ذلك يرون التعاون مع الأجانب أمرا ضروريا للغاية ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل انهم كانوا يحبون هؤلاء الأجانب .

فى مدينة بيكين ، حيث توجد جميع الهيئات الدبلوماسية الغربية كانت روح التجديد بين الصينيين ، وخاصة بـــين الأقلية المثقفة منهم ، تقضى بأن يظهر كل منهم ولاءه لبلد غربى ، فهذا من الموالين لأمريكا وذاك من الموالين لفرنسا وهكذا ، ولكن ماوتسى تونج نزع ثقته من كل من هو غير صينى ، وخاصة الجنس الأبيض من أى عنصر كان .

لم يكن ماو ليظهر فى الجامعة الا نادرا فى خلال العام الاول ، وعلى كل فقد كان طالبا منتسبا ولا حق له فى الاندماج فى الوســـط الجامعى . ولا فى حضور حفلات الشاى والتعارف التى لا تنتهى . وقد استعاض عن ذلك بتمضية وقت فراغه مع زمـلائه فى المكتبة أو فى القراءة . ولقد قرأ فى المكتبة مؤلفات الاقتصاديين الانجليز من أمثال آدم سمث وستيوارت مل وجيفونز . لقد كانوا أجانب ولكنهم كانوا يعالجون موضوعات عامة ، بخلاف كارل ماركس .

ولقد تأثر ماو بمـــا قرأه لهؤلاء الكتاب ، ولكن تأثره الحقيقى كان يتمثل فى شعوره بالحاجة لعمل شىء ينفع بلاده . فهذا فى نظره أفضـــل من استيعاب نظريات اقتصادية للآخرين . ولقد دلت بصيرته على أنه اذا أريد بالصين أن تنجو من الاحتلال اليابانى فليس هناك مجال لاضاعة الوقت سدى خاصة وان هذا الاحتلال اليابانى ســوف يمتد أجله ويشتد ضرره أكثر من فترة الاستغلال الأوربى للبلاد وهنا يبدأ الخلاف بينه وبين

الشيوعيين فى بيكين فهم يزعمون ان الوقت لم يحن بعد لاتخاذ عمل ايجابي ، وأنه من الخير الانتظار حتى يتسع نطاق الصناعة ويصبح لديهم هيئة كبرى من العمال وهم « المادة الخام للثورة الشيوعية » • أما ماوتسي تونج فقد كان يؤمن بأن مدينة بيكين بها ما يكفى من «المادة الخام» للثورة الوطنية • وفعلا بدأ العمل بما لديه من امكانيات •

فى ربيع ١٩١٩ اجتمع الحلفاء فى قصر فرساى لوضع مسودة المعاهدة التى بها تنتهى الحرب العالمية الاولى • وكان فى فرساى وفد صيني لأن الصين كانت قد أعلنت الحرب على ألمانيا عام ١٩١٥ ، كى يستطيع يوان أن يسلم الممتلكات والامتيازات الألمانية فى الصين الى اليابان بطريقة قانونية على اعتبار أنها من ممتلكات الأعداء • ولكن الوفد الصينى لم يجد بين الوفود من يهتم بشأنه •

عقدت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة اتفاقية مع اليابان يتم بموجبها وضع جميع ممتلكات وأموال ألمانيا المصادرة تحت اشراف « لجنة الحماية الدائمة » فى طوكيو • وهذا معناه تسليم أراض صينية الى دولة ليس بينها وبين الصين علاقات ودية • ولما بلغت بيكين أنباء احياء المطالب اليابانية الاحدى والعشرين ، وان الوفد الصينى فى فرساى على وشك توقيع معاهدة دولية بالتسليم بهذه المطالب أصبحت البلاد تغلى كالمرجل •

وقر فى نفس ماو الشاب أن الوقت قد حان لأن يفعل من أجل بكين ما كان يريد أن يفعله من أجل تشانج شا أى أن يجعلها مركزا لاجتماع الصين ضد كل من يحاول استغلال الصينيين ، خاصة اذا كان غير صينى •

لم يكن بجانبه ليو شاو ـ تشى ليسدى اليه النصح ، ولكن التجارب علمته ، وما فشل فى تنفيذه أمام قصر الحاكم فى هونان ، يستطيع تنفيذه اليوم فى بيكين أمام القصر الامبراطورى •

جمع ماو حوله نواة لهيئة نظامية من الشباب ، وقسم المدينة الى مناطق ، وكلف كلا من زملائه الاشراف على منطقة منها ، ثم وضع خطة دقيقة لمن يقومون بالهتافات بادئين بالمناطق ومتجهين الى قلب المدينة ، وكلف كل قائد منطقة أن يعقد اجتماعا فى مساء ٣ مايو وأن يعين هتافيه ، وفى منتصف ٤ مايو يبدأ الزحف على أن يتجه الجميع الى ميدان تين آن من

وفي يوم ٣ من مايو ، كان من حسن حظ ماو أن تواترت الشائعات فى مدينة بيكين بأن معاهدة فرساى قد تم التوقيع عليها صباح ذلك اليوم وأن اليابان ، بموجب نصوص المعاهدة ، قد اقتطعت لنفسها جانبا من أرض الصين وما لبث أربعون ألفا من شباب ماو الزاحفين أن تقدموا هاتفين « حافظوا على سيادة بلادنا » « أنزلوا العقاب بالخونة » « لا نوقع معاهدة فرساى » « الغوا الاحدى وعشرين مطلبا » •

وقاد ماو بنفسه فريقا من المتظاهرين الى دار تساو جولين الذى كان نائبا لوزير الخارجية فى عهد يوان ووقع بقبول المطالب اليابانية ، فضربوه ضربا موجعا وأشعلوا النار فى داره •

أما في الميدان الرئيسى فكان المتظاهرون يهتفون طبقـــا للخطة المرسومة وكان كل شيء يسير طبقا للتعليمات ٠

هنا ارتاعت الحكومة في بيكين فعجلت بارسال قوات الى قلب المدينة ، وقد استطاعت هذه القوات تشتيت المتظاهرين بعد أن ارتكبت كثيرا من أعمال القسوة والعنف ٠ وقبل أن ينفض المتظاهرون كانوا قـد أشعلوا النار في دور عدد كبير من كبار رجال الحكومة وأصيب كثير ممن بداخل هذه الدور ٠ تحصن بعض كبار أصحاب المناصب فى دار البرلمان وأرسلوا برقيات الى الوفد الصينى فى فرساى يحذرونه من توقيع المعاهدة والا فانهم سوف يذبحون جميعا ، وهكذا امتنعت الصـــين عن توقيع المعاهدة وفى اليوم التالى ، وهو يوم ٥ من مايو قامت جماعة ماوتسى تونج بتوزيع نشرات دعت فيها طلبة المدارس الثانوية والجامعة الى اضراب عام ، وقد نجح الاضراب نجاحا تاما ، فقد خلت حجرات الدراسة من التلاميذ وأبهاء المحاضرات من طلبة الجامعة ٠وسرعان ما انتشرت أنباء المظاهرة والاضراب فى جميع أنحاء الصين ٠ واتصل ماو بصديقه ليو وأعلمه بما قام به ، وطلب اليه أن يقوم عاجلا بتنظيم مظاهرة مشابهة فى شنغهاى ٠

كذلك قام زعماء الطلبـة ــ فى تينتسن وتانتنج ووهان وكانتو ــ بمظاهرات مماثلة ٠ وفى ٥ من يونيو نظم ليو اضرابا عاما بين عمـــال النسيج فى شنغهاى البالغ عددهم عشرين ألفا ، وظل الاضراب قائمـــا حتى قامت فئات العمال الأخرى بالاضراب وبذلك شلت حركة المدينة ٠

ولم تتمكن الحكومة من انهاء موجة الاضراب والمظاهرات الا بعد ان استخدمت كل ماتستطيع من قواتها المسلحة ، ولكن البلاد ظلت طوال السنوات الست التالية فى ثورة وغليان ٠ وبين عشية وضحاها أصبح اسم ماوتسى تونج على كل لسان ٠ وألفى نفسه موضع رعاية النخبـــة المثقفة فى مدينة بيكين وقدم الى كل شخصية هامة وخاصة أساتذة الجامعة وزوجاتهم ٠ وكان أحب شيء لديه أنه أصبح موضع ترحيب فى المنزل المواجه لسكنه فى الجانب المقابل من الشارع ٠ كان فى هذا المنزل كما ذكرنا من قبل البرفسور يانج ٠ وهو وان لم يكن متحدثا لبقا ، كما كانت حفلات الشاى التى يعدها محوطة بالشكليات التى تبعث على الضيق ، الا أن ماوتسى تونج وجد عن ذلك عزاء جميلا ذلك أن الاستاذ يانج كانت له ابنة جميلة تدعى كاى هوى ٠ ولقد أحبها ماو وهى الأخرى بادلته حبا بحب ، مع نحافته وشعره الذى لم تعمل فيه يد الحلاق قط ٠ أخذ ماو والفتاة كاى يتبادلان أحاديث الهوى عبر مائدة الشاى ثم انتقلا بغرامهما الى المكتبة وأكملا اللقاء فى المتنزه العام ٠

وأخذ ماو يكتب لها رسائل الغزل المسهبه ، ويرسل لها قصاصات أودعها فيض قلبه ٠ وما كان لفتاة أن تمتنع على شاب جمع بين الشهرة والعاطفة المشبوبة والمستقبل الأدبى الحالد ٠ وأخيرا فى ربيع ١٩٢٠ تم الزواج بين المحبين ٠

كان ماوتسى تونج وكاى سيدين على الرغم من فقرهما ، وقد انتقل ماو بكتبه الى دار حميه البروفسور يانج .

لقد أدى نجاح ماو باعتباره الرأس المدبر لمظاهرة ٤ مايو الى تغيير هام في حياته . فقد كان بين أصدقاء الأستاذ يانج الحميمين واحد المترددين على داره أستاذ جامعي آخر اسمه تشن تو هسيو وهو استاذ الاقتصاد واحد المحاضرين اللامعين . وقد خلب تشن لب ماو بعرضه الرائع لنظريات الاقتصاديين الاقدمين وترجمة تلك النظريات التى عفا عليهـــا الزمن الى برنامج انشائى لانقاذ الصين . كذلك استرعى ذلك الشاب الذى تزعم المظاهرات وهو لم يتجاوز ستة وعشرين ربيعا ، انتباه الاستاذ تشن ، وقدر تشن ان هذا الشاب سوف يفعل للصين مافعله لينين لروسيا .

ماو تسي تونج يعتنق الشيوعية

ولما كان الاستاذ تشن شيوعيا ، فان ماو بأحاديثه معه وجد نفسه يتعمق شيئا فشيئا فى دراسة النظريات الماركسيه والأساليب الشيوعية ولما اعترض ماو بأن ماركس كان يستنتج نظرياته من حوادث جرت فى بلاد أوربيه تسيطر عليها الرأسماليه ، رد عليه تشـــن بأن ماركس كان أوربيا ، واستخدم الحقائق التى فى متناول يده ، واذا كان ماو يرى أن بعض نظريات ماركس لا تصلح للصين فليس عـــلاج ذلك نبذ نظريات ماركس كلية ، بل استخدام طريقة ماركس فى الوصول الى استنتاجات تنطبق على المجتمع الصينى • كذلك اعترض ماو بأن الشيوعيين يتحدثون كثيرا عن روسيا والثورة الروسية ورد عليه تشن بأن روسيا هى البـلد الوحيد الذى وضعت فيه نظريات ماركس الثورية موضع التنفيذ • وكلما عجل الشيوعيون الصينيون بتطبيق هذه النظريات أمكنهم الحديث عن الثورة الصينية • وأخيرا قال تشن « تذكر ياماو أن ماركس كان ألمانيا عاش أغلب حياته فى المنفى ، وانه كان يهوديا واذا فهو رجل لاوطن له • ولسوف نهيىء له وطنا بأن نجعله صينيا » •

ولقد أحس ماو بأنه يضعف أمام حجج الاستاذ تشن ثم حدث أن اتخذت روسيا ، عن غير قصد ، خطوة أقنعت ماو نهائيا بأنها قد تخلت عن نزعاتها القديمة • ذلك ان جيوش القيصر كانت قد أخـــذت تتسلل الى منشوريا فى أواخر القرن الثامن عشر ، وفى أثناء القرن التاسع عشر اطرد تدفق العسكريين والمدنيين الروس على الاقليم ، فالمدنيون على اعتبار أنهم فنيون جاءوا لانشاء سكة حديد سيبريا ، والعسكريون على أنهم جـــاءوا لحراسة الخط • وقد أقام هؤلاء الروس قواعد فى المناطق الشمالية من الصين • ولم يصدر من أباطرة المانشو أى اعتراض جدى على هذا العدوان الروسى ولو أنهم يرجعون فى أصولهم الى منشوريا • وبرر أباطرة المانشو موقفهم بأن قواتهم العسكرية لا قبل لها بمواجهة الروس وأن الروس على أى حال كانوا بنائين لا هدامين وأنه من المحتمل ان يجيء يوم يصبح فيه مابنوه ملكا للصين •

وما كان يدور بخلد أحد قبل عام ١٩١٧ أن شمالى منشوريا سوف يعود الى الصين مرة أخرى • ولكن فى عام ١٩٢٠ أصبح الخيال حقيقـــة وذلك بدون أى مطلب تقدمت به حكومة بيكين ، فقد تقدمت الحـــكومة السوفيتية بعرض الى حكومة الصـــين يقضى بنزولها عن كل حقوقها فى أراضى الصين كحق الاتجار تحت حماية القانون الروسى وحق الاعفاء من الضرائب الصينية وحق انشاء مستعمرات روسيه • وزاد فى أهمية هذا العرض الروسى اقترانه باقتراح اضافى بطلب فتح باب المفاوضات بين روسيا السوفيتية والصين لعقد اتفاقية تقوم روسيا بموجبها بدفع مبالغ

فى مقابل امتيازاتها الخاصة فى منشوريا الشمالية • ولم تطالب روسيا بأى ثمن لهذا العرض السخى الا اكتساب صداقة الشعب الصينى •

وفى يونيو عام ١٩٢٠ وصل الى بيكين أدولف جوفا المبعوث الروسى المكلف من قبل بلاده بتقديم العرض بطريقة رسمية • ولقد أثار قدوم جوفا اهتماما كبيرا فى بيكين ، فهو أول ممثل رسمى لدولة أجنبية قدم الى بيكين ليعطى لا ليأخذ • والصينيون المعادون للشيوعية أدركوا أن أى اجراء يؤدى الى جلب المنفعة لبلادهم من الخارج على أن يتسم بروح الاخاء ويحقق الفائدة جدير بالتقدير • ولما كان الاستاذ تشن زعيم الشيوعيين فى بيكين فقد نيط به اصطحاب المبعوث الروسى واكرام وفادته •

وقد حرص تشن على تقديم جوفا لكل من يشملهم برعايته ومن بين هؤلاء ماوتسى تونج • وقد أجرى ماو أحاديث طويلة مع الزائر القادم من « ذلك العالم الجديد ، عالم الوحدة الاشتراكية » وقد كان تأثر ماو بالزائر أعمق من تأثره بالاستاذ تشن الذى كان يحاول اقناعه فى رفق • ويقول ماو ان أحاديث جوفا كانت من نوع جديد مخالف لما درج عليه ممثلو بريطانيا وأمريكا ، فهى مزيج من الأسف على استغلال الصين فى الماضى والأمل فى مستقبل يسوده التعاون •

وقد أدرك صون يات سن فى كانتون ما سوف يكون لزيارة جوفا من أثر على المترددين • ولم يكن صون معاديا للاشتراكية من حيث المبدأ ولكنه كان يؤمن بأنه يجب سلوك طريق سلمى ايجابى لحل مشكلات الصين• واذا كانت النظم البرلمانية البريطانية والفرنسية والأمريكية قد فشلت تجربتها فىالصين، فعلى هذه الدول الثلاث أن تبحث عنوسيلةأخرى لمساعدة هذه البلاد ، وأقل ما ينتظر منها هو منافسة الاتحاد السوفيتى فى تقديم عروض جديدة لاصلاح أخطاء الماضى والتفكير عن استغلالها للصين فى خلال القرن التاسع عشر • وعلى هذه الدول أن تعترف بحكومة فى كانتون على اعتبار أنها الحكومة الشرعية فى الصين وتسحب اعتراضها من سلسلة امراء الحرب الذين كانوا يعملون باسم حكومة بيكين • والأمل الأخير لدى صون يات سن هو أن الجمهورية يمكن انقاذها بمساعدة بريطانيا •

أما شيانج كاى شيك الذى لم يكن من محبى بريطانيا ، فقد اتجه الى أمريكا • وفى يوليو ١٩٢٠ عرض صون على بريطانيا رسميا أن تؤيد برنامجه لاصلاح الصين وتتبادل السفراء مع حكومته فى كانتون • وقام شيانج كاى شيك من جانبه بتقديم مثل هذا العرض الى حكومة واشنطون ، ولكن الاقتراحين لقيا من الجانبين أذنا صماء • ولم تكتف بريطانيا برفض الاعتراف بحكومة صون يات سن بل عنفته على مطالبتها بالتنازل عن بعض حقوقها غير المعقولة • فى ذلك الوقت كان ماوتسى تونج مترددا فى موقفه يقلب فكره بين حجج الاستاذ تشن والممثل الأعلى للتعاون الذى قدمه جوفا • فلما سمع بأن الكومنتانج لم يلق الا الامتهان من الدول الغربية الكبرى والصد من أمريكا ، لم يبق لديه مايدعو للتردد والانتظار • لقد تبدد فى نفسه كل أمل فى « التقدم دون تقليد لبريطانيا وامريكا » وعرف أين يجد أصدقاء الصين •

لقد كانت بريطانيا وفرنسا وأمريكا تتحدث كثيرا عن الثـــورة والديموقراطية وتعبد ثقافة أسلافها من الاغريق والرومان ولكنها لم تكن على استعداد للأخذ بيد الصين فى كفاحها من أجل الحرية والاخـــــاء والمســاواة • بل هى مصممة على التمتع بامتيازاتهــا فى المدن الصينية معفاة من الضرائب ومن التدخل فى شئونها ومن تطبيق القوانين المحلية على رعاياها • وهناك فى الجانب الآخر الروسى الذين لم يقفوا عند التحدث عن الثورة والاخاء بل مارسوهما ، وإذن فصديقه ليو شاو ــ تشى كان على حـــــق •

وفى سبتمبر ١٩٢٠ ذهب ماوتسى تونج ليودع جـــوفا فى طريق عودته الى موسكو • ووقف على رصيف المحطة هو والاستاذ تشن ونفر من ممثلى الحكومة الصينية والزعماء الشيوعيين فى الصين ، فأخذ جوفا يعيد على مسامعهم تصميم الحكومة السوفيتية على مساعدة الصين فى محنتها • وألمح الى أنه كلما بادر الصينيون بالتخلص من الحـــــكومات الضعيفة المستهترة المترددة فى بيكين واقامة حكومة موحدة قديرة كان ذلك فى مصلحتهم • وتدارك جوفا الموقف عاجلا فقال « وعلى كل فهـــذا شأن الصين وحدها » • فالاتحاد السوفيتى يود أن يجرى مفاوضات على أساس المساواة لا أن يملى ارادته على المفاوض الآخر •

ومن الروايات التى تناقلها الحزب الشيوعى الصينى أنه بعــــد سفر جوفا وجه ماوتسى تونج الحديث الى الاستاذ تشن قائلا « هذا رجل معقول ولم لا يكون لدينا حزب شيوعى فى الصين ؟ »

ورد تشن : نحن فى أشد الحاجة الى مثل هذا الحــزب ويجب أن ننشئه • وقال ماو « اذا أنشىء حزب شيوعى صينى فسوف أنضم اليه •

وهنا أخفى الاستاذ تشن ابتهاجه وأجاب فى رزانة : أنت وأنا سوف نتعاون معا فى انشاء هذا الحزب •

وهكذا نشأ الحزب الشيوعى الصينى •

الفصل الرابع

من الأشياء التي تحوطها السرية في تاريخ الصين معرفة المؤسس الحقيقي للحزب الشيوعي الصيني . فيقول تونج بي ـ وى أنه هو الذى أسس الحزب فى اقليم هوبيه بتاريخ سبتمبر ١٩٢٠ . أما لى نا ـ تشاو الذى كتب أول تفسير صينى للماركسية بعنوان (الماركسية كما أفهمها) فيقول أنه أسس أول جماعة شيوعية فى تينتسن حوالى منتصف عـام ١٩١٩ . ويقول ليو شاو ـ تشى انه هو مؤسس الحزب بعد زيارة الاستاذ تشن له فى أغسطس ١٩٢٠ ، ولكنه لم يكرر دعواه هذه منذ انشـاء الجمهورية الشعبية فى الصين . ومهمـا يكن واضع أول قانون أساسى لأول فرع للحزب الشيوعى الصينى ، فان أول تنظيم جدى لهذا الحـزب هو الذى أقامه ماوتسى تونج والاستاذ تشن فى بيكين ، وهذه المنظمة اتخذت لنفسها اسم الحزب الشيوعى الصينى ، وأصبحت بعـد تسعة وعشرين عاما نواة للدولة الشيوعية الجديدة فى الصين . وقد صحب انشاء الحزب دعاية واسعة .

ولما تلقى صون يات سن وشيانج كاى شيك أنباء تأسيس الحزب الشيوعى الصينى أصابهما الفزع ، وأخذ صون يبحث عن وسيلة يثبت بها أن الشيوعية لا تلائم الصين ، أما شيانج كاى شيك فقد أخذ يعمل بنشاط ليجعل من الكومنتانج منافسا قويا للحزب الشـيوعى ، وترك النظريات والمسائل المذهبية للدكتور صون . وقد عمد كاى شيك الى حل حزبه القائم بعد أن أشبع أعضاءه تعنيفا وزجرا . ثم أعاد تنظيمه على نسق الحزب الشيوعى السوفيتى ، مع مايقترن به التنظيـم الجديد من جهاز الخلايا فى المدن واللجان الاقليمية ورؤساء الادارات السياسـية (القوميسار) ، لا بل ان الكومنتانج الجديد اتخذ له مكتبا سياسيا كالأحزاب الشيوعية ، ولما تبين لشيانج كاى شيك ان التنظيم الجـديد أصبح ذا فاعليـة ، شرع يقوى قبضته على جنـوبى الصين ويبعث بقوميساريه نحو الشمال .

النزاع بين الكومنتانج والشيوعيين

ولما سمع ليو شاو ـ تشى أن كاى شيك أعاد تنظيم الكومنتانج أدرك ان السبب الحقيقى فى عجز ثورة ١٩١١ عن اقامة حكومة قوية هو الحاجة الشاملة للتنظيم فى جميـع صـوره السياسية والصناعية والتجارية ، لقد دب الفناء فى جهاز الخدمة المدنية الامبراطورية منـذ وفاة يوان ، ولم يحل محله جهـاز آخر ، أما فى الأقاليم فان العصابات المسلحة من الجند اخذت تطوف بالبلاد فتستولى على مايقع تحت أيديها

من طعام وشراب وتثير الرعب فى قلوب الفلاحين • وملاك الأراضى القدامى فروا الى المدن وتركوا الفلاحين دون أية زعامة سواء أكانت حسنة أم سيئة ، وبالايجاز فقد كانت الفوضى شاملة •

وكان لابد من انشاء جهاز جديد للحكم ، ولكن لم يوجد بين الصينيين من يدرك الطريق الى ذلك • تلفت ليو شاو ــ تشي حوله ووجد أن هناك بلدا واحدا فى العالم بجانب الصين ، كان عليه أن يخلق دولة من العدم وقد استطاع هذا البلد أن يحقق فى ثلاث سنوات ابتداء من ١٩١٧ ماعجزت الصين عن تحقيقه فى تسع سنوات ابتداء من ١٩١١ • لذلك قرر ليو السفر الى روسيا السوفيتية ليرى كيف شرع الروس فى بناء دولتهم من جديد واعادة النظام الى نصابه ، ولم يجد مشقة فى ايجاد وسيلة للسفر ، ذلك أنه كان هناك عملاء للسوفيت فى كل ركن وزاوية فى مدينة شنغهاى • أخذ ليو يبدى رغبته علنا فى أنه يريد السفر الى الاتحاد السوفيتى (للدراسة) وبعد عدة مقابلات سرية قدمت له الحكومة الروسية منحة دراسية للالتحاق بجامعة الشرق الأقصى فى موسكو وأنه يستطيع السفر فورا •

سافر ليو الى روسيا دون رؤية صديقه ماوتسى تونج لأنه كان على يقين من أن ماو لن يوافق على سفره على الرغم من أنه أصبح شيوعيا ، ذلك أن ماو لم ير فى الروس الا أجانب عن الصين مع ماهم عليه من الطيبة وأنهم الدعاة الأول للشيوعية ، ولهذه المناسبة فان ماوتسى تونج هو الزعيم الشيوعى الوحيد الذى لم يتلق تعليمه فى موسكو ، وهو لذلك يعتقد أنه كشيوعى صينى خير من أقرانه من أمثال ليو ، الذين حجوا الى موسكو •

كان أمام ماو عمل كثير فى بيكين • ولما لم يستطع مواصلة العمل فى المكتبة لكثرة العراقيل التى وضعتها الحكومة فى طريقه ، غادرها وبدأ نشاطه علنا بالالتحاق باحدى المنظمات السياسية التى كانت متهمة بالقيام بنشاط هدام على الرغم من أنها لم تكن ممنوعة قانونا من مزاولة النشاط • كان ماو يقوم بخدمات كثيرة لحزبه وهذا زوده بمورد طيب من المال من مصادر كثيرة ، وكانت أهم مشاغله مع أترابهمن الشباب الذين يحسن التفاهم معهم كما يحسن زعامتهم وتوجيههم •

ولقد أسس أول جبهة من الشباب الصينى أطلق عليها اسم «الرابطة الوطنية للشباب الصينى ، وجند فى رابطته ألوفا من الشبان الذين لا يدينون بالشيوعية ، وكان يقصد به تنسيق النشاط الاشتراكى بين من لا يتجاوزون الثلاثين من الشبان الصينيين حيثما وجدهم ، حتى ولو كانوا خارج البلاد ، ولذلك أخذ يتراسل على نطاق واسع مع الطلبة الصينيين فى بريطانيا وفرنسا وأمريكا ويستحثهم على التعجيل بالعودة الى بلادهم بمجرد الانتهاء من الدراسة كما يطلب اليهم أن يعملوا فى الوقت نفسه على تكوين روابط من الشباب الصينى فى البلاد التى يتلقون العلم بها ، ويحاولون الاتصال بالعناصر اليسارية وجذبها الى صفوفهم • وكان ممثله فى باريس شوان ــ لاى الطالب فى السوربون وكان همه الأكبر سواء فى داخل الصين أو فى خارجها ، أن ينشىء وحدة

منظمة من الشباب الصينى لديها الوقت والنشاط اللازمان لاعادة بنـــاء الصين كدولة اشتراكية .

لقد كان يبدو من يوم الى يوم ان الصين فى حاجة الى تجديد شامل، فالصناعة الصينية عادت الى التدهور بعد فترة قصيرة من الازدهار فى أثناء الحرب العظمى ، وصناعة المنســوجات تكاد تكون كلها فى أيدى اليابانيين حتى لقد ارتفع عدد المنازل اليابانية فى الصين من ٢٩٠ الفا فى عام ١٩١٨ الى ٨٦٠ ألفا فى عام ١٩٢١ . وقامت المصارف الامريكية بتمويل جميع أنواع النشاط التجارى كما تولت الاشراف على خطوط الأسلاك التلغرافية البحرية وحصلت من ذلك على أرباح طائلة . ولمـــا كان هدف بريطانيا وامريكا فى ذلك الوقت هو ايجـــاد حكومة صينية تستطيع اقرار السلام فى البلاد لفترة معقولة ، فقد أيدنا فينج كو ـ تشانج الذى كان أميرا للحرب فى اقليم جيهول فى ذلك الحين ، وقامتا بتمويل حملة أعدها فنج عام ١٩٢٠ على أمل ايجاد حكومة قوية فى الصـــين ، ولم يرق فى أعين اليابانيين وجـــود دكتاتورية عســـكرية صينية تشعر بأنها مدينة لمنافسى اليابان فى التجارة ، ولذلك قررت هى الأخرى تمويل حملة يقودها أحد أمراء الحرب الآخرين وهو توان تشى ـ جوى المسيطر على اقليم آنهوى . وهكذا انتقلت محاولة الاستقرار الى حـــرب أهلية بين شمالى الصين ووسطها ، وهذه الحرب دمرت جانبا كبيرا من البلاد التى كانت الأطراف المتعارضـــة تسعى لبعث الاستقرار فيها . هكذا خرت الصين على وجهها منهوكة القوى بين حرب أهلية فى أقاليمها الوسطى والشمالية ، وفئة من رجال الأعمال الجشعين الذين اعتصروا قطرات الدم الباقية فى الأقاليم الجنوبية أملا فى تعويض مافقدوه خلال الحرب العظمى .

اســـتطاع فنج كو تشانج فى ربيع ١٩٢١ أن يقضى على جيش آنهوى وان يضعف تشانج تو ـ لينى أحد أذناب اليابان ، الذى نصب نفسه ملكا على شمال شرقى الصين ، وبذلك ظل فنج طوال الثمانية عشر شهرا التالية حاكما فى بيكين بلا منازع ، حتى لقد علق السفير البريطانى على موقفه قائلا انه يكاد يكون حكومة صينية . ومما جعل فنج محببا لدى هذا السفير أنه كان بطبيعته معارضا للشيوعية ، وما ان وضع قدمه فى القصر الامبراطورى حتى بدأ يحل الحزب الشيوعى الحديث العهد فى بيكين ، وأصدر أوامره باختطاف كل الزعماء الشيوعيين الذين يبشرون بمستقبل زاهر . وكان من حظ ماوتسى ـ تونج أن تسربت الأنباء الى الاستاذ تشن فأبلغ ماو الخبر ، ولم يسع ماوتسى تونج الا أن يحـــزم بعض متاعه وكتبه ويصطحب زوجته ويغادر بيكين خفية كما دخلهـــا خفية منذ ثلاث سنوات .

ولقد اقترح عليه الاستاذ تشن أن يعـــود الى اقليم هونان ويصبح المنظم الأول للحزب الشيوعى هناك . ولم يرحب ماو بفكرة الانتقال الى هونان لأنه اعتبر أن الانتقـال من العـاصمة الى الأقاليم خطوة الى الوراء بالاضافة الى مافيها من حط بكرامته . ولما كان صديقه ليو شاو ـ تشى فى روسيا فلم يكن فى استطاعته التوجه الى شنغهاى ، وأخيرا أقنعته زوجته بالسفر الى هونان .

وصل ماو وزوجته الى مدينة تشانج شا عاصمة اقليم هونان فى مايو ١٩٢١ ، وهناك عاد ماو الى الاختلاط برفاق صباه واستطاع تكوين فرع للحزب الشيوعى فى المدينة ٠

وقد أبلغه حـــاكم الاقليم أنه لن يستطيع عقد اجتماعات أو اعداد مظاهرات استفزازية تحت حماية البوليس ، ولكن اذا تمت اجتماعاته فى هدوء تام فلن يطلق البوليس النار على المجتمعين ٠

وفى ١٥ من يونيو ١٩٢١ ظهر فى شوارع تشانج شا أول عدد من صحيفة هسيانج تشيانج التى أنشأها ماوتسى ـ تونـــج ، وكان يقف بنفسه فى الشارع تساعده زوجته وأصدقاؤه لتوزيع أعداد الصحيفة٠ ولما كان ماو محبوبا من أهالى المدينة وأن زوجته أجمل موزعة للصحف ظهرت بين أهالى تشانج شا فقد لقيت الصحيفة رواجا ٠

لو أن فتاة جميلة مثل كاى ـ هوى (زوجة ماو) ظهرت هـكذا فى شوارع المدينة قبل ذلك بعقد أو عقدين لاعتبرت من بنات الهوى اللاتى يعرضن أنفسهن للراغبين ، ولكن ثـــورة ١٩١١ قد بعثت فى نفوس الصينيين قيما جديدة فبطل بيع الفتيات الى بيوت الدعارة كما بطل نظام التسرى وأصبح من حق الفتاة ان تذهب الى المدرسة وأن تمارس التجارة، بل أن تتولى الوظائف العامة ٠

لم يكن ماوتسى تونج الوحيد بين الشباب المتعلم ، الذى أنشأ له جريدة ، فان كل شاب متعلم صينى ، طموح الى مستقبل زاهر أنشأ له جريدة أيضا ٠ فمثلا شواين ـ لاى أنشأ له جريدة بعد عودته من باريس عام ١٩٢٢ وأصدقاء ماو فى بيكين أنشأوا صحيفة « الصين الفتاة » وأنشأ أصدقاء ليو شاو ـ تشى صحيفة فى شنغهاى ٠

ويبدو من رواج هذه الصحف أن الثورة الشيوعية كانت على الابواب وفى يوليو ١٩٢١ عقد الحزب الشيوعى الصينى أول مؤتمر له فى شنغهاى وكان يمثل اقليم هونان فى المؤتمر ماوتسى ـ تونج ، ولقد تولى جميع أعضاء الوفود التى اشتركت فى هذا المؤتمر مناصب مختلفة فى جمهورية الصين فيما بعد ٠

ولقد قرر المؤتمر ان الوقت قد حان للقيام بثورة شيوعية فى الصين على نسق الثورة الروسية ، ولكن يجب قبل اقامة حـــكومة شيوعية أن تنتشر الفوضى فى البلاد على نطاق واسع ٠ فهذا هو الجو الملائم الذى تنشأ فيه الشيوعية وتترعرع ٠ ولذلك استقر رأى الوفود على القيام بحركة شاملة لاثارة الاضراب والاعتصام فى جميع أنحاء الصين حتى يشـــيع الاضطراب فى البلاد ولا يستطيع الدكتاتوريون العسكريون مواجهـــة الموقف فيتخلوا عن الحكم ٠ وقد أنشئت سكرتيرية لنقابات العمال لوضع خطط الاضراب ومحاولة اغراء العمال الصينيين بالانضمام الى نقابات العمال الصحيحة بدلا من السعى لتحويلهم فورا الى جمعيات سرية ٠ وقد اقترح ماوتسى ـ تونج على سكرتيرية نقابة العمال انشاء صحيفة تساهم فيها الوفود المختلفة بتجاربها وخبراتها فى ميدان « كفاح الطبقات العاملة »

فقبل اقتراحه وأنشئت صحيفة العمال الاســـبوعية ثم بدأت السكرتيرية تنفيذ خطط الاضراب فورا ٠

ففى يناير ١٩٢٢ دعت الأقلية الشيوعية فى المجلس العام لاتحـاد عمال البحر الصينيين فى هنج كنج الى الاضراب من أجل رفع الاجـور ، ولكن أصحاب السفن وغالبيتهم من البريطانيين رفضـــــوا التفاهم مع المجلس ٠ ولم يمض أسبوع حتى امتنع عن العمل ثلاثون الفا من عمال البحر وعمال الموانى ووقفت حركة الشحن والتفريغ والملاحة فى هنج كنج ٠ ولقد كان لنجاح هذا الاضراب أثره الكبير وخاصة على العمال الصينيين الذين لم يشتركوا فى الاضراب ، فما كان يدور بخلدهم أن تصل قـــوة الاضراب الى هذا الحد ، وفى شهر فبراير وجه اتحاد البحارة نداء الى بقية نقابات العمال كى يتضامنوا مع زملائهم وفى مدى ٢٤ ساعة استجاب للنداء أكثر من ستين ألف عامل ٠ ولقد أبلغ سكرتير لجنة الاضراب العامة أن سكرتيرية نقابات العمال الشيوعيين لديها الكفاية من الاغذية والاعمال فى كانتون وأنه اذا استطاع العمال الصينيون القيام بهجرة جماعية من هنج كنج فان هذا سوف يشل حركة المستعمرة البريطانية ـ ولما شرع العمال فى الانتقال من هنج كنج الى أرض الصين فزع الحاكم وامـــر البوليس وقوات الامن المرابطة فى كولون ان تعيد العمال المهاجرين ٠ وقد حدث صدام بين العمال والقوات العسكرية أدى الى اصابة بضع مئات من العمال ولكن هذا بدلا من أن يقضى على الاضراب مثلما كان يحـــدث فى الماضى ، نشره على أرض الصين نفسها ٠

وهنا يقول ماوتسى تونج : «لقد حظى الاضراب بتأييد جميع الصينيين لأنه كان موجها ضد الأجانب الذين تمثلهم بريطانيا فى هذا الحادث ، أما الصينيون فى الخارج ، حتى أولئك الذين لا يعطفون على الثورة ، فقـد أرسلوا مبالغ من المال لتعزيز الاضراب وموقفنا هنا مخالف لما حدث فى روسيا ، لأن الرأسماليين الروس الذين كانوا يعيشون فى الخارج فى أثناء الثورة الروسية كانوا يساعدون الطبقة الرأسمالية فى روسيا ٠ ان الشعور القومى تغلب على عقبة الفروق الطبقية » ٠

وبعد ثمانية أسابيع أصاب أصحاب السفن ورجال الاعمال فى هنج كنج الهلع فسلموا بمطالب العمال وكان لهذا أثره الكبير فى تقـــوية الحركة النقابية فكون عمال سكة حديد بيكين ـ هانكاو نقابة عامة ٠ ولكن حكومة فنج بادرت باعلان عدم قانونية انشاء هذه النقابة ، فرد العمال بمظاهرة كبرى ٠ وفى ٤ من فبراير ١٩٢٣ أعلنت النقـــابة الاضراب العام من مركزها فى بيكين ، ولم تمض ثلاث ساعات حتى توقفت الحركة توقفا تاما على طول سكة حديد بيكين ـ هانكاو » ٠

منح فنج ابن عمه دويى ـ فو سلطة انهاء الاضراب ، ولما كان فو رجلا ضيق الأفق يرى أن اطلاق النار هو الوسيلة الوحيدة للقضاء على كل اضراب فقد عبأ كل قوات الحكومة لمواجهة الموقف ٠ وكلما التقت قواته بالمضربين أطلقت عليهم النـــار ، ولمـــا القت القبض على لينى هسيانج ـ تشن زعيم حركة الاضراب أمرته بتوجيه نداء الى المضربين بأن يعودوا الى العمـــل بعد أن أوسعته ضربا ٠ ولـكن الرجل كان من

الشـــجاعة بحيث قال « لن أدعو الى وقف الاضراب ولو كان فى ذلك حتفى » ولقد لقى حتفه ، ولكن الاضراب لم يتوقف ·

ان نجاح اضراب عمال البحر فى هنج كنج وعمال الســكك الحديدية بين بيكين وهانكاو واصرار الدول الاوربيــة على رفض تقديم المعونة الى صون يات سن لتعزيز حكومته فى كانتون ، كل هذا دفع صون يات سن لزيادة التقارب مع اليساريين فقد رأى أن الشيوعيين ولو أنهم أقلية الا أنه لا يصح تجاهلهم خصوصا بعد نجاح حركات العمال فى هنج كنج وسكة حـديد بيكين ـ هانكاو ، أضف الى ذلك أن هؤلاء الشيوعيون يحظون بعون مادى وأدبى من الكومنترن (الدولى الثـالث) ولما رأى شيانج كاى شيك أن صون يات سن ينزلق الى « الهـاوية الحمراء » أخذ يعجل باعادة تنظيم الكومنتانج بتطبيق الاســاليب التى اتبعها الشيوعيون منذ قيام الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، وأقنع الدكتور صون يات سن بأن يجتمع مع ممثل روسيا ، أدولف جوفا فى مدينـة شنغهاى وأن يحصل منه على تعهد بأن الاتحاد السوفيتى لن يقحم نفسه فى السياسة الداخلية للصين · كذلك عمد شيانج كاى شيك الى اقناع جوفا باصدار بيان بان الشيوعية « غير ملائمة للصين » كما حصل منه على وعد بمعونة سوفيتية للكومنتانج بصفته الحزب الذى يمثل الحكومة الحقيقية للثورة الصينية » وفى مقابل ذلك يفتح الباب أمام الشيوعيين للانضمام الى الكومنتانج وتسند اليهم المناصب بصفتهم أعضاء فى الحزب ويختار منهم المنظمون السياسيون والضباط وقد أثارت هذه الشروط قلق كاى شيك ولكنه لم يستطع معارضتها ، لا بل ان جوفا دعاه للسفر الى موسكو لدراسة طرق تنظيم الحزب الشيوعى الروسى وخاصة الطريقة التى بها تم تحويل الجيش الاحمر الى وحدة لمناهضة الثورة » وذلك بتوجيه الجهاز الحزبى نفسه ·

ولما ذهب ماوتسى تونج الى كانتون فى يونيو ١٩٢٣ وجد أن الكومنتانج أصبح صورة طبق الأصل من الحزب الشيوعى ، وأعلن صون يات سن ليلة عقد المؤتمر السنوى للحزب أن سياسته تتضمن التحالف مع الاتحـاد السوفيتى والتعاون مع الحزب الشيوعى وتقديم المساعدة للعمال والفلاحين ·

وفى اكتوبر ١٩٢٣ عاد كاى شيك من موسكو متوثبا وأعلن عزمه على انشاء أكاديمية عسكرية ، مما بعث الحزن فى نفس ماوتسى تونج وغـيره من زعماء الشيوعيين فى الصين · وأصبح كاى شيك مديرا للكلية ، وكانت مهمته تدريب فرق الهجوم على محاربة الدكتاتوريين العسكريين فى الشمال وتحرير البلاد وتوحيدها طبقا للمبادىء الديموقراطية ·

ولقد أحسن الدكتور صون استقبال كاى شيك عند عودته من موسكو ولكنه ألح الى أنه ينبغى أن يضم مجلس ادارة الكلية العسكرية بعض الشيوعيين البارزين وحجته فى ذلك أنه اذا استبعدهم كاى شيك فقد يعمدون الى انشاء كلية خاصة بهم · وافق كاى شيك على هذا الاقتراح ودعا « العناصر المهذبة » من الشيوعيين للانضمام الى مجلس الكلية ، فقبل دعوته شواين لاى وبيه تشيلى ينج ، وكذلك التحق بها كل الشيوعيين البارزين فى الصين حتى

ليقال بحق ان هيئة أركان حرب جيش الصين الشيوعية تلقت تدريبهـا العسكرى على أيدى شيانج كاى شيك ٠

وفى يناير ١٩٢٤ اجتمعت أول لجنـة مشتركة تضم ممثلين للحزب الشيوعى والكومنتانج في مدينة كانتون لبحث تكوين «جبهة شعبية» ضد الحكومة العسكرية في الشمال ٠ واشترك ماوتسى تونج فى الاجتمـاع باعتباره رئيس رابطة الشباب الاشتراكى ٠ وبعد مضى أسبوع من المساومات العنيفة بين الشيوعيين والكومنتانج اتخذ المجتمعون قرارا أطلق عليه اسم «بيان أول مؤتمر وطنى للكومنتانج» ٠

وكانت «الجبهة الشعبية» فى نظر الشيوعيين قبولا لسياسة مناهضة النفوذ الاستعمارى والاقطاع ، وموافقته على مبدأ انضمام أعضـاء الحزب الشيوعى وأعضاءرابطة الشباب الاشتراكى الىالكومنتانج بصفتهم الشخصية واستهدافا لتحويل الكومنتانج الى رابطة ثورية حقيقية بين العمال وصغـار البورجوازيين وكذلك البورجوازية الوطنية٠ وبهذه الطريقة يستطيع الحزب الشيوعى تطعيم الثورة بدم جديد ٠ وكان اتجاه ماوتسى تونج وشواين لاى هو اتاحة الفرصة أمام العناصر الشيوعية للتسرب الى صفوف الكومنتانج حتى اذا حان وقت العمل أمكن القيام بحركة تطهير للكومنتانج من غـير الشيوعيين واطلاق اسم جديد عليه ٠

وقد أسر كان شـيك الى صهره سـونج أنه بموافقتـه عـلى ادخال الشيوعيين فى عضوية الكومنتانج يستطيع أن يراقب اتجاهاتهم الفكرية ويستغل جهودهم ويقوم بحركة تطهير عندما يحين حينها ٠

فى هذا الجو المشحون بالخداع الباسم بدات الحملة لتوحيد الصين ٠ أصبح من المألوف قيام المظاهرات وتقديم الاحتجاجات والزحف الشـامل لتقديمالمطالب والدعاية المعادية لبريطانيا ٠ وقد أفزع هذا النشاط الوطنى الجالية البريطانية فى كانتون فانشأت لها حرسا خاصا فى اكتوبر ١٩٢٤ ، وأطلقت عليه اسم «قوات المتطوعين من تجار كانتون» ٠ وقد اسـتطاع المتطوعون اقناع الجيشالخاص الذى يقودهالدكتاتور العسكرى المحلىتشن ليم ـ باك بالقيام بثورة هدفها القضاء على الكومنتانج واغتيال صون يات سن ٠ ولم يكن لدى الثوار مايحلونه محل حكومة كانتون غير دكتاتورية عسكرية يتولاها تشن نفسه ، ولكنها فى رأيهم افضل من حكومة مشوبة بالتسلل الشيوعى ٠

من الصعب أن نتصور الاضطرابات الهستيريةالتى اصابت القطاعات الاقل استنارة فى المجتمع الاوربى فى أعقاب «الثورة الروسية٠فقدانتشرت بين هؤلاء قصص مفزعة تصور امتداد «موجة الدم» وتكهنات بانه فى فترة خمسسنوات سوفيقوم «الحمر» بذبح كل أوربى وهو نائم فى فراشهفلاعجب اذن أن بذلت الجالية الاوربية فى كانتون أقصى ما تستطيع من جهدللقضاء على الكومنتانج فى وضعه الجديد ٠

ولكن حملة تشن ليم ـ بات فشلت وتبددت قواتهاامام الرعيل الأول

من خريجى الأكاديمية العسكرية الذين تلقوا تدريبا قويا على أيدى المدربين الروس .

ولما رأى اليابانيون أن حكومة كانتون أصبحت ألعوبة فى أيدى البريطانيين ، انتهزوا الفرصة للتخلص من حكومة بيكين ، فصبوا الاموال صبا فى أيدى توان تشى ـ جوى ـ أحد الدكتاتوريين العسكريين الذى هزم منذ عامين فى آنهوى وبذلك استطاع توان القضاء على حكومة فنج .

ولكن هذا النصر جاء متأخرا فقد ولى زمن سيطرة الاجانب على الصين عن طريق اقامة دكتاتوريات عسكرية موالية لهم واستطاع الكومنتانج والشيوعيون فيما بينهما انشاء شبكة من الهيئات الثورية فى طول البلاد وعرضها . وما أن جلس توان قليلا على عرش التنين حتى قدم اليه التماس أعده الكومنتانج والشيوعيون لغيابه فى كانتون . وتتلخص مطالب هؤلاء فى اعادة توحيد الصين وانشاء جمعية وطنية . وقد نيطت بماوتسى تونج مهمة تنظيم لجان للمطالبة بتوحيد الصين فى هونان وشنغهاى وشيكيانج وكوانتونج وهوبيه . وكان هذا أمرا هينا على ماو فقد أصبح فى استطاعته الآن اقامة مظاهرات فى جميع أنحاء الصين ، وما على حزبه الا أن يحدد الزمان والمكان وحجم الجمهور الذى يريد الحزب أن يشركه فى المظاهرة .

ولقد بلغت نغمة المطالب الديموقراطية درجة عالية فتحولت الى الى ضجيج صاخب أقض مضجع توان، فبادر بارسال ابن عمه الى كانتون لتوجيه الدعوة الى الدكتور صون يات سن كى يزور العاصمة ويبدأ المفاوضات لاعادة توحيد الجمهورية الصينية .

لم يشعر صون يات سن بارتياح الى فكرة اجراء مفاوضات مع توان، ذلك أن المفاوضة مع توان تعنى فى نظره المفاوضة مع اليابان . ولما كان يخشى أن يستغل الشيوعيون سفره الى العاصمة فينشروا الدعاية ضده فقد نشر قبل مغادرته كانتون بيانا خاصا بالرحلة الى الشمال أعرب فيه عن موقفه الوطنى المتطرف ضد الاستعمار والاقطاع . وأعلن الا مهادنة بينه وبين الأجانب أو بين الصينيين الذين يضعون أنفسهم تحت حماية الأجانب .

اذا كان توان قد تخيل باتخاذه خطوة المفاوضات أن يجعل من صون يات سن رئيسا لجمهورية صورية فقد خاب فاله . ذلك أن صون يات سن وان كانت قد تقدمت به السن ، فقد رفض أى اقتراح يهدف الى تخلى حكومة كانتون عن تحالفها مع الاتحاد السوفيتى فى مقابل حلف مع اليابان كما رفض أى اتفاق لايحقق للصين الوحدة . ظل هو وتوان طوال شتاء ١٩٢٤ـ١٩٢٥ يلجآن مرة الى المساومة وأخرى الى التهديد وثالثة الى الاغراء ولكن لم تسفر اجتماعاتهما عن أية نتيجة . ولقد أنهكت تلك الفترة الطويلة من المفاوضات قوى صون يات سن العجوز ومات فجأة يوم ١٢ من مارس ١٩٢٥ .

لم يكن صون يات سن زعيما عظيما ولكنه ساهم أكثر من أى صينى آخر فى التعجيل بسقوط المانشو ، كما أن تمسكه الشديد بفكرة الحكم

الجمهوری کان ذا أثر قوی علی جمیع الصینیین حتی الشیوعیین الذین کانوا یشکون فی نضجه السیاسی ، وأصبح بعد وفاته شهیدا فی نظرهم • وهنا نقتبس من السجلات الرسمیة لتاریخ الصین مایلی : «ان الحداد الوطنی علی الثائر الدیموقراطی العظیم صون یات سن تحول الی حملة واسعة للدعایة السیاسیه » •

وبعد وفاة صون یات سن اصبح من الواضح ان شیانج کای شیك لن یکون أمامه منافس علی زعامة الکومنتانج • فقد کان کای شیك هوالذی یوجه صون یات سن طوال العامین الأخیرین من حیاته ، کما اتخذ لنفسه منصب الرئیس المؤقت للجنه التنفیذیة المرکزیه عام ١٩٢٥ وظل یشغل هذا المنصب مدة ثلاثة وعشرین عاما •

ولما تولی شیانج کای شیك زعامة الکومنتانج أصبح الحزب الشیوعی الصینی فی موقف حرج ، فقد اشتهر بأنه عدو لدود للشیوعیة ولکنه تلقی جانبا من دراسته فی موسکو وتعلم جمیع الأسالیب الشیوعیة ، وهذا مما یزید الموقف تعقیدا أمام الشیوعیین لانه سوف یدرك ما ینصبون له من شباك • وصار من الواضح أمام ماوتسی تونج أن کای شیك سوف یقضی علی الحزب الشیوعی ان عاجلا أو آجلا ، ولم یسع ماو حین ذاك الا أن یعد نشرة یقرر فیها أن الشیوعیة الصینیة فی خطر ویوحی بحرکة شاملة لزعامة العمال والفلاحین . ولقد قررت سکرتیریة نقابات العمال بدء حملة لاثارة الاضطرابات تتضاءل بجانبها أیة حملة سابقة ، فاخذت المصانع الیابانیة فی شنغهای تطرد کبار العمال وتحل محلهم الصغار ، وتحمل الصینیون هذا الاجراء الیابانی بصبر اذ لم تکن أمامهم وسیلة لمعارضته والا حرمت عائلات بأکملها الحصول علی القوت الضروری •

احتمل الصینیون هذا الاجراء التعسفی وقتا ما ، ولکن فی ١٠ مایو ١٩٢٥ عمد صاحب مصنع یابانی قصیر النظر الی طرد کل عامل کبیر فی مصنعه وأعلن فی زهو أنه من الآن فصاعدا لن یوظف فی مصنعه الا الصبیة الذین لا تزید سنهم علی العاشرة •

وفی ١٤ من مایو وجه الحزب الشیوعی نداء الی جمیع عمال النسیج فی شنغهای للقیام باضراب عام بسبب الطرد الجماعی للغزالین الکبار وتشغیل الصبیة ، وفی الیوم الثانی للاضراب أطلق الحرس الیابانی النار علی منظمی حرکة الاضراب فقتل وأصاب حوالی اثنی عشر منهم • وفی ٣٠ من مایو سار طلبة شنغهای الذین یسیطر علیهم الشیوعیون فی شوارع المدینة یوزعون نشرات احتجاج ضد اطلاق النار علی المضربین بلا تمییز • ولم یکن هذا أمرا جدیدا • فقد جرت العادة من قبل علی أن یطلق البولیس النار علی المتظاهرین ، ولکن مدیر البولیس البریطانی فی شنغهای أساء التصرف فعمد الی القاء القبض علی الطلبة الذین یوزعون المنشورات ، ولما رفض بعض هؤلاء الطلبة الاذعان الی أوامر القبض أطلق البولیس النار علی الجمهور الذی أحاط بهم ، ولم تمض ساعة بعد هذا الحادث حتی کانت المدینة کلها فی هیاج صاخب ،ولم یستطع مدیر البولیس ان یعید النظام الا بعد أن استدعی کل قوات المایشیا المرابطة فی المدینه •وفی أول یونیو

اتصل أعضاء الحزب الشيوعى الصينى برجال الأعمال واصحاب المصانع الصينيين ودعوهم الى اضراب عام من أجل وحدة الصين وضد الأجانب ، وقد نجح هذا الاضراب نجاحا كاملا اذ اشترك فيه كل صينى فى المدينة ، وشكلت لجنة مشتركة من العمال والطلبة ورجال الأعمال للاشراف على الاضراب • ولقد أثارت هذه الحركة فزع السلطات في مدينة شنغهاى فطلبت المساعدة من حاكم هنج كنج • وهنا بذرت السفن الحربية البريطانية واليابانية والأمريكية بالتوجه نحو نهر هوانجهو وانزال قوات بالمدينة ولكن هذا لم يفت فى عضد المضربين ، فقد كانت المدينة جميعها تؤيدهم •

وأخيرا عمدت السفارة البريطانية فى شنغهاى الى تفكيك وحدة الصينيين فاوضحت لرجال الاعمال وأعضاء الجالية التجارية الصينية فى شنغهاى أن تحالفهم مع الشيوعيين أمر مستحيل لتعارض أهداف الطرفين • وقد نجحت المحاولة البريطانية وانسحب هؤلاء من حركة الاضراب • فى أغسطس انتهى الاضراب بزيادة محسوسة فى أجور العمال الصينيين وابطال تشغيل الأطفال ، وكان الشيوعيون قد نظموا اضرابا فى هنج كنج ، اشترك فيه مائة الف من العمال الصينيين لاعلان تضامنهم مع اخوانهم فى شنغهاى ، وعلى الفور أعلن حاكم هنج كنج الأحكام العرفية وأقفل الطريق بين الجزيرة وساحل الصين ، ولكن المضربين لم تعقهم هذه الاجراءات فعبروا الحدود وتدفقوا على مدينة كانتون ، حيث أشتركوا مع زملائهم فى نقابات العمل المحلية وشلوا حركة المدينة • وكانت نتيجة الاضراب الذى قام به عمال هنج كنج أن توقفت الحركة فيها مدة ثلاثة أشهر ، بل ان الاضراب لم ينته الا بعد ستة عشر شهرا وهو يعتبر من أطول الاضرابات فى التاريخ •

ولقد تعلم شيانج كاى شيك أشياء جديدة بالاضافة الى ما تعلمه فى موسكو عن التنظيم الحزبى ، فقد أدرك الآن أن اسهل طريقة تضمن للحزب النمو والتقدم أن يزجى الثناء لكل حركة يقوم بها أعضاؤه لذلك فقد بادر شيانج كاى شيك باصدار نشرة هنأ فيها أعضاء الكومنتانج الذين اشتركوا فى اضرابات هنج كنج وشنغهاى على نجاح حركتهم وذلك على الرغم من أن دورهم فيها كان صغيرا اذا ماقيس بدور الشيوعيين •

أما ماوتسى تونج فقد صمم من جانبه على القيام بحملة دعاية يبين فيها أن الفضل فى نجاح الاضراب يرجع الى الحزب الشيوعى ويعرض بشيانج كاى شيك على اعتبار أنه رجل انتهازى وقح • ولما كان البروفسور تشن يؤمن دائما بأن من الممكن التعاون مع كاى شيك والكومنتانج فقد أثنى ماو عن عزمه وأشار عليه بالعودة الى هونان لاكتساب أنصار جدد للحزب الشيوعى من بين الفلاحين وأن يبتعد عن الكومنتانج •

لقد كان البروفسور تشن مخطئا فى تقديره لموقف شيانج كاى شيك ذلك أن كاى شيك كان يتحين الفرص للتخلص من الشيوعيين ففى عام ١٩٢٥، نظم الحزب الشيوعى والكومنتانج حملة مشتركة ضد تشن تشيونج

ينج الذى أقام دكتاتورية عسكرية فى اقليم كوانتونج • فما دام تشن مسلحا ونشيطا تظل مدينة كانتون معرضة للهيـــاج • وكانت الحملة المشتركة مكونة من الفلاحين يقودهم طلبة الكلية الحربية وبعض المستشارين السوفييت • وقد استطاعت هذه القوة الصغيرة الدقيقة التنظيم ان تشتت قوات تشن الكبيرة وتحتل القسم الشرقى من كوانتونج • وقد ابتهج شيانج كاى شيك بأنباء النصر ولكنه فزع حينما علم أن الشيوعيين بين طلبة الكليه الحربية كانوا يستدعون مندوبيهم السياسيين بعد كل انتصار وينظمون الفلاحين فى جمعيات تعاونية سياسية • لم تتخذ هذه التعاونيات شـكل المزارع الجماعية ولكنها كانت خليطا مغريا من التسويق التعاونى وشراء البذور التعاونية وفرق الدفاع الاقليمى ، ولم يبلغ عام ١٩٢٥ ، نهايته حتى أصبحت جمعيات الفلاحين فى اقليم كوانتونج تضم ســتمائة ألف عضو • •

كان من الصعب على أية هيئة أن تقف من هذا التنظيم الدقيق موقف المنافس • وعلى الرغم من الاتفاق القائم بين الشيوعيين والكومنتانج عـلى تجهيز حملة للقضاء على سيطرة الدكتاتوريين العسكريين فى شمالى الصين فان كاى شيك ماكان ليرضى عن ذلك التنظيم التعاونى الشيوعى الذى قد يحول البلاد بأجمعها الى مثل ماحدث فى اقليم كوانتونج • ولو قبـــل الاشتغال باعداد حملة الشمال فقد تتحول الصين الى الحكم الشيوعى قبل أن تستولى حملة على بيكين وهذا مالايمكن أن يخطر لشيانج كاى شيك على بال • اذا لم يبق أمام كاى شيك الان يطهر الأكاديمية العسكرية من العناصر الشيوعية ثم يبدأ هذا التطهير فى الجيش الذى كان ضباطه مزيجا من أعضا الكومنتانج والشيوعيين •

ولكن كيف السبيل الى هذا التطهير ؟

فى ١٨ من مارس ١٩٢٦ بعث كاى شيك برقية الى لى تشيه ــ لونج وهو شيوعى كان يعمل مديرا للادارة البحرية ، يكلفه ارســـال الطراد تشانجشان الى هوامبوا ، وحينما وصل الطراد الى المكان المقصود أصدر كاى شيك تعليماته فورا الى رجاله باعتقال كل شيوعى بارز فى الكلية العسكرية وكل ضابط شيوعى فى القوات الثورية الوطنية فى المنطقة، وقد حاول تبرير عمله هذا بأن الشيوعيين كانوا يدبرون خطة لاحداث انقلاب بمساعدة الطراد تشانجشان الذى يتولى قيادته ضباط شيوعيون •

كانت حادثة الطراد تشانجشان فى الدوائر الأوربية مجرد أسطورة أما فى الدوائر الصينية فقد أثبتت أن أساليب الخداع والغدر لم تضـــل طريقها • وقد اتبع كاى شيك هذا الحادث باستصدار قرار من اللجنـة المركزية بادخال تحسينات على التنظيم الحزبى للكومنتانج لان الشيوعيين فى رأيه كانوا يستعدون لتولى حكم الصين وعلى ذلك فيجب استبعادهم تدريجيا من عضوية الكامنتانج ثم القضاء عليهم •

وقد تضمن القرار مايلي :ـ

١ ـ قائمة بأسماء الشيوعيين المعتمدين اعضاء فى الكومنتانج تسلم لشيانج كاى شيك نفسه ٠

٢ ـ طرد الشيوعيين من المناصب العليا التي يشغلونها فى الكومنتانج بحيث لا تزيد أنصبتهم من المراكز الحزبية فى أى وقت عن الثلث ٠

٣ ـ تحريم اختيار الشيوعيين لرياسة الادارات المركزية للكومنتانج ٠

وعلق كاى شيك على القرار قائلا ان الوقت لم يحن لقطع العلاقات نهائيا مع الشيوعيين ولكن هذه بداية طيبة وعلى كل فبعد أن يتم غزو شمالى الصين بمساعدة الشيوعيين يصبح من المستطاع حين ذاك الانفصال النهائى عن الشيوعيين دون اراقة دماء ٠

أما الشيوعيون من جانبهم فقد استقبلوا حادث الطراد تشانجشان وقرار الكومنتانج برباطة جاش واعتقد كثير من زعماء الشيوعيين أن حملة الشمال المزمع الشروع فيها فى شهر يوليو لن تؤدى فقط الى توحيد الصين بل الى قيام حكومة شيوعية بها ٠ ولم يهتم هؤلاء الزعماء بما يفعله كاى شيك فى كانتون ولكن بما يجب أن يفعله المنظمون الشيوعيون فى الاقاليم حيث يوجد ملايين الفلاحين ٠

كان القائم على حركة تنظيم الفلاحين فى اقليم هونان هو ماوتسى ـ تونج فقد ترك ادارة الصحيفة لزوجته وشرع فى تنظيم التعاونيات الزراعية بهمة لاتعرف الملل ٠

لقد فر كثير من ملاك الاراضى الى تشاينج شا عاصمة هونان بعد أن انتشر الشغب وعم الاضطراب وأصبحت حياتهم معرضة للخطر ٠ وقد اخذ ماو يجوب الاقليم طولا وعرضا ويحرض الفلاحين على أن يتخذوا من الاجراءات مايستحيل معه عودة الملاك الى أراضيهم وتم ذلك عن طريق بيع الأراضى لمستاجريها فى مزادات صورية ثم أعد أحد أصدقاء ماو من المخامين حجج التمليك الجديدة ٠ ولم تقف الجمعيات التعاونية التى أنشأها ماوتسى تونج موقف المعارضة أمام رغبة الفلاحين الجامحة فى ملكية الأراضى التى يزرعونها وكل ماطلبته منهم هوشراء البذور تعاونيا وبيع الارز تعاونيا مع تحديد سعر البذور والارز مقدما قبل طرحهما فى السوق، وهنا لم ينس ماو أن يذكر الفلاحين بأن الحزب الشيوعى هو الذى فعل ذلك من أجلهم وعليهم ألا ينسوا له هذه اليد ٠ وفى أواخر عام ١٩٢٦ بلغ عدد الفلاحين المشتركين فى تعاونيات ماوتسى تونج أكثر من مليونين ٠

وفى يوليو ١٩٢٦ بدأت حملة الشمال من مدينة كانتون وكانت مجهزة تجهيزا طيبا طبقا للمعايير الصينية كما كان يقودها فئة من شباب الضباط الشيوعيين والبعض الآخر « وطنيون » وهو الاسم الجديد الذى اطلقه أعضاء الكومنتانج على جماعتهم ٠

بدأت الفرقة التى يقودها ييه تنج الشيوعى زحفها على هونان وكان

بيه تنج يتوقع معركة عنيفة خصوصا حول تشانج شا حيث ركز الدكتاتور العسكرى فى تشيهلى قواته ، ولكنه حينما زحف نحو الشمال وجد أن الفلاحين قد نظموا انفسهم فى شكل كتائب من المتطوعين وعلى راس كل كتيبة قائد شيوعى كذلك وجد بيه تنج أن ماوتسى تونج قد نظم وحدات تموينية على طول الطريق وقد كانت هذه الوحدات انفع للحملة من حماسة كتائب الفلاحين الذين كان سلاحهم الفئوس والنبابيت وقد كتب القائد بيه تنج عن الحملة يقول : حققت هذه الحملة نصرا كاملا ولم يكن ذلك راجعا الى شجاعة الجند الذين تحت أمرتى فحسب ولكن الى تلك المقدرة النادرة التى استطاع بها القائد المحلى ماوتسى تونج أن يعبىء العمال والفلاحين فى الاقليم لخدمة الحملة • أما عصابة الدكتاتور العسكرى فلم يتم اندحارها على أيدى الجند فقط بل كان السبب الأصلى فى هزيمتها اتحاد الفلاحين ووقوفهم صفا واحدا بجانب الجند •

أما القوات الرئيسية لحملة الشمال فقدأخذت تتقدم تقدما مطردا ولو انها واجهت بعض المتاعب فاستولت على نانكنج فى مارس ١٩٢٧ وفى شهر مايو أصبح جميع وادى نهر اليانجتسى تحت سيطرتها • ولقد ظل العمال فى المدن الصناعية يواصلون الاضراب طوال عهد الحملة مما أغرق البلاد فى فوضى شاملة واصبح من الصعب على البريطانيين والفرنسيين واليابانيين المقيمين فى الصين أن يدركوا تفسير الحوادث الجارية فى البلاد لقد حدث فى اقليم ووهان وحده أكثر من ثلاثمائة اضراب فىالفترة من آكتوبر١٩٢٦الى يناير ١٩٢٧ وفى ٣ من يناير١٩٢٧دخلت القواتالوطنية ووهان وحدث أول صدامبينها وبين الحامية البريطانية• وأدرك البريطانيون أن مايواجهونه ليس واحدامن تلك الجماعات المشاغبة التى اعتادوا مواجهتها وتشتيتها وانما هى قوة مسلحة حسنة التدريب فاضطروا الى عقد هدنة دائمة مع اللجنة الوطنية فى ووهان • ولم تكن هذه الهدنة مجرد اتفاق لوقف اطلاق النار ولكنها تجاوزت ذلك بكثير ، ذلك أن البريطانيين وافقوا على التنازل عن حقوق الامتياز التى لهم فى المنطقة فى مقابل ضمان سلامة أرواحهم وممتلكاتهم ، ولقد كان نزول البريطانيين عن حقوق الامتياز فى هانكاو وكنكيانج أول اعتراف منالدول الأوربية بانالصينيين مصممون وقادرون على اعادة «تنظيم البيت» وفى فبراير١٩٢٧دخلت القواتالوطنية مدينة هانجشو حيث استقبلتها الحكومة الشيوعية المحلية بالترحيب وفى شنغهاى نظم الفرع المحلى للحزب الشيوعى الصينى اضرابات ظلت قائمة حتى وصلت القوات الوطنية أبواب المدينة •

هكذا تحقق نجاح الحملة فهزت قوات الدكتاتوربين العسكريين وأخضعت الجاليات الاجنبية لاشراف صينى • ولننقل هنا تعليقا للسفير البريطانى على الموقف اذ يقول : ليس أمامنا الآن الا أمل وحيد يبعث على التفاؤل ، ذلك هو أن يدب الخلاف بين الصينيين وتتفرق كلمتهم •

كان يشارك السفير البريطانى فى الرأى شيانج كاى شيك ذلك أنه على الرغم من ابتهاجه بنجاح حملة الشمال التى كان هو قائدها الأسمى فقد أفزعه مارآه من نفوذ قوى للشيوعيين فى المدن الكبرى وفى أربعة أو خمسة من الأقاليم وادرك أن الوقت قد حان لتسوية حسابه مع هؤلاء الشيوعيين وانه ان لم يبادر بسحقهم فسوف ينقلبون عليه ويعلنون حل

الكومنتانج . وكان من حسن حظ كاى شيك أن البروفســور تشن تو ـ هسيو زعيم الحزب الشيوعى الصينى كان لايزال على رأيه من التعاون بين الشيوعيين والكومنتانج وانه ليس من الصعب اقناع هذا الزعيم الشيوعى باصدار أمره الى القواد الشيوعيين بأن يسلموا ماتحت أمرتهم من قوات الى القيادة العليا الجديدة للكومنتانج . ولما تحقق لشيانج كاى شيك ما أراد من ابعاد الجند مؤقتا عن ميدان المعركة بينه وبين الشيوعيين ركز جهوده فى القضاء على الشيوعيين المدنيين .

اتبع كاى شيك سياســة مكيافللية فأغرى بعض مثيرى الشـغب المحترفين بتحدى الشيوعيين المنوط بهم مراقبة تنفيذ اضراب عمال المصانع فى شنغهاى ولما ضاق هؤلاء المراقبون بمثيرى الشغب أطلقوا النار فى الهواء فانتهز كاى شيك الفرصة وأصدر أمره بتجريدهم من السلاح وتسليمه للبوليس باسم الأمن والنظام . وفى اليوم التالى لحادث تسليم الأسلحة عقد العمال اجتماعا عاما ثم زحفوا على مقر القيادة العامة للقوات الوطنية للمطالبة برد السلاح . ولم يسع كاى شيك الا أن يصدر أمره الى الحرس باطلاق النار عليهم بحجة المحافظة على النظام ، وفى أقل من ساعة قتل من العمال المتظاهرين مالا يقل عن ألف .

الحرب الاهلية فى الصين بين الشيوعيين والكومنتانج

كانت الحوادث التى أعقبت يوم ١٢ ابريل عام ١٩٢٧ بداية الحرب الاهليه بين الكومنتانج والشيوعيين ، تلك الحرب التى ظلت مشتعلة لايخبو لها أوار الى مايقرب من عشرين عاما .

ولقد أدرك شـيانج كاى شيـك أن أنبـاء تجـريد مراقبى الاضراب الشيوعيين من سلاحهم سوف تبلغ الى المكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى وان الحزب سوف يضع حدا للتعاون مع الكومنتانج بوجه عام ومع كاى شيك بنوع أخص وذلك على الرغم مما قد يقدمه البروفسور من نصح ومن هنا لم يشأ الانتظار حتى يثأر الشيوعيون لانفسهم فأصدر أمرا عاما بالقاء القبض على كل عضو فى الحزب الشيوعى الصينى فى جميع أنحـاء البلاد ، ثم نقل عاصمته الى نانكنج حتى يكون فى مركز وسط لاجراء عملية التطهير .

وقد رد المكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى عاجلا على اجراءات كاى شيك التى بلغته فورا من أصدقائه فى الكومنتانج . قرر الشيوعيون اقامة حكومة الصين الحقيقية فاتصلوا أولا بوانج تشنج ويى الحـاكم المحلى من قبل الكومنتانج وأفهموه أنه أعظم كفاية من شيانج كاى شيك وأنهم يرحبون بالتعاون معه . ولم يكن وانج فى حاجة الى أكثر من ايماءة للتنكر الى شيانج كاى شيك رسميا من الحزب واعلان ووهان عاصمة للصين وكذلك اختيار وانج رئيسا مؤقتا للجمهورية الجديدة .

ولكن النجاح الذى حققه الشيوعيون كان قصير الاجل ، ذلك أن

الجانب الاكبر من الصين كان تحت سيطرة كاى شيك الذى نجح فى الحملة التى شنها على الشيوعيين فى أرجاء البلاد .

استطاع كاى شيك أن يعيد وانج الى حظيرة الكومنتانج . أما الشيوعيون فى ووهان فقد لقوا حتفهم شأنهم فى ذلك شأن زملائهم فى كل مكان آخر فى الصين .

ولقد بلغت ماوتسى تونج فى هونان انباء المذابح التى اقامها كاى شيك للشيوعيين ولكنه لم يعبأ بها لاطمئنانه الى قوة مركز الحزب الشيوعى فى هونان وهكذا أمضى هو وزوجته صيفا سعيدا واعتقد أخيرا ان هونان سوف تكون المركز الرئيسى للثورة الشيوعيه .

وبينما ماوتسى تونج ينعم بحياته الهادئة فى تشانج شا عاصمة هونان اذ به فى احدى ليالى أغسطس ١٩٢٧ يسمع فجاة انباء اشتعال النار فى المدينه وطلقات البنادق والمدافع السريعة يتردد صداها فى كل زاوية وركن وصيحات الرجال وصراخ النساء يتعالى وقد سحبوا على وجوههم سحبا الى الشوارع وقطعت رءوسهم أو اطلقت عليهم النار ، ذلك أن نحو سبعة آلاف من خيرة جنود شيانج كاى شيك استطاعوا التسلل الى المدينة وبدءوا المذبحه . فر هو وزوجته الى دار صديق ولما تلقيا أنباء مذابح ووهان ورأيا أن الصين كلها أصبحت الآن فى قبضة شيانج كاى شيك وجدا أن وسيلة النجاة الوحيدة أمامهما هى الفرار جنوبا الى هونان أو شمالا الى الاتحاد السوفيتى .

تردد ماوتسى تونج فى الفرار لاعتقاده ان شيانج كاى شيك لم يبلغ من القوة ومن التغلب على كل أجهزة الحزب الشيوعى ماصوره له أصدقاوه وقرر أن يقوم بجولته فى المدينة عله يستثير العمال أو منظمات الفلاحين ضد زعيم العصابات « شيانج كاى شيك » ، ولما أصرت زوجته على اصطحابه خرجا معا تحت جنح الظلام يتلمسان سبيلا الى دور الاصدقاء وهنا أدرك أن ما سمعه كان قليلا بجانب ما شهده . لم يكن هناك أى مظهر من مظاهر المقاومة فقد أصدر البروفيسور تشن تو - باسم المكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى بأن على جميع أعضاء الحزب أن يضعوا السلاح ويتعاونوا تعاونا كاملا مع حكومه الصين الشرعيه تحت رياسة شيانج كاى شيك .

كان ذلك الامر الصادر من تشن محوطا بالغموض ولذلك فانه فى يوم أول أغسطس اجتمع بعض أعضاء الحزب الشيوعى فى نانتشانج تحت زعامة شواين لاى وقرروا تجاهل التعليمات الصادرة اليهم ونظموا حركة ثورية كبيرة قوامها الفلاحون فى مقاطعة كيانجسى واستطاعوا أن يكونوا من هؤلاء الفلاحين نواة أول جيش شيوعى صينى ولا تزال الصين تحتفل بيوم أول أغسطس باعتباره « يوم الجيش » .

لكن ماوتسى تونج لم يسمع بهذا النصر الجديد الذى أحرزه شواين لاى فى اقليم كيانجسى ، وأخذ يطوف بانحاء المدينة هو وزوجته بين طلقات النار وصراخ الضحايا وأخيرا وقع ماو وزوجته أسيرين فى أيدى رجال الكومنتانج .

أراد قائد الفصيلة التى أسرتهما أن يقتلهما ولكن بعض رجاله ، وقد كان يعرف ماوتسى تونج أشار على الضابط بالاحتفاظ به حيا وهكذا نقل ماوتسى تونج الى احدى الثكنات وبدأ استجوابه وأخيرا ألقى به فى السجن بعيدا عن زوجته .

استطاع ماو بعد عناء ان يهرب من سجنه ويتخذ سبيله الى الحقول المجاورة طلبا للنجاة . وفى الصباح الباكر حينما كان فى مخبئه فى الحقول شهد موكبا يسير الهوينى متجها نحو أعمدة استخدمت كمشانق على حافة الحقل . وشهد زوجته تنتحب بين الصفوف السائرة الى مصيرها المخيف ، ثم رآها بعد ذلك مشدودة الى أحد أعمدة الموت ، وأخيرا شاهد جسما مدلى من حبل المشنقة وهو يتأرجح على جوانب العمود .

اخذ ماوتسى تونج ينتحب ويصب لعناته صبا على أولئك القساة الذين مثلوا بزوجته ، ولما أرخى الليل سدوله زحف الى حيث توجد جثة زوجته فودعها الوداع الاخير .

ولما رأى نفسه وحيدا وسط العاصفة التى حطمت حياته ودمرت حزبه فر الى المرتفعات القائمة فى منطقة الحدود بين اقليمى كيانجسى وهونان .

وفى طريقه الى منطقه الحدود برح به الحزن والاسى فسطر هذه الابيات التى تفيض هما وشجنا ومرارة :

قطعت يدى على حبال المشنقة .

فلم تخرج نقطة دم واحدة من عروقى .

وبدلا من الدم شاهدت الحنان والرأفة ينتزعان من بين جنبى .

الفصل الخامس

اذا ما عدنا بالذاكرة الى الماضى وألقينا نظرة بعيدة عن الانحياز الى سلوك كل من اشترك فى الثورة الصينية الثانية (١٩٢٦ – ١٩٢٧) فلن يدهشنا أن نلمس الغباوة وسوء التصرف من هؤلاء جميعا باستثناء شيانج كاى شيك .

فبغض النظر عما قيل فى كاى شيك من أنه زعيم عصابات لا ضمير له ، فما من شك فى أن هذا الرجل كان وطنيا مخلصا شعر بما تعرضت له بلاده من خزى وعار وما كانت عليه زراعتها وصناعتها من تخلف واضطراب وما وصلت اليه من انحطاط وهوان فى نظر الدول الغربية التى ثبتت أقدامها على أرض الصين . أثار سخطه وجود قوات أجنبية بصفة حرس فى مناطق الامتياز على طول سواحل الصين ، على الرغم من مزاعم الدول الغربية بأن لوجود هذه القوات ما يبرره . كذلك اعتقد شيانج كاى شيك أن وجود الدكتاتوريين العسكريين ظاهرة خطيرة منافية لروح عصره وأنها أكبر عقبة فى سبيل التقدم نحو الوحدة الصينية ، وما دام الامر كذلك فلا بد من التخلص من الاجانب ومن الدكتاتوريين .

واعتقد كاى شيك أنه اذا ما تخلص من هذين الخطرين وأصبح الجو مهيأ لانشاء دولة صينية حديثة ، فسوف يكون هو المهندس الأكبر المشرف على تخطيط الدولة الناشئة .

كان شيانج كاى شيك يكره الشيوعيين للسبب الذى من أجله يكره البريطانيين كانت الشيوعية فى نظره عقيدة أجنبية مثل فكرة العدالة والقوانين التى حاول البريطانيون ادخالها على المجتمع الصينى،وقد أثبتت له حوادث ١٩١١ أن محاولة انشاء حكم برلمانى على النمط البريطانى مصيرها الفشل لسبب بسيط وهو أنها نظام بريطانى مستورد للشعب الصينى ، أما ادخال النظم الديموقراطية البريطانية فى الصين فهو بدوره سوف يجعل الصين على درجة من التبعية لبريطانيا ومثلها فى ذلك مثل خادم يشعر بتبعيته لسيده بمجرد أن يلبس ما خلعه عليه هذا السيد من ثيابه ، هكذا رأى كاى شيك فى الشيوعيه المستوردة من روسيا أو بالاحرى من ألمانيا شرا أجنبيا لا يقل خطره عن الديموقراطيه البرلمانية الغربية ولكن لا ننسى من ناحية أخرى ان شيانج كاى شيك قد ولد وفى دمه نزعة دكتاتورية ، كأنه صورة أخرى لموسولينى أو هتلر . وقر فى ذهنه أنه هو الرجل الذى سوف يحقق مايجب تحقيقه ، ولما كان القلق والضجر يدفعان الى النزعة الدكتاتورية أكثر من شهوة السيطرة فان كاى شيك كان لديه منهما الكثير ولذلك نجده

في فترة انتصاره على الشيوعيين وقد أفقدته نشوة النصر عنـاصر الاتزان وخيل اليه انه القادر على كل شيء فانحدر الى الهوة السحيقة بالسرعة التى تردى بها بل من موسولينى وهتلر • ركب الشيطان رأسه فعمد الى القتل والاغتيـــال ورفع المشانق واقامة المذابح ولن يستطيع تبرير موقفه بان مافعله صدر عن نوايا طيبة فقد كان كل ما يفعله طيبا مادام هو مصـــدره ولعل مادفعه الى الاسترسال فى الغواية والضلال هو ماركب فى طبيعته من حب السيطرة وكذلك ماأثارته تصرفات منافسيه داخل الصين وخارجها •

لم تقدم الدول الغربيه أى عون لشيانج كاى شيك فى بداية المعركة خاصة وقد كانت تتلقى أنبـــاء خاطئة عن سير الحوادث عامى ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، فحينما بلغت اضطرابات شنغهاى غايتها من السوء ، أمضى ستانلى بولدوين رئيس وزراء بريطانيا ساعة فى وزارة الخارجية البريطانية للبحث فى موضوع « الموقف فى الشرق الاقصى » ولم يكن بين النواب المحافظين فى بريطانيا الذين لهم مصالح فى الصين الا فئة قليلة تدرك أن شنغهاى عام ١٩٢٧ قد تصير الى ما صارت اليه بطرسبورج (بتروجراد أو ليننجراد فيما بعد) عام ١٩١٧ ، وأن هناك مقدمات لثورة حمراء عارمة ســـوف تكتسح الشرق الاقصى بأكمله •

ويقال ان بولدوين بعد أن قرأ التقارير الواردة من شنغهاى وكانتون اتجه نحو خريطة للصين معلقة فى مكتب وزير الخارجية البريطانية وبعـد أن ألقى نظرة على الخريطة صاح قائلا « عجبا ، كنت أظن مدينة كانتون فى شمالى الصين فاذا هى فى جنوبيه » وكان بجانبه وزير خارجيته أوستن تشمبرلين الذى اضاف قائلا :

« لابد أنك تعلم ان الصين أكبر بكثير من اليابان » •

وانما أسوق لك هذا حتى لا تدهش اذا علمت أن بريطانيا أساءت فهم الثورة الصينية كما اساءت تقديرها سواء بسواء . ولقد اتبعت بريطانيا سياستها التقليدية فحملت سفنها الحربية بالجنود ووجهتها الى الموانى الصينية بما فيها شنغهاى ولكنها وجدت أن من الخير ألا تتورط فى أى اجراء عسكرى ، ذلك أن السفير البريطانى الذى ابتهج بالشقاق بين كاى شيك والشيوعيين فضل الترقب والانتظار على أمل انتهاز الفرصة المواتية، ومادرى « سعادته » ان هذا الشقاق أصبح من مشكلات الصين الداخلية المحضة ولا شأن للأجانب به •

بدء العلاقات بين أمريكا وشيانج كاى شيك : ـ

لقد اندلع لهيب الثورة الصينية وعقد الصينيون الخناصر على ألا يلقوا السلاح حتى يخرج آخر أجنبى من بلادهم وتستعيد عزتها وكرامتها ، ولايهم فى هذا المجال الى من تسند زعامة الثورة وانما المهم هو أن تحقق هدفها •

كان الامريكيون فى البداية على شيء من حسن الادراك فاعتقدوا أنهم يستطيعون السير فى ركب الثورة بشرط ألا تكون زعامتهـــا شيوعية وبذلك يحققون مايصبون اليه من كسب مادى ، كذلك لم يجدوا حرجا فى أن يكونوا بالنسبه لهذه الثورة من العاطفين وان لم يـكونوا من المؤيدين • وهـم فى ذلك قد تجنبوا ماوقع فيه الانجليز من خطأ بالابتعاد عن شيانج كاى شيك على اعتبار أنه «شيوعى كالآخرين» وأدركت غالبيه هؤلاء الامريكيين أن شيانج كاى شيك هو أمل الأجانب الوحيد فى البقاء فى الصين لفترة قصيرة وليس من المستبعد أن تطول هذه الفترة • هكذا بدأت أمريكا بدهاء تقدم المعونة لمنكوبى المجاعة فى الصين وترسم خطط التنظيم الزراعى • وكلما تقدم شيانج كاى شـيك خطوة الى الامام فى القضاء على الشيوعيين وحل اتحادات الفلاحين ، زوده الامريكيون المستنيـرون بمشروعات جـديدة للتعاون على أســس غير شيوعية •

واذا كانت المشروعات الامريكية لم يقدر لهـــا النجاح فان لذلك سببين: أولهما أن أمريكا قدمت المشروعات دون أن تقدم المال اللازم لتنفيذها ولم يكن هذا المال متوافرا لدى كاى شيك ، والسبب الثانى هو أن كاى شيك نفسه لم يوجه للفلاحين اهتماما كبيرا وهو فى ذلك عـلى طرفى نقيض مـع ماوتسى تونج •

لم تنتبه أمريكا لخطئها فى الاحجام عن تقديم معونة مادية كبرى لشيانج كاى شيك الا بعد عشرين عاما ، وهى فى هذا تقامر على جواد خاسر • وفى عام ١٩٢٧ كانت كفه كاى شيك راجحه وفى استطاعته أن يقضى نهائيا على الشيوعيين ومنظماتهم فى الصين لأن الحزب الشيوعى الصينى فى ذلك الحين كان متمسكا بالمذهبية الماركسية اللينينية ، يتلقى التعليمات من موسكو وينفذها مهما يكن فيها من غباوة • وكان الرأى فى موسكو هو ان الثورة الشيوعية ضرب من العبث اذا لم تقم على تحالف بين العمال والطبقة المستنيرة أما الفلاحون فلا أهمية لهم فى الحركه الثورية وليسوا الا المطية التى تنتقل عليها الحركة فى مراحل تقدمها المختلفة ، وغاب عن ادراك موسكو ان سر نجاح الثورة الحمراء فى الصين ليس فى أيدى هؤلاء العمال وانما هو فى أيدى الفلاحين كذلك غاب عن ادراك موسكو أن الفلاحين الصينيين كان فى استطاعتهم فتح باب الثورة على مصراعيه عام ١٩٢٧ بقليل من المساعدة وشيء من قوة الدفع •

لذلك نجد موسكو تصدر تعليماتها الى البروفسور تشن بان يـسلم زمام الأمور الى الكومنتانج بدلا من أن يتقدم الصفوف ويتولى السلطة باسم الحزب الشيوعى ، اعتقادا منها بأن الوقت لم يحن بعد لاستيلاء الشيوعيين على السلطة وأنهم يستطيعون هدم الكومنتانج باســتمرار التســلل الى صفوفه •

ولكن مشورة موسكو على تشن بالتسليم للكومنتانج أتاحت الفرصه أمام شيانج كاى شيك ليبدأ مذابح الشـيوعيين وكان الحزب الشـيوعى

السوفيتى بذلك اشار على زميله الصينى بالانتحار . وهذا مالا ينساه الأحياء الذين عاصروا ماوتسى تونج فى أثناء الحوادث الرهيبه . ولما انهارت حكومه ووهان وبدات مذابح الشيوعيين أصدرت موسكو تعليمات جديدة الى شيوعيى الصين بأن « يقاتلوا حتى الموت فى كل شارع » وهكذا تقع موسكو فى الخطأ للمرة الثانية اذ يفوتها ادراك أن قوة الشيوعيين الحقيقية ليست فى المدن وانما هى خارج المدن ، وكان من نتيجة هذه الاخطاء أن تأخرت ثورة الصين النهائية عشرين عاما اخرى .

حينما سمع ماوتسى تونج أنباء التعليمات الجديدة التى أصدرتها موسكو الى الحزب الشيوعى الصينى دق رأسه بكلتا يديه ساخطا على هذا التصرف الاحمق . كيف لا وقد ظل منذ شبابه ينادى بأن الثورة الصينية يجب أن تخرج من « حقل الأرز » لا من « المصنع » ، وليس أمام الحزب الشيوعى من أمل فى كسب معركة ١٩٢٦ — ١٩٢٧ ضد الكومنتانج الا أن يقنع الفلاحين بالقيام بثورة عارمة ، ولذلك اتصل بكل من شواين — لاى وتشوهتيه قائد الجيش الأحمر الأول فأشار على شواين لاى بأن يصدر أوامره الى الجيش بالزحف على هونان بأسرع ما يمكن . ذلك أن عمال تشانج شا وقفوا ينتظرون مايفعله الشيوعيون للانتقام لأنفسهم ممن أقاموا مذابح ١٠ أغسطس حتى اذا ما أنسوا من هؤلاء القوة انضموا اليهم . أما الفلاحون فى اقليم هونان فكانوا فى انتظار ظهور ماوتسى تونج مرة أخرى ليقضى على البقيه الباقية من ملاك الاراضى ويقسمها بينهم .

ذهب شواين لاى وتشوتيه الى رئيس اللجنة السياسية المركزية للحزب الشيوعى الصينى وطلبا منه الاذن بالزحف على هونان فرفض معتذرا بأن موسكو لم تصدر بعد تعليمات باشراك الفلاحين فى الثورة ، وأن دور الفلاحين سوف يجىء فيما بعد حينما يستولى العمال على السلطة .

لم يقبل شواين — لاى وتشوتيه اعتذار رئيس اللجنة المركزية فزحفا بقواتهما على تشانج شا عاصمة اقليم هونان ولكنهما منيا بالهزيمة وهنا فر تشوتيه من المعركة ثم التقى بماوتسى تونج معتصما بالجبال مع آلف من الاشداء من أبناء اقليم هونان . وفى أكتوبر سنة ١٩٢٧ رفع كل من ماوتسى — تونج وتشوتيه العلم الأحمر على مابقى من الصين خارج نفوذ الكومنتانج . وتعتبر اليوم قمة جبل تشنج كانجشا ملتقى ماو وتشو مصدر الهام للفنانين الصينيين من رسامين وحفارين وشعراء .

نعود الى شيانج كاى شيك فنجده مطمئنا الى موقفه بعد أن قضى على فلول الشيوعيين وبعد أن جاءته التقارير من مساعديه فى جنوبى الصين ووسطها بأن الكومنتانج مسيطر على المنطقتين ، وبعد أن أعلن العمال فى المدن الكبرى ولاءهم وتأييدهم « للحزب الوطنى » وفضلا عن ذلك كله فقد كان مطمئنا الى اخلاص الطبقة المتعلمة ، أما التجار ورجال الأعمال فقد انحازوا اليه لانه تعهد بحماية ممتلكاتهم من التاميم على أيدى الشيوعيين أو الاستغلال على أيدى الاجانب .

لما انس شيانج كاى شيك من نفسه القوة شرع يستعد لحملة نهائيه يخضع بها جميع الصين الى سيطرته • ففي الشمال استطاعت قواته تعقب الدكتاتوريين العسكريين الذين كانوا يعملون بتأييد من اليابان ، وفى ١٩٢٨ سقطت بيكين فى أيدى قوات الكومنتانج بعد أن قضى اليابانيـون على آخر دكتاتور وهو نشانج تسولينى اذ لم تعد لهم مصلحه فى بقائه حيا • ولما استتب الأمر لشيانج كاى شيك فى جميع أنحاء الصين ظلت البلاد عامين كاملين تنتظر من « القائد الأعلى » أن يفى بوعوده وقبل أن يشرع كاى شيك فى اية اصلاحات داخلية توجه الى أرواح سلف أسرة منج الامبراطورية معلنا أنه سوف ينقل العاصمه من بيكين الى نانكين فى مكان متوسط فى الصين وعلى بعد من غزوات اليابانيين ، وفى ذلك الوقت اعترفت الدول الغربيـة بحكومته وتبادلت معه السفراء •

بدا أولا كان كاى شيك يسير قدما نحو تحقيق ماوعد به فوافقت كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة على الدخول فى مفاوضات معه لانهاء امتيازاتها الخاصه فى الصين، وفعلا أخلت الدول الثلاث بعض مستعمراتها فى الصين ووضعت جانبا آخر منها تحت ادارة مشتركة • وهنا بدأت وزارة الخارجية الصينية تطالب بقوة بان تعود السيادة الصينية الكاملة فورا الى المؤسسات الدولية فى شنغهاى وهنج كنج ووای های وای ، ولم يسـع الطبقات المتعلمة والتجار والعمال الا أن يهتفوا بحياة شيانج كاى شيك •

ولم يقف كاى شيك عند هذا الحد ففتحت مدارس جديدة وشقت الطرق ومدت السكك الحديدية وأخذ فى اعداد دستور للصين الجـديدة ، وهكذا استتب الأمن واستقر النظام فى الصـين من بكين الى كانتون ،

ولكن هناك فوق قمم جبـال تشـنج كانجشان جلس ماوتسى تونج وتشوتيه يحللان الموقف ويبحثان عن سبب فشلهما فى السيطرة على الثورة على حين نجح شيانج كاى شيك • وبعد اعمال الفكر استقر رايهما على أن فشلهما يرجع الى موسكو ، وهنا وضعا « بيانهما الشيوعى الخاص » يعارضان به البيان الشيوعى الذى أصـدره كارل ماركسى وفردريك انجلز عام ١٩٤٨ وينص بيانهما على مايلى : ـ

تجاهل المدن ـ قاتل فى الريف ـ الفلاحون أولا ـ العمال ثانيا ـ أصلح الارض وامتلكها ـ اترك المصانع وشأنها ـ جند جيشا أحمر جديدا من الفلاحين ـ عش فى الريف حتى تكتمل ثورة الفلاحين نضجها •

هكذا شرع ماوتسى تونج وتشوتيه فى العمل لتجنيد الفلاحين للعمل والقتال فبدا أولا بانشـاء مزارع جماعية وجمعيات تعاونية نموذجية فى المناطق الجبلية ، وكانا يهبطان الى الوديان من وقت لآخر لينشرا الدعوة ويقتلا ملاك الارض ، وكان لابد أن يثير نشاطهما الانتباه فتقاطر الفلاحون للانضمام الى صفوفهما اذ كان يكفى الفلاح وجود أية هيئة معادية لملاك الارض فينضم اليها • أما الطبقة المتعلمه فقد تجنبت ماوتسى تونج فى البـداية لانها اعتبرته فلاحا همجيا مثل زعيم ثورة تاى بيه وهذا مما أخر التضامن بين الطبقة المتعلمة والفلاحين ، ذلك التضامن الذى حقق لماوتسى تونج النجاح فى النهاية .

ولقد فزع الروس عندما بلغتهم أنباء زعيم العصابات الشاب (ماوتسى تونج) الذى كان يضع الفلاحين فى المقام الأول بدلا من العمال متخذا شعار الحزب الشيوعى ستارا له ، ولذلك أصدرت موسكو تعليماتها بطرد ماوتسى تونج من عضوية اللجنة المركزيه للحزب الشيوعى الصينى وأصرت على أن يقدم اعتذارا عن سلوكه الخاطىء ، ولكن ماو رفض تقديم هذا الاعتذار . وفى سنة ١٩٢٩ تقرر طرد ماوتسى تونج من الحزب الشيوعى الصينى وهذه تعتبر من أكبر أخطاء الكومنترن .

لم يهتم ماو بقرار الطرد كما أن أصدقاءه لم يعترفوا بهذا القرار ، ولم يكن ذلك منهم عدم اكتراث بالمكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى أو الحزب الشيوعى السوفيتى ولكن لأنهم يرون أن قرار طرد ماو صدر دون حضوره ، وان اللجنة المركزية أصدرت القرار فى كانتون فى حين كان ماو معتصما بالجبال .

لقد نما الجيش الجديد الذى جنده ماوتسى تونــج وتشوتيه وأخذ يغير على المناطق المجاورة من وقت لآخر ليقتل ملاك الأراضى ويحل محلهم مزارع تعاونية تقوم على حراستها حاميات قوية أطلق عليها اسم «القواعد الثورية» .

وفى عام ١٩٢٩ قاد ماو حملة الى جنوبى اقليم كيانجسي وغربى اقليم فوكين حيث أسس القاعدة الثورية الرئيسية . ولم تأت بداية عام ١٩٣٠ حتى كان لديه خمس عشرة قاعدة يقــوم على حراستها جيش أحمر قوامه ستون ألف رجل ، وقد ظلت هذه القواعد الثـــورية نموذجا للتعاون بين الجند والفلاحين حتى تم استسلام الكومنتانج عام ١٩٤٩ .

سمع شيانج كاى شيك انباء هذا الجيش الأحمر بمزيج من الغضب والانكار ذلك أنه كان يعلم بوجود ماوتسى تونــج ولكنه كان يعتبره رجلا خارجا على القانون لا اهمية له ، أما أن يصـبح لدى ماو جيش مكون من ستين الف جندى يؤيدهم مليونان من الفلاحين فهذا أمر يســـتحق اعادة النظر . ومن ناحية أخرى علم شيانج كاى شيك بأن اليابانيين يستعدون لحرب هجومية على منشوريا قد تتطور الى غزو الصين نفسها ، وعليه قبل مواجهة اليابانيين أن يقضى على الشيوعيين أولا . هكذا ترك شيانج كاى شيك اليابانيين يتوغلون داخل أراضى الصين طوال الأعوام الستة التالية بينما هو مشغول بمحاربة الشيوعيين . وقد اجتاحت ثلاث مجاعات متتالية شمالى الاقليم فى هذه الأعوام الستة ولم يستطع كاى شيك تقديم المؤن والاسعافات اللازمة لمنكوبى المجاعة لانهماكه فى قتال الشيوعيين ، أو لأنه كان يأمل اضعاف حكام المناطق الشمالية الغربية للصين حتى لا ينافسوه فى السيطرة على البلاد . ومهما كانت الدوافـــع فان كاى شيك عبأ كل طاقات الاقتصاد الصينى لمحاربة الشيوعيين وتعقبهم فيمـــا تلا ذلك من سنوات حتى دارت عليه الدائرة وخرج هو من الصين مدحورا . ما كان ماوتسى ــ تونج يخشى هجــوما مضادا من الكومنتانج ، فان ما حققه من اعادة تنظيم الانتاج فى المناطق الزراعية التى استطاع الوصول اليهـــا واقامة حاميات بتلك المناطق اكسبت حكومة «العـمال والفلاحين» التى انشأها تأييدا شعبيا واسعا ، فلم يكن بين رجاله طــابور خامس ، ولم

يقتصر الأمر على اشتراك الفلاحين قلبيا فى التجارب الجديدة لملكية الأرض بل ان صغار أصحاب الأعمال وصغار أصحاب المصانع اقبلوا على الانضمام تحت لواء حزبه ٠

لقد الغيت كل الديون والضرائب التى سبق ان التزم بها الفلاحون وصغار المنتجين للحكومة المركزية فى تانكنج وبدأ الجميع علاقات جديدة مع حكومة ماوتسى- تونج ٠ أما من الناحية الاستراتيجية فقدكان معتصما بمنطقة جبلية ولن يستطيع أعظم قواد حرب العصابات عبقرية أن يفتحم عليه عرينه فى الجبال ، فهى سلسلة جدباء وعرة تمتد أكثر من مائة ميل على طول خط الحدود بين اقليمى هونان وكيانجسى وليس بها الا خمسة ممرات ضيقة يلقى المهاجم حتفه اذا عن له محاولة اجتياز هذه الممرات .

ولكن وعورة المنطقة وصعوبه الوصول اليها جعلا مشكلة التموين غاية فى التعقيد ، فالأدوات الطبية تكاد تكون فى حكم العدم ولذلك أخذ ماوتسى تونج يعود نفسه على العلاج بمعجون الأعشاب والمساحيق التى يعدها الفلاحون والتى لا تزال تنافس البنسلين فى الصيدليات فى وقتنا الحاضر ، أما المواد الغذائية فكان ينقلها الحمالون على ظهورهم من أسفل الوادى الى قمم الجبال ، وكل ما يمكن تجفيفه وتمليحه وتسخينه وضع فى المخازن استعدادا لمواجهة حصار محتمل ، واخذ الجنود فى تربية الماعز والخنازير فوق الجبال متحملين الرائحة الكريهة فى سبيل جرعة من اللبن أو شريحة من اللحم بين آونة وأخرى ٠ وبرغم كل هذه المشاق فقد كانت الروح المعنوية عالية والاسلحة على درجة طيبة من الصيانة وان كانت غالبيتها من الصنف العتيق ٠ ولقد بدأ شيانج كاى شيك أولى حملاته لتطويق الثوار فى نوفمبر ١٩٣٠ ، وكانت هذه الحملة تضم مائة الف من الجند الأقوياء ووجهتها القاعدة الثورية المركزية فى جدى تشن أما حامية القاعدة فكان تعدادها أربعين ألفا من الثوار تحت قيادة تشوتيه٠ ولما سمع ماوتسى - تونج بأن قوات كاى شيك تحاصر القاعدة الثورية الرئيسية انتقى تسعة آلاف من خيرة جنده وكون منهم فرقة فدائيين قادها بنفسه وفاجأ بها العدو فاخترق صفوفه تحت جنح الظلام ، ولم يسع جنود كاى شيك التى أذهلتها المفاجأة الا أن تولى الادبار ، وهكذا فشلت حملة التطويق الأولى ٠

وفى فبراير ١٩٣١ ضاعف كاى شيك قواته فى هونان فبلغت مائتى الف وبدأ حملة التطويق الثانية ، ولقد ارتكب جنوده خطأ فاحشا اذ هاجموا الفلاحين فى القاعدة الثورية على اعتبار أنهم متضامنون مع قوات ماوتسى تونج المسلحة ، وهذا الخطأ كلف كاى شيك كثيرا فقد وجدت قواته جيشا غير مسلح من الفلاحين يعترض سبيلها ويرهقها كلما توقفت قليلا لاعادة التنظيم ، ولم ينته شهر ابريل حتى كانت كل منطقة الحدود بين اقليمى كيانجسى وفوكيني فى ثورة صريحة ضد قوات كاى شيك على الرغم من أن هذه القوات لم تكن قد التقت بقوات الثوار حتى ذلك الحين ٠

وفى شهر مايو ظهر ماوتسى تونج بقواته فطارد حملة شيانج كاى شيك التى أنهكها التعب مسافة مائتى ميل فى فترة لا تزيد عن أربعة عشر يوما ٠

ولقد وهنت عزائم جنود كاى شيك وفقدوا روحهم المعنوية فولوا الأدبار متجهين نحو الشرق طلبا للنجاة . ولما بلغت أنبـــاء هذا الاذلال مسامع شيانـــج كاى شيك فى نانكنج اتصـــل من فوره بالمفوضيات البريطانية والألمانية واليابانية واقترح على ممثلى الدول الثـــلاث « القيام بحملة دولية مشتركة للقضاء على الشيوعيين » .

ولكن هؤلاء الممثلين قابلوا اقتراحه بفتـــور ولم يقدموا له الا بعض الخبراء العسكريين الذين لم تشترك غالبيتهم فى حروب العصابات أو فى العمليـــات الحربية فى الجبـــال ، ولا يستثنى من هؤلاء الا المستشار العسكرى البريطانى الذى اكتسب خبرة واسعة فى الحروب الجبلية فى أثناء خدمته بالهند غير أن مخابرات كاى شيك كانت من الضعف بحيث لم يجن أية ثمرة من خبرة هذا الضابط البريطانى .

وفى حمـلة التطويق الثالثة ألقى شـيانج كاى شـيك فى الميـدان بثلاثمائة وعشرين ألف جندى وقد حاولت قواته الهجوم فى جبهة عريضة على طول حدود اقليم كيانجسى ولكنهـا منيت بالهزيمة . وقامت محاولة أخرى للتسلل عبر الممرات الجبلية الى حيث معاقل الثوار فلقى المتسللون مصرعهم ، وبذلت هذه القوات جهودا يائسة فى القتال عنـــد هسنجكو ولكنها ارتدت بعـــد أن خلفت وراءها ثلاثين ألفا من القتلى فى الميدان . وأخيرا يئس شيانج كاى شيك من اخضاع الثوار بالقوة فأخذ يدبر خطة أخرى للقضاء على جمهورية « العمال والفلاحين » المثيرة للسخرية فى نظره التى أنشأها ماوتسى تونج .

وبعد حملة التطويق الثالثة بعث المستشار العسكرى اليابانى للحملة تقريرا الى حكومة طوكيو ينبئهـــا ان قوات شيانج كاى شيك بلغت من العجز درجة لاتستطيع معها التغلب على «عصابات» ماوتسى تونج ، فكيف اذا تعرضت لهجـــوم الجيش اليابانى ، وشجع هـــذا التقرير اليابان فشنت هجوما مفاجئا على الحامية الصينية فى مكدن فى ١٨ من سبتمبر ١٩٣١ ، وكان هذا الهجوم المفاجيء بداية الحرب الصينية اليابانية التى ظلت نيرانها تشتعل طوال أربعة عشر عاما .

ولما بلغت أنباء الهجوم اليابانى مسامع شيانج كاى شيك علق على الحادث قائلا : « لو صح ما سمعت فانى أفضـــل أن يغزو اليـــابانيون الصين بدلا من أن يسيطر عليهـــا الشيوعيون » . وما كان هـــذا التعليق ليحببه الى نفوس مؤيديه من الوطنيين .

وفى ١٩ سبتمبر أصدر أمره الى قواته بأن تقاوم اليابانيين مقاومة صورية ثم تنسحب الى خطوط دفاع قوية فى الجنوب . كان هذا الاجراء سليما من الناحية الاستراتيجية ولكنه كان تصرفا أخرق من النـــاحية السياسية ، فما ان بدأ انسحاب قوات شـــيانج كاى شيك حتى أصدر الحزب الشيوعى الصينى بيانا دعا فيه الى تعبئة الشعب الصينى بأجمعه لمعركة ضد القوى الاستعمارية فى شمال شرقى الصين . وهذه مهـــارة سياسية من الشيوعيين أكسبتهم تقدير الرأى العـــام الصينى وان كانت عديمة الجدوى من الناحية العسكرية لأن أقصى القوات الشيوعية شمالا كانت على بعد مائة ميل من الوحدات اليابانية الزاحفة .

وفى ١٠ من أكتوبر ١٩٣١ أدرك شيانج كاى شيك خطاه السياسى اذ بدأ التصريح الشيوعى يعمل عمله فى نفوس الشعب الصينى فقامت مظاهرات صاخبة فى العيد السنوى العشرين لثـــورة الصينيه « ثورة ١٩١١ » وطالب المتظاهرون فى حماسة بتعبئة القـــوى الشعبية لطرد اليابانيين من البلاد • ولم تكن الدعـــوة الى محاربة اليابان فى هذه المرة مقصورة على منظمات العمال التى يحركها الشيوعيون بل انضم الى فرق المتطوعين لمحاربة اليابان الطلبة والمنظمات السياســـية الصينية وأخيرا المجتمع الصينى على اختلاف طبقاته • لا بل ان رجال الأعمـــال والتجار الصينيين فى المدن الكبرى تجـــاهلوا تعليمات الكومنتانج وبدءوا مقاطعة البضائع اليابانية وأعلنوا تصميمهم على قطع كل علاقة تجارية لهم مـــع اليابان فورا •

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فالصحف التي درجت على تأييد كاى شيك والدعاية للكومنتانج أخذت تستحث القائد الأعلى على ألا يضيع الوقت والمال فى محاولة القضاء على « العصابات » وأن يركز جهـوده فى توحيد البلاد ضد اليابان •

وفى ٤ من نوفمبر خرج ثلاثون ألف طالب فى مظاهرة بمدينة نانكنج عاصـــمة الكومنتانج وهذا أول مظهر لتخلى الطبقات المتعلمة الصينية عن شيانج كاى شيك • ومن سوء طالعه ان البوليس واجه مظاهرات المتعلمين الصينيين بقسوة ووحشية جعلت النـاجين منهم يفرون وثبـا فوق جثث قتلاهم •

لقد انتشرت الاضرابات فى جميع أنحاء الصين ولم يكتف العمال فى شمالى الصين بالتخلى عن أعمالهم ، بل انهم تسلحوا واعتصموا بالمرتفعات، وأخذوا يشنون حرب العصابات على الجيش اليابانى من كل جانب •

ولما تقدم اليابانيون جنوبا نحو شنغهاى تكون فى مؤخرتهم جيش من المتطوعين قوامه ثلاثمـــائة ألف من الرجال والنســـاء وأخذ يرهق اليابانيين ويقطع خطوط تموينهم •

لم تكن هذه القوة من الشيوعيين ومع ذلك فلأسباب غامضة ، رفض كاى شيك أن يزودها بالضباط أو السلاح حتى اضطرت الى الارتداد نحو الحقول ووقفت تنتظر قدوم الشيوعيين •

وفى ٢٨ من مارس سنة ١٩٣٢ كانت القوات اليابانية على مشـــارف شنغهاى وأعلن القائد اليابانى فى زهو أن فى استطاعته الاستيلاء على المدينة فيما لا يزيد على أربع ساعات ، ولم يكن هذا رأيه وحده وانما شاركه فيه كل المراقبين الأجانب الذين شهدوا المعركة • ولشد مادهش الجميع حينما هبت الحامية الصينية فى المدينة لندفاع عنها واستطاعت طرد اليابانيين من شنغهاى وتتبعهم حتى مصب نهر يانجتسى ، ولم تكن الحامية الصينية وحـــدها فى المعركة بل ان جميع السكان من الصينيين وقفوا من ورائها صفوفا متراصة ذودا عن أرض الوطن ضد العدو الأجنبى ، وبادر الصينيون فى الخارج بارسال الأغذية والمال بأقصى سرعة ممكنة ، وأنشأ الطلبة ورجال الاعمال

مستشفيات الطوارىء ومخازن التموين مما اذهل اليابانيين وجعلهم يقفون حيارى لايدركون تفسيرا لهذه الحماسة الوطنيه ، فما كان يدور بخلد أحد أن في استطاعة الصينيين أن يقدموا للمعركه قوات على هـذه الدرجة من الكفاية .

ازاء هذه المفاجأة العسكريه الصينية اضطرت اليابان الى تعبئة ثلث قواتها البريه والبحرية بعد أن أيقنت أن غزو الصين ليس بالسهولة التى تصورتها من قبل ، وأرسلت امدادات هائلة الى القوات الغازية فى شنغهاى وغيرت القيادة أربع مرات فى عدد قليل من الأسابيع ، كل ذلك على أمل أن تجد سبيلا للاستيلاء النهائى على المدينة . وأخيرا ارتدت القوات الصينية المدافعة عن المدينة بعد أن خسرت ٤٢ الفا بين قتيل وجريح .

وفى يوم ٥ من مايو وقع الكومنتانج معاهدة صلح مع اليابان فى شنغهاى ونصت المعاهدة على تحريم اقتراب أى قوات صينية من المدينة وأن تكون حاميتها فى المستقبل من اليابانيين وتعهد شيانج كاى شيك بايقاف جميع أنواع النشاط المعادى لليابان على أرض الصين .

وفى يونيو سنة ١٩٣٢ أجرى ماوتسى تونج أول انتخابات فى اقليم كيانجسى لانشاء مجلس السوفيت الاقليمى ، وانتخب هو «رئيس المجلس التنفيذى لحكومة العمال والفلاحين» .

وفى ١٠ من أغسطس أعلن ماوتسى تونج الحرب على اليابان باسم حكومته الجديدة .

لقد ضاق اليابانيون بهذا الاعلان أشد مما ضاق به شيانج كاى شيك وكلف القائد العام اليابانى شيانج كاى شيك أن يلتزم بشروط معاهدة الصلح المعقودة فى شنغهاى ويقضى على العصابات مهما كلفه ذلك من مال أو رجال أو عتاد .

وفى أواخر يونيو عبأ كاى شيك نصف مليون جندى لمهاجمة الثوار ولكن حملته باءت بالفشل واضطر الى الرجوع لليابانيين ليشيروا عليه بما يجب عمله ، وقد أشار عليه هؤلاء بأن الوسيلة الوحيدة لهزيمة الثوار هى ايقاف حملاته على معاقل الثوار فى الجبال ومحاصرة المنطقة حتى يموت هؤلاء الثوار جوعا .

هكذا نجد أنه فى خريف ١٩٣٢ ضرب حصار كامل حول اقليم كيانجسى فأخذ ماوتسى يعيد تنظيم الاقليم لمواجهة الحصار وهنا يقول ماو « كان أول اجراء اقتصادى اتخذناه لمقاومة الحصار هو العمل على زيادة الانتاج الزراعى أما الفلاحون الذين لم يكونوا قد انضموا بعد الى المزارع الجماعية فقد أعيد تنظيمهم فى فرق للعون المتبادل وفرق لفلاحة الارض ، ونظمت جمعية تعاونية جديدة لثيران جر المركبات وغيرها من الحيوانات وكان من شأن هذا النظام التعاونى أن تكلف أسر معينة مهمة التضامن فى توفير الغذاء لهذه الحيوانات وهكذا أصبحنا مستقلين استقلالا كاملا عن العالم الخارجى . ولقد أنشأنا صناعات محلية للورق والغزل والنسيج وتكرير السكر والتعدين وصناعة الأدوات الزراعية . »

هكذا سارت الحياة هينة فى جمهورية كيانجسى الصغيرة كما لو ان الحصار الذى فرضه كاى شيك لاوجود له ، وكان ماو حريصا على المحافظة على مستوى المعيشه بين السكان المدنيين فى القواعد الثورية ليضمن ولاءهم المستمر ولاول مرة فى تاريخ الصين يجد المعوزون مايكفيهم من غذاء مع توافر أسباب الأمن والمحافظة على الحياة . ولم يعجز ماوتسى تونج عن تزويد جيشه بقوات جديدة من المجندين وكانت طريقته فى ذلك أن يقوم بجولة فى المزارع التعاونية ثم يشير اشارة عابرة الى أن لديه كمية من البنادق المسروقة وأنه فى حاجة الى انشاء كتيبة جديدة لتحمى مؤخرة جيشه وهنا يبادر الفلاحون بتقديم أنفسهم للتجنيد ، حتى أنه فى أكتوبر سنه ١٩٣٣ كان جيش ماو يضم ٨٦ ٪ من أبناء منطقة شانجهانج وحدها مابين رجل وامرأة .

وانتشرت المدارس فى جمهورية ماوتسى تونج الصغيرة وأنشأ ماو بنفسه جريدة أخذ ينشر فيها أشعاره واوامره اليومية . وأنشأ فريق من الطلبه مدرسة لتعليم فن التمثيل أطلقوا عليها اسم مدرسة جوركى وقد خرجت أكثر من ألف ممثل وممثلة أخذوا يطوفون بلاد الاقليم لعرض مسرحياتهم كما دربوا الفلاحين على اعداد المسرحيات وعرضها . كل هذا حدث فى جمهورية ماوتسى تونج الصغيرة التى تحاصرها قوات الحكومة الشرعية من كل جانب ولا يعترف بها العالم الخارجى . أما الاتحاد السوفيتى فقد كان لايزال مرتبطا بالحزب الشيوعى الصينى الذى أصدر قرارا بطرد ماوتسى تونج من عضويته . وكان هذا الحزب الشيوعى الصينى قد أصبح أقلية ضئيلة مكونة من المكتب السياسى فقط واقتصرت مهمته على اصدار نشرات عن المذهب الماركسى ، وانقطع كل اتصال بينه وبين الشعب الصينى ، حتى مع العمال الذين يعنى بهم الكومنترن كل العناية .

وفى فبراير سنة ١٩٣٣ استأنف اليابانيون عدوانهم على الصين فهاجموا جيهول وزحفوا متجهين نحو بيكين وتينتسن ، وقد لاحظ المراقبون الاجانب ان قوات الكومنتانج كانت تفوق القوات اليابانية الغازية بنسبة ١٠ : ١ ولو كان لدى قوات الكومنتانج من الكفاية العسكرية نصف ماكان لدى حاميه شنغهاى التى صدت اليابانيين اذا لاستطاعت صد هذه القوات اليابانية المعتدية دون عناء . ولامر ما أصدر شيانج كاى شيك أوامره الى جنوده بالانسحاب من ميدان القتال وحظر عليها ابداء أى مقاومة . بل أنه فى الواقع رفض الاعتراف بأن اليابانيين الغزاة من الاعداء . وفى مايو سنة ١٩٣٣ وقع اتفاقية تانجكو التى بمقتضاها ضمنت اليابان سيادتها على الاقاليم الثلاثة الواقعة فى شمال شرقى الصين فى مقابل اخلاء هوبيه وبذلك سقط سور الصين العظيم فى أيدى اليابانيين .

ولا يدرى أحد ماكان يجول بخاطر كاى شيك حينما قبل توقيع هذا الاتفاق ولكن أصدقاءه عللوا أنفسهم بأنه قد يكون من وراء ذلك كسب للصين .

وفى يونيو سنه ١٩٣٣ زحف اليابانيون على اقليم شاهار وأصدر كاى شيك أوامره لجنوده مرة أخرى بأن يمتنعوا عن القتال ولكن طفح الكيل ولم يعد فى طوق قوات الكومنتانج أن ينفذوا الأمر بالارتداد ، فنظموا قوة

أطلقوا عليها اسم « القوات الشعبية المتحالفة لمقاومة اليابان » واستطاعوا في يوم واحد أن يطردوا اليابانيين من اقليم شاهار. وفي الوقت نفسه أعلن الجيش التاسع عشر الذي اشتهر بأعمال البطولة في شنغهاي والذي كان مشتركا حينذاك في محاصرة جمهورية ماوتسي تونج، عزمه على فض الحصار وانشاء حكومة خاصة به في اقليم فوكي . وصرح زعماء هذه الحركة بأنهم لا يرغبون في خدمة ماو أو الاشتراك معه في الحكم ولكنهم في الوقت نفسه أعلنوا تصميمهم على القتال بجانب قوات ماو ضد اليابانيين .

أما شيانج كاي شيك فكان في واد والشعب الصيني في واد آخر ، وكانت وجهته اعداد حملة جديدة ضد الشيوعيين الصينيين لا ضد اليابانيين وأبلغ قواده أنه سوف يستعين في هذه الحملة بالقوات اليابانية . كذلك صرح كاي شيك بأنه قد « أجر » شمالي الصين لليابانيين في مقابل مساعدتهم له وهنا استدرك قائلا : « اذا ما انتهينا من الشيوعيين نوجه ضرباتنا لليابانيين » .

وفي أكتوبر سنة ١٩٣٣ بدأت قوات شيانج كاي شيك المحاصرة لجمهورية ماوتسي تونج زحفها على الأقليم وقد بلغت هذه القوات مليونا من الرجال الأشداء المسلحين تسليحا جيدا وعلى نسبة عالية من التدريب . وفضلا عن ذلك فقد كان لدى هذه القوات الزاحفة عدد كبير من الخبراء العسكريين الالمان والامريكيين واليابانيين والفرنسيين . والغريب في الأمر أن بريطانيا لم تشترك في هذه المناورة المخزية .

سارت الحملة في بطء وحذر شديد وذلك كي تكون قبضتها قوية على كل شبر من الأرض تطؤه أقدام الجند ، وكان الهدف هو تضييق الخناق على جيش ماوتسي تونج المعتصم بالجبال .

وأخذ ماو يرقب هذا الزحف البطيء في غير ماجزع ذلك لتقديره أن القوات الزاحفة لن تستطيع بلوغ القاعدة الرئيسيه لقواته الا بعد عام، كما أنها مع هذه الدرجة من الزحف البطيء لن تستطيع بلوغ مخبئه قبل خمس سنوات .

وكان من رأى ماوتسي تونج اغراء القوات الزاحفة بالتقدم في الجبال ثم الانقضاض عليها حينما تحين فرصة مواتية ولكن بعض قواده ومنهم ينج تيه هواى خالفوا رأيه وأصروا على الدفاع السلبي . ولقد ظل ماو عاما كاملا يحاول اقناع معارضيه بفساد خطتهم وأخيرا اقتنعوا بفكرته وبدأت سلسلة من الانتصارات .

وفي ١١ من اكتوبر سنة ١٩٣٤ توجه تشوتيه وشواين — لاى الى الكهف الذي يقيم به ماوتسي تونج لتقديم تقريرهما الشهري له . وكان ماو جالسا على الأرض يذر الفلفل الاحمر على وعاء من الأرز المطهو وبجانبه زوجته الجديدة .

وقد جلس تشوتيه وشواين لاى بجانبه على الارض وسلماه التقرير ومعه قائمة بالمصابين والمجندين الجدد . اطلع ماو على التقرير ثم استأنف وجبته المفضلة بعد أن اطمأن الى حالة قواته المسلحة . حقيقة أن عدد

المجندين الجدد فى تناقص ولكن لايزال لديه احتياطى كبير · والقتلى بين قواته لم يتجاوزوا عشرة آلاف بين رجل وامرأة واذا فلا يزال لديه سبعون الف رجل على أتم صلاحية لخوض المعارك ·

وقد ظل شواين لاى صامتا حتى انتهى ماو من طعامه فقال له : ـ

« ان المؤن كادت تنفد وليس لدينا منها مايكفينا حتى أواخر الشتاء · اما الذخيرة فما لدينا منها يكاد لايكفى هجوما كبيرا هذا الى جانب أن المؤن لم تعد تصلنا من الخارج ، كما أنه ليس فى استطاعتنا نحن أن نخرج من معاقلنا فى الجبال لنحصل على مانحتاج اليه من المؤن ·

وهنا نظر اليه ماوتسى تونج مبتسما ثم انحنى على الارض ورسم خريطة على أرض الكهف ، ثم أردف قائلا : ـ

« لقد صممت على الخروج من هذا المعقل ، وليس فى الدنيا مستحيل » ·

ثم أشار الى مكان على الخريطه ومضى يقول : ـ

« فى هذا المكان ممر جبلى ومركز قوات الكومنتانج فيه ضعيف · لقد أعدم شيانج كاى شيك كثيرا من ضباطه الذين توجهوا لمحاربة اليابانيين وهذا ترك أثرا سيئا فى نفوس جنودهم ·

« من هنا نستطيع فك الحصار ·

« سوف نتجه الى المرتفعات فى الشمال فيما وراء النهر الأصفر فهناك الخط الامامى للمعركة · هناك اليابانيون ولكن كاى شيك ليس لديه أصدقاء فى اقليم شنسى · سوف نحصل على الطعام ونواصل القتال ، بل سوف نحصل على المؤن من اليابانيين انفسهم » ·

هنا نظر شوتيه الى الخريطة محملقا ثم اتجه ببصره الى ماو قائلا : ـ

« ان بيننا وبين شنسى سته آلاف ميل ، فكيف نستطيع الوصول اليها ؟ »

هنا انتصب ماوتسى تونج قائما ورسم بقدمه خطا على التراب ثم قال : ـ

« نذهب سيرا على الأقدام » ·

الفصل السادس

لقد كان « الزحف الطويل » لجيش ماوتسي تونج الثوري من أعظم الاعمال الباهرة التي تحققت في القرن العشرين، فقد استطاع ماو أن ينقل جمهوريته الجديدة بكامل هيئتها من مدنيين وعسكريين من الأطراف الجنوبية للصين الوسطى الى أقصى شمالي الصين وهي مسافة لا تقل عن ستة آلاف ميل ، سيرا على الاقدام ، في مناطق معادية وتحت تهديد قوات شيانج كاي شيك التي تفوقها عددا وقوة بمراحل كثيرة . ويرجع نجاحه في تحقيق هذه المغامرة الهائلة الى ما حبته به الطبيعة من قدرة فائقة على الزعامة ، وقدرة أخرى لا تقل عنها قوة على بث روح الولاء والاخلاص بين أنصاره ومؤيديه .

في ٢٩ من أكتوبر سنة ١٩٣٤ غادرت القوات الرئيسية للجيش الثوري التي تبلغ خمسين الف جندي قواعدها الثورية في اقليم كيانجسي وتسللت عن طريق الوديان الجبلية من وراء حرس شيانج كاي شيك وهم نيام في ثكناتهم خارج حدود جوي تشن . كان هذا الجيش الثوري خليطا غريبا من الرجال والنساء قل أن ظهر بينهم الزي العسكري لعدم توافره ، أما أسلحة هذا الجيش فهي في تنوعها وتباينها اشد عجبا من هيكل الجيش نفسه ، فهي بين بندقية أمريكية أو بريطانية اختطفت من جنود كاي شيك أو مجموعة من المدافع السريعة الروسية ، بعضها صالح للعمل والبعض الآخر غير صالح ، أو سيف أو منجل أو سكين أو خطاف مشدود الى عصا ، كانت رءوس بعض الجند معصوبة بلفائف من القماش وقد تجمد عليها الدم من آثار الجروح . ولكن الجيش زحف في صمت ، وليس بين أفراده من يشكو .

وبعد أن تسللت القوات الرئيسية عبر الوديان استيقظ حرس كاي شيك من نومهم فهاجمتهم مؤخرة الجيش الثوري وبدأت معركة بينهما انتهت بفناء الطرفين .

ودع ماوتسي تونج مسقط رأسه الذي لم يره بعد ذلك الا بعد أن أصبح الجزء الأكبر من الصين في قبضته ، وسار الجيش الثوري بسرعة تتضاءل بجانبها سرعة جيش هانيبال في زحفه على روما ، وكلما مر بقرية علا هتاف الفلاحين بالهتاف والترحيب .

وكلما سمع كاي شيك بمرور الجيش الثوري في منطقة عجل بارسال قواته لصد هذا الجيش ولكن أي له ذلك وقد أجمع سكان المنطقة على اخفاء أنباء الزحف عن كاي شيك ورجاله . ولما يئس « القائد الأعظم » من العثور على الجيش الزاحف أصدر بيانات متتالية يعلن فيها ان قوات الثوار قد تبددت تحت تأثير الهجمات المشتركة لجنوده وكذلك تحت تأثير التعب والجوع والعوامل الجوية ، وظل كاي شيك يصدر نشرات بهذا المعنى طوال الاثني عشر شهراً التالية .

وفى ٢٠ من ديسمبر وصلت قوات ماوتسى تونج الى وادى نهر ووكيانج وهناك وجدت أمامها حامية قوية من قوات الكومنتانج معسكرة على شاطىء النهر ٠

استعرض ماو قواته فوجد أنها قد فقدت فى المرحلة الأولى من الزحف سبعة آلاف جندى وأن الباقين قد أخذ منهم التعب والجوع كل ماخذ ٠ وهنا حاول بعض مساعديه ان يثنوه عن مواصلة الزحف حتى ينتهى فصل الشتاء ولكن ماو رد عليهم قائلا: ــ «لا رجعة الى الوراء ، وليمت من بيننا من يمت ، ولكنه سوف يموت بطلا » ٠ وتقدم الجيش الثورى الزاحف وبدأت المعركة مع قوات الكومنتانج المزودة بأحدث الأسلحة وسقط فى المعركة ثلاثة عشر الفا من الطرفين ، وانتصر الجيش الزاحف بعد أن حطم الروح المعنوية بين قوات الكومنتانج ٠

وحينما بلغ الجيش الثـــورى الزاحف تسوينى فى اقليم سزشوان توقف قليلا للراحة وهنا عقد ماوتسى تونج مجلسا ثوريا شكله من قواده ومن أعضاء المكتب السياسى لحكومته واقترح على المجلس الاتجاه غــربا نحو حدود التبت مما أثار ذهول مستمعيه دهشة واستنكارا ، ولما نظر ماو الى الوجوه الشاحبة والنظرات الزائغة من حوله اتجه الى شرفة السرادق وحده ٠ وبعد قليل لحق به شواين لاى ليقول ٠ « لقد قررنا جميعـــا التوجه الى التبت » ٠

ابتسم ماو فى اعياء وعاد الى صحبه ٠ لقد ثبت مركزه فى الزعامة ، ومادام المكتب السياسى قد أيد زعامته للحزب الشيوعى فى الصين فلا بد أن توافق موسكو من جانبها على ذلك ٠ وعلى فرض أن هنـــاك عقبات لا يدركها فهو لن يعبأ بشىء هناك الآن من ينازعه السلطة واذا ســارت الأمور فى مجاريها فسوف يصبح يوما ما صاحب الكلمة الأولى فى الصين٠

دخل ماو الى حيث توجد زوجته الثـــانية فوجدها تحتضر بسبب الاعياء وقسوة العيش ولم تمض سويعات حتى توفيت ٠ وبعد قليل تقدم ماو بجيشه نحو اقليم يونان ٠

يقع اقليم يونان فى الطرف الجنوبى الغربى للصين وهو اسميا جزء من الصين واذا فهو يدين بالولاء للكومنتانج ولو بصفة شـــكلية ٠ وكان يحكمه مندوب من الكومنتانج واثنان من زعماء العصابات ، هما تشـــانج ولونج ٠ وكان كل مواطن فى يونان ينتمى الى احدى العصابات ، وقد يرتفع شأن زعيم احدى العصابات فيصبح حاكما أو مندوبا للكومنتانج أو ثريا يعيش فى بذخ على ما نهبه من أموال ٠ والزراعة الوحيدة الهامه هى زراعة الخشخاش لاستخراج الأفيون ٠ ولقد استطاع ماوتسى تونج ان يتخذ من رجال العصابات فى يونان أعوانا له يحمونه من الغارات المحلية ويرشدونه الى المسالك الجبلية فى أثناء الزحف ٠ وهكذا نجده يواصل السير شمالا متخذا من رجال العصابات طليعة ومؤخرة لجيشه ٠

وحينما وصلت القوات الثورية الزاحفة الى نهر تانو اعترضها كوبرى يربط جانبى النهر وكان على الشاطىء المقابل حامية قوية من جنـــود الكومنتانج وهنا قام الجيش الثورى بعمل قد يعتبر بطولة جنونية ، ذلك

ان جند ماو اندفعوا عبر الكوبرى تحت وابل من رصاص الكومنتانج، وعلى الرغم من أن أعدادا كبيرة منهم كانت تتساقط صرعى تحت نيران المدافع فقد استطاع أربعة وعشرون ألفا منهم أن ينتقلوا الى الشاطىء المقابل، ولقد أذهلت هذه البطولة جنود الكومنتانج فولوا الأدبار .

أكمل ماو ورجاله الزحف فوق قمم الجبال وبين المستنقعات وهم يقتاتون بالاعشاب وبما يقدمه لهم أهل الريف من حيوان الياك حتى بلغوا اقليم شنسى وحطوا الرحال فى مدينة ووتشى تشن حيث التقت بهم بقية فرق الجيش الثورى .

لقد بدأ ماوتسى تونج زحفه التاريخى بخمسين ألفا من الاشداء وما أن وصل نهاية المرحلة حتى بقى لديه خمسة عشر ألفا فقط ، أما النساء فلم يبق منهن الا تسع فقط .

لقد كان هذا الزحف أكبر دعاية لماوتسى تونج فقد مرت القوات الزاحفة بأحد عشر اقليما صينيا يقطنها مائتا مليون نفس وامتدت موجة الدعاية من اقليمى كوانتونج وكوانج سى فى أقصى جنوبى الصين الى اقليم شنسى فى أقصى الشمال .

ولما استقر ماوتسى تونج آمنا فى اقليم شنسى بدأ ينشىء أول مجلس سوفيتى، وفى أواخر عام ١٩٣٥ أعلن مدينة باو أون عاصمة لحكومته الجديدة فى الشمال ولقد أحبه الفلاحون فى اقليمه الجديد حبا جما ، بل انه كان يبدو فى أوائل شتاء هذا العام أن الصين كلها ليس أحب الى قلبها من الثلاثى المظفر ماوتسى تونج وشواين لاى وتشوتيه .

بدأ تشوتيه يدرب البقية الباقية من الجيش الثورى بمساعدة لينى بياو الذى أصبح فيما بعد أكبر خبير عالمى فى حرب العصابات ، وفى ٥ من ديسمبر ١٩٣٥ افتتحا كلية عسكرية تتسع لثمانمائة طالب ، وكان الهدف من انشاء الكلية هو تدريب فئة من الضباط استعدادا للمعركة التالية ضد قوات الكومنتانج .

أما مهمة شواين لاى فى الحكومة الجديدة فهى التموين ، ولقد استطاع ان يملأ الكهوف بالكرنب والدخن والأعشاب ، كذلك نيط به محاولة ضم تشانج هسوى ليانج ابن الدكتاتور العسكرى السابق تشانج تسولينى الى صفوف الثوار على الرغم من أنه كان فى ذلك الوقت قائدا عاما لقوات الكومنتانج فى شمال شرقى الصين .

كان ماوتسى تونج رئيس الحكومة الجديدة يسكن فى كهف حجرى مكون من حجرة واحدة ذات منفذ واحد . ولم يكن يقف على حراسة هذا الرئيس غير جندى واحد ، وكان فى استطاعة هذا الجندى أن يصوب بندقيته فى أثناء الليل الى رأس ماوتسى تونج فيرديه قتيلا وبذلك يتسلم من حكومة شيانج كاى شيك ربع مليون دولار ثمنا لرأس «زعيم العصابات الثائر على حكومة الصين الشرعية» .

وهكذا أخذ زعماء الحكومة الجديدة يستعدون للجولة الثانية ضد شيانج كاى شيك وقوات الكومنتانج .

الفصل السابع

لقد كان لنجاح «الزحف الطويل» أسوأ أثر على مركز شيانج كاى شيك من اية هزيمة حربية ، فقد أضاع خمس سنوات كاملة فى اقتفاء أثر جيش مجهول الوجود لايفكر فى الالتحام مع جيشه فى معركة ، ومع ذلك فان هذا الجيش الخفى قد أصبح على درجـــة كبيرة من الخبرة فى حرب العصابات بل ان المحاولات التى بذلتها قوات كاى شيك للقضاء على جيش ماوتسى تونج بعثت فى هذا الجيش صلابة العود وقوة التدريب التى سوف يستخدمها يوما ما احسن استخدام ضد كاى شيك وجيوشه . والواقع أن حملات التطويق التى أعدها شيانج كاى شيك لمحاصرة جيش ماوتسى تونج والقضاء عليه كانت فكرة خاطئة منذ البداية .

لو أن كاى شيك نظر الى التهديد الشيوعى نظرة واقعية منذ عام ١٩٣٠ اذن لاستطاع مواجهة الشيوعيين فى عقر دارهم وتبديد شملهم ، ولو أنه وجه اهتمامه الكامل الى تحسين ظروف المعيشة فى الريف الصينى ، لما أمكن ماوتسى تونج أن يعبىء تلك القوى الهائلة من الفلاحين على الرغم مما امتاز به ماو من نشأته الأولى كفلاح صينى ، ولو فكر شيانج كاى شيك فى اعداد برنامج سليم التخطيط للاصلاح الزراعى يقضى به على الملكيـة الاقطاعية للأرض الزراعية ويحولها الى تعاونيات لقضى بالفشل على التعاونيات التى أنشأها ماوتسى تونج ، فقد كان لديه الخبراء الفنيون من الصينيين ومن الأمريكيين ، ولديه الأموال واذا ففى استطاعته زيادة الانتاج الزراعى الى حد يرتفع معه مستوى المعيشة فى الريف الصينى بنسبة كبيرة .

من أراد كسب ولاء الفلاح الصينى فليملأ معدته بالأرز . ولو جال بخاطر كاى شيك أن يضع برنامجا مثاليا لانقاذ منكوبى المجـاعات ، ولو فكر فى وضع حد لوحشية ملاك الأراضى العديمى الضــمير الذين كانوا يختطفون أرض الفلاح الصينى وهو يتضور جوعا ويعطونه أبخس الأثمان لو تم كل ذلك لما وجد الشيوعيون أمامهم اقطاعيات زراعية كبرى يوزعونها على الفلاحين بعد أن يحيطوا عملهم بدعاية واسعة .

ولنعد مرة أخرى لنقول : لو أن كاى شيك حدد ايجارات الأراضى الزراعية وجعل فئات الضرائب المحلية معقولة محتملة ووضع نظاما عادلا لجباية هذه الضرائب لفاز بالشكر والامتنان بين طبقة الفلاحين . وأخيرا لو أنه عبأ الشعب الصينى منذ البداية لمحاربة اليابانيين المعتدين ، وأوقف تلك المضايقات التى كان يوجهها الى البريطانيين حتى يظهر بمظهر الوطنى الغيور ، اذا لاستطاع كسب الأوربيين الى جانبه فى حملته داخل الصين وخارجها .

الواقع أن شيانج كاى شيك كان حاكما ظالما وقائدا فاشلا . استند فى بسط سيطرته الضعيفة على الصين على ثورة ١٩١١ ووجه كل اهتمامه الى العمال فى المدن على اعتبار أنهم الرمز الحى الذى تتمثل فيه صـــــذه الثورة ثم أخذ ينشىء الطرق ويمد السكك الحديدية ، شأنه فى ذلك شأن شبيهه موسولينى وكل دكتاتور آخر منذ فجر التاريخ . ولكن عمله هذا لم يزد شعبيته ولم تستفد منه الا الأقليات الأجنبية المعادية ، وهكذا أخذت شعبيته تهبط الى الحضيض فقد نفر منه المثقفون لانه بدا فى أعينهـــم وقد تنكر لثورة ١٩١١ وكان المفروض فيه أن ينصب نفسه للدفاع عنها . وأكثر من اللجاجة والدعاية الزائفة حول وطنيته فى حين قد تنـــازل لليابانيين عن مساحات واسعة من أرض الصين فى مقابل مساعدات عقيمة للقضاء على الشيوعيين . ووعد الشعب بالدستور ولكنه لم ينجز وعده . ولم تتح لهذا الشعب الفرصة كى يشترك فى حكومة البلاد ويوجه سياستها طبقا لمبـــادىء ثورة ١٩١١ . لا بل ان هـــذا الشعب ما كان ليعترض على دكتاتوريته لو أنها كانت دكتاتورية رشيدة صالحة .

أما التجار فقد بدءوا ينزعون ثقتهم من شيانج كاى شيك باعتبـــاره حاميهم ضد الشيوعية ، فقد رأوه عاجزا عن ايقاف «الزحف الطويل» ومن هنا وقر فى أذهانهم أنه لو دخل فى معركة ضد الشيوعيين فسوف تكون من نصيبه الهزيمة ، أضف الى ذلك أن التجار حقدوا عليه وعلى أصدقائه لاستخدامهم النفوذ السياسى فى سبيل الثراء الشخصى ، ذلك أنه لم يواف عام ١٩٣٥ حتى كانت الصين كلها ملكا لأربع أسر : أسرة شيانج كاى شيك نفسه ، وأسرة سونج وهى أسرة زوجته وأسرة كونج وأسرة تشن . كانت الأسر الأربع تقتسم فيما بينها السيطرة على البنوك الحكومية الأربعة وهى البنك المركزى وبنك الصين وبنك المواصلات وبنك الزراع . وعن طريق هذه البنوك الأربعة كانت الأسر الأربع تسيطر على جميع الأعمال المصرفية فى الصين ومن ثم على الاقتصاد الصينى بأجمعه . كانت كل قروض الحكومة تعقد عن طريق أحد البنوك الأربعـــة . ومن الطبيعى أن يسعى كل بنك للحصول على أكبر قدر من الضمانات الحكومية مما ترتب عليه تضـــخم نقدى لايتناسب مطلقا مع الطاقة الانتاجية أو الاستهلاكية . وفى عام ١٩٣٥ حملت أسرة سونج ، شيانج كاى شيك على اصدار قانون يجعل لأوراق النقد التى تصدرها البنوك الاربعة «قوة الابراء الكاملة» مع سحب العملة الفضية من التعامل ، وكان من نتيجة ذلك ارتفاع أسهم هذه البنوك ارتفاعا كبيرا فى جميع أنحاء الصين ، وسحب سبائك الفضة وتخزينها فى أقبيـــة البنوك الاربعة .

واحتكرت الاسر الاربع سوق الارز . والقطن وصناعة الدخان كما احتكرت تحديد الأسعار والحصص عن طريق مكتب الكومنتانج فى نانكنج وعقدت قروضا مع البنوك الخارجية واحتكرت الســـيطرة على صناعات الصلب والصناعات الهندسية وصناعة العدد والآلات الناشئة وأخـــيرا اشترت الأسر الأربع أراضى الفلاحين العاجزين عن دفع الضرائب بأبخس الأثمان .

هـكذا أصبحت ادارة الجهاز الحكومى فى أيدى الأسر الأربع وكان

هدفها من ممارسة السلطة الحصول على أكبر درجة من الثراء مع محاولة عدم الاضرار كثيرا بالصين وكانت بيبي بنج زوجة شيانج كاى شيك وشقيقة أرملة الدكتور صون يات سن ، هي الرأس المدبر للمشروعات المـــالية وبرنامج الاثراء ، وقد قالت عنها أرملة صون يات سن : ــ

ان شقيقتى ذكية وبعيدة النظر ، فهى لاتعمد الى شراء أو بيع الأسهم والسندات الا بعد أن تتلقى معلومات من أصدقائها عن أى تغير جديد يطرأ على سياسة الحكومة المالية ٠

كان حظ شيانج كاى شيك من الثراء عريضا ، ولكن مركزه السياسى أخذ ينحدر من سيىء الى أسوأ ، ففى يونيو ١٩٣٥ أرغم على عقد اتفاق مع اليابان يقضي بتنازل الصين عن جميع اقليم هوبينى والجلاء عن شاهار وتحت ضغط حكومة طوكيو رتب حملة للدعاية بين الشعب الصينى بان اليابانيين اخوان مخلصون وأنهم ماوطئوا أرض الصين الا لتخليص حضارة الجنس الأصفر مما يهددها من خطر أوربى ، ولكن أنى لمثل هذه الحملة أن تنجح فى حين لا يمر يوم الا وتغتصب اليابان أرضا صينية جديدة ٠

وفى الأول من أغسطس ١٩٣٥ وجه الحزب الشيوعى الصينى نداء الى الشعب يدعوه فيه الى «مقاومة اليابانيين وانقاذ الوطن» ٠ وطالب الحزب بوضع حد للحرب الأهلية وتكوين جبهة ضد اليابان ، ولما تلقت العصابات الصينية المسلحة فى شمال شرق الصين أنباء هذه الدعوة رحبت بهـــا ووحدت قواتها تحت اسم « القوات المتحالفة الجديدة ضد الخطر اليابانى» واختارت لقيادتها يانج تشنج ــيو ٠ ولم يمض غير قليل حتى أصبحت هذه القوة تضم ٤٥ ألفا ، ووقفت قوات شيانج كاى شيك المرابطة فى شمال الصين منها موقف من لايستطيع عمل شيء ولا يريد عمل شيء ٠ أما كاى شيك نفسه فلا يدرى أحد ان كان قد أساء تقدير ذلك الشعور المتزايد المعادى لليابان أم أن حملته ضد الشيوعية قد أعمته عن كل شيء ما عــدا الخطر الشيوعى ، ولكن من المؤكد أن سلوكه كان سلوك رجل لايبـــالى بالنزعة الوطنية المفروض أن يكون هو رمزا لها ٠ ولقد ظل طوال العــام التالى يرتكب خطأ اثر خطأ ٠ وأخيرا كما يقول ماوتسى تونج جرفه التيار ٠

لما بلغت بيكين أنباء نجاح «الزحف الطويل» ووصول ماو وقواته الى نهاية المرحلة فى اقليم شنسى ، قرر الطلبة فى بيكين القيام بمظـــاهرة فوجهوا الدعوة الى اخوانهم فى الاقليم ، وفى اليوم المحدد تجمعوا فى ميدان تين آن مين وهم ينشدون أناشيد «جيش المتطوعـــين الزاحف» ويهتفون بشعارات حرمتها حكومة شيانج كاى شيك مثل « نريد تخليص الوطن من براثن الاستعمار» ، «الحرب ضد اليابان» ، «الصينى لايحارب أخاه الصينى» ويترنمون بأشعار حماسية منها : انهضوا يامن تأبون الذل والعبودية ٠ وشيدوا بأجسادكم ودمائكم ، سورا جديدا للصين .

ثم سارت المظاهرة نحو مركز قيادة قوات الكومنتانج ليقدموا التماسا للحاكم المحلى ، وظلوا فى أماكنهم حول القصر الامبراطورى الشتوى فى انتظار الجنرال سونج أو من يمثله ٠ وكان سونج يحكم هوبى وشـــاهار باعتبارها اقليما مستقلا منذ اتفاقية يونيو مع اليابان ، وكان ينتظر فرصة

مواتية تمكنه من الارتماء فى أحضان اليابان ووضع نفسه تحت حمايتهـ خاصة وأن الجنرال دواهارا المفاوض اليابانى فى اتفاقية يونيو وعد بمنحه عشرة ملايين دولار صينى ان أعلن انفصال اقليمـــه عن حكومة نانكنج وهكذا اعتبر سونج أن مظاهرة الطلبة نعمة وهبتها له السماء • فبينما كانت جموع الطلبة تحاصر القصر الامبراطورى اذ بالجنرال سونج يرسل برقية الى دواهارا ينبئه بان محاولة فصـــل اقليمى هوبى وشاهار فى الظروف الجارية يعتبر انتحارا لكليهما ، ولم يسع دواهار ازاء هذاالموقف الا أن يستعد فورا للرحيل الى طوكيو •

وقد أراد البوليس المحلى أن يطلق النار على الطلبة لولا أن رأى فريقا من الصحفيين البريطانيين والأمريكيين واقفين لمشاهدة مايحدث ، وهنـا اضطر البوليس لمعاملة الطلبة باللين • ولكن لما بلغت أنباء المظـاهرة مسامع شيانج كاى شيك فى نانكنج هب ثائرا وصب غضبه على الجنرال سونج والبوليس المحلى لسماحهما «للمشاغبين» بمحاصرة القصر ، وأدرك كاى شيك أنه اذا استمر المتظاهرون فىهتافاتهم الوطنية فلن تمضى بضع ساعات حتى تغلق المدينة أبوابها وتنضم الى مظاهرة الطلبة ، ولذا فقـد اتصل تليفونيا بابن أخيه الذى كان يعمل مديرا للبوليس السياسى فى بيكين وأمره بتشتيت المتظاهرين • وصدع ابن أخيه بالأمر فجمع رجاله من السفاحين والقتلة والسفلة وزودهم بالمدافع السريعة فى انتظار صدور الأمر بحصد المتظاهرين ، لكنه لم يانس من نفسه الجراة على اصدار الأمر باطلاق النار ما دام الصحفيون والمصورون الاجانب واقفين على استعداد لتسجيل حوادث المذبحة ، بل انه لم يجرؤ على اصدار هذا الامر ، حتى عندما مر المتظاهرون من تحت « البوابة السماوية » مطالبين باستقالة عمه (شيانج كاى شيك) •

وفى ١٦ من ديسمبر تكررت المظاهرة ، وكانت فى هذه المرة عامـة شاملة فان أنباء نجاح حركة ٩ من ديسمبر شجعت الطلبة فى المدن الأخرى فقاموا بمظاهرات فى تينتسن وشنغهاى وكانتونوهانكاو • أضف الىذلك أن طلبة جامعة منشوريا الذين وفدوا على بيكين بعد أن اجتاح اليابانيون اقليمهم انتقلوا الى سيان فو وأنشئوا لهم جامعة منشورية جديدة ، وكانت سيان فو تقف فى الصفوف الأولى ضد ماوتسى تونج وقواته فى شنسى ، ولكنها الآن غيرت موقفها وأعلنت «التآخى» بين القوات المحليـــة وقوات ماوتسى تونج فى سبيل تحرير الوطن من العدو الأجنبى •

وفى يناير ١٩٣٦ تجمع نحو ثلاثة آلاف من طلبة بيكين وتينتسن وقرروا تشكيل «فرقة الدعاية» ثم أخذوا يجوبون البلاد على طول سكةحديد بيكين ـ هانكاو لينشروا الدعاية بين مواطنيهم ضد اليـــابانيين ، وهكذا اكتسح التيار الوطنى جميع سكان المنطقةمن شيوعيين ومعارضين للشيوعية ولما سمع كاى شيك بأنباء فرقة الدعاية قرر الغاء التصريحات المخفضـــة الممنوحة للطلبة عند سفرهم بالسكك الحديدية ، ولكن المجتمع الصينى وقف مؤيدا للطلبة مما اضطر كاى شيك الى ابقاء هذا الامتياز •

وفى فبراير ١٩٣٦ عبر جيش «القوات المتحالفة ضد اليابان» النهر الأصفر عند حدود شنسى ، وهناك اشـــتبكوا فى معركة مع بعض قوات

الكومنتانج ولكن حين امسى الليل ، تصافح الطرفان وهتف ممثلوهما : «الصينى لايحارب اخاه الصينى» ٠

وأخذت فكرة تكوين «جبهة شعبية» ضد اليابان تنشر فى شمالى الصين بين قوات الكومنتانج والمدنيين الموالين لشيانج كاى شيك ٠ وفى مارس ١٩٣٦ ، عاد ليو شاورتشى صديق ماوتسى تونج من موسكو بعد أن تلقى تدريبا كاملا على «فنون الدعاية لاثارة الطبقة العاملة» وبمجرد وصوله انتخبه الشيوعيون الصينيون المنظم الأول للحزب الشيوعى الصينى ٠

ذهب ليو فورا الى شنغهاى حيث يتجمع أكثر من ثلث عمال الصين وأخذ ينظم الاضرابات والزحف الجماعى ، واستطاع فى مايو أن يدعو الى اضراب عام ضد أصحاب المصانع اليابانيين ، وقد اشترك فى الاضراب ٤٥ الفا من العمال ، غير أن ليو أدرك أن قوة البوليس فى المدن أقوى من أن يواجهها بعماله ولذلك فقد تعلم شيئا جديدا وهو أن حركة الفلاحين ذات أهمية عظمى اذا أريد لطبقة البروليتاريا أن تحقق أهدافها ، وما أن اقتنع بفكرته الجديدة حتى تخلى عن العمال لفترة بلغت خمس سنوات ، ثم اتجه نحو الشمال للانضمام الى ماوتسى تونج فى اقليم شنسى ، وهناك أنشأ حكومة شيوعية صينية داخل نطاق حكومة الكومنتانج ٠

وما وافى شهر ديسمبر ١٩٣٦ حتى تم التآخى بين قوات الكومنتانج وجيش ماوتسى تونج وأقلعت قوات الكومنتانج نهائيا عن فكرة القضاء على «الجيش الأحمر» وأخذ شواين لاى يتردد على مركز قيادة جيش الجنرال شيانج بصفته صديقا لاعدوا مطلوبا رأسه ٠.

وحدث فى ٣ من ديسمبر أن أرغمت احدى قوات الكومنتانج قائدها على مهاجمة احدى الحاميات اليابانية وذبح «اخوانهم اليابانيين» ، ولما سمع كاى شيك بأنباء المذبحة من السفير اليابانى الثائر ، استشاط غضبا وأبرق الى الجنرال شيانج كى يعاقب هذه القوة الصينية بكل شدة ، ولكن شيانج رد عليه بانه لو فعل ذلك فان قوات الكومنتانج سوف تنضم «بجموعها» الى الجيش الأحمر ٠

ولما أفزعت شيانج كاى شيك أنباء التآخى بين قوات الكومنتانج والشيوعيين فى الشمال قرر أن يتوجه بنفسه لمنطقة الاحتلال اليابانى ليرى مايجرى هناك ٠ وهكذا نجد «القائد الأعظم» يسير هو وأركان حربه الى سيان يوم ٧ من ديسمبر ومعهم مراقب يابانى ٠ ولما وصل الى سيان أبلغ الجنرال تشانج أنه حضر بنفسه ليوجه حملة شاملة ضد القوات الشيوعية ، وكان مما قاله انه أصبح من العبث الاعتماد على قوات الكومنتانج فى المنطقة لانهم قد «تلوثوا» بسبب اتصالهم الشخصى بالشيوعيين بل ان بعضهم أصبحوا معادين للنظام القائم ٠ وأبلغ تشانج أنه قد أعد ثلاثة جيوش مخلصة وانها فى طريقها الى الشمال على أن تكون مستعدة للعمل فى منتصف يناير ، وأخيرا سلم تشانج قائمة بأسماء الضباط الذين ذكرت المخابرات انهم قد «تلوثوا» بالشيوعية وأنه يجب استدعاؤهم واعدامهم ٠

كان الجنرال تشانج أبعد مايكون عن الشيوعية ولو أنه اتفق فى

الرأى مع القوات الشيوعية على العمل المشترك لطرد اليابانيين وتوحيد الصين ، كذلك كان على ولاء كامل لشيانج كاى شيك ، ولكنه ككل قائد آخر فى مثل هذه الظروف شعر بأن كاى شيك قد جرح احساسه وساءه أن القائد الأعظم ينتقد كفايته فى القيادة وزاد استياءه أن يقال له أن جيشه لايصلح لخوض المعارك وأن عددا كبيرا من ضباطه لايصلحون لمهمتهم العسكرية ، وفى ثورة غضبه وحيرته بعث رسالة الى شواين لاى يستشيره فيما يجب أن يفعله ٠

ولما أبلغت الرسالة الى ماوتسى تونج وشواين لاى لم يصدقا الخبر فهذا هو تشانج القائد العام لقوات الكومنتانج فى شمالى الصين ونائب القائد العام للقوات المسلحة الصينية بأجمعها ، يطلب اليهما أن يشيرا عليه فيما يجب أن يتخذه من اجراء حيال شيانج كاى شيك وجميع مشروعاته وبرامجه ٠

سولت للرجلين نفساهما بان يحرضا تشانج على القيام «بواجبه النبيل» وهو اغتيال «القائد الأعظم» ولكن ماو عاد فنبذ هذه الفكرة اذ رأى أن خير مايفعل الآن هو التعاون بين قوات الكومنتانج وقواته فى محاربة اليابانيين فهو من جهة لايستطيع الوقوف وحده أمام اليابانيين ، ومن جهة أخرى فهو يخشى على حكومته الشيوعية الناشئة أن تداس تحت أقدام قوات الكومنتانج الكبيرة ، وبجانب ذلك كله كان يود أن تنتشر بين الصينيين جميعا أنباء محاربته لليابانيين أعداء البلاد ، وبذلك يستطيع التخلص من وصمة «زعيم العصابات رقم واحد » ٠

رأى ماوتسى تونج بصائب فكره أن خير طريق يسلكه هو أن يشير على الجنرال تشانج بأن الوقت قد حان لتكوين جبهة شعبية لمقاومة اليابانيين. واذا فعليه أن يتصل بشيانج كاى شيك ويطلب اليه أن يلقى جانبا خصومته للشيوعيين وأن يعمل الجانبان معا للتخلص من العدو المشترك ، وما ان وصل ماو الى هذا القرار حتى أرسل شواين لاى لمقابلة الجنرال تشانج ٠

وفى ١١ من ديسمبر تحركت قوات ماوتسى تونج نحو مدينة سيان ورابطت على مشارف المدينة ٠ وفى أثناء الليل توجه تشانج الى الجناح الذى يقيم فيه شيانج كاى شيك وأبلغ « القائد الاعظم » أن أركان حربه وحرسه الخاص قد أبعدا وأن عليه أن يعتبر نفسه «فى حالة اعتقال» كذلك أفهم الجنرال تشانج القائد الأعظم بأن مصلحة الصين تقتضى اجراء محادثات جدية يشترك فيها كل من يهمهم الأمر لوضع سياسة عسكرية لانقاذ البلاد ٠

لم يسع شيانج كاى شيك الا الموافقة ، وفى ١٢ من ديسمبر ١٩٣٦ وجد نفسه جالسا الى مائدة مستديرة تضم الجنرال تشانج وشواين لاى ٠ عرض شواين لاى اقتراحات ماوتسى تونج التى تتضمن القائمة التالية ٠

١ ــ اعلان الهدنة بين قوات الكومنتانج والجيش الأحمر ٠
٢ ــ تكوين جبهة شعبية لمقاومه اليابان ٠
٣ ــ فى مقابل ذلك يلغى الشيوعيون حكومتهم ويعترفون بشيانج كاى شيك حاكما للصين من غير منازع ٠

٤ ـ يوافق ماوتسى تونج على الغاء اسم «الجيش الاحمر» ويسمى قواته «الجيش الصينى الثامن» على أن يوضع تحت قيادة شيانج كاى شيك

أرغى شيانج كاى شيك وأزبد حينما عرضت عليه مقترحات ماوتسى تونج وصرخ فى وجه شواين‌لاى قائلا : «انها وقاحة بذيئة من «زعيم عصابة» أن يقدم اقتراحات مثل هذه لرئيس‌الدولة وانه سوف يسحق الجيش‌الأحمر عاجلا أو آجلا ، وانه ليس هناك مايدعو للمساومة وكسب تاييد هذا الجيش» ٠

وقد التزم شواين لاى فى رده حدود الأدب ولكنه أشار الى أن اقتراحات ماوتسى تونج هى فى الحقيقة الشروط الوحيدة التي يوافق عليها الصينيون المخلصون لوطنهم لاطلاق سراح شيانج كاى شيك واعادته الى عاصمته نانكنج وأضاف شواين لاى قائلا أن من حقه ايضاح انه فى حالة رفض هذه المقترحات فقد يصبح من المستبعد تجنب حادث مشئوم يفقد فيه القائد الأعلى حياته ٠ والواقع أنه لم يكن هناك بد من قبول المقترحات الا اذا قبل شيانج كاى شيك أن يعرض نفسه للقتل ، خاصة وان الجنرال تشانج لم يكن يضمن نجاح أية خطة أخرى غير هذه ٠

وأخيرا فى ١٣ من ديسمبر سلم شيانج كاى شيك بالأمر الواقع ، ومن هذا التاريخ بدأ الشيوعيون والوطنيون (أتباع الكومنتانج) يعملون معا لهزيمة اليابانيين ٠ ولكن لا ينبغى أن ننسى أن هذا التحالف بين ماوتسى تونج وشيانج كاى شيك كان ظاهريا وأن كلا منهما كان يسعى لخديعة الآخر ٠

ان الذى كسب هذه الجولة هو ماوتسى تونج ، ذلك أن تضحيته باستقلاله ، واستقلال جيشه وحزبه تركت أثرا عميقا فى أفئدة الصينيين وبدءوا يعترفون صراحة لأول مرة أن الشيوعيين الصينيين ليسوا أقل وطنية من بقية الشعب ، وأهم من ذلك أن الطبقة المتعلمة التى لم تكن ترى فى الشيوعيين غير «زعماء لثورة أخرى للفلاحين» ، كما أنها كانت توجه انتقادا مرا الى ماوتسى تونج بسبب المذابح التى أقامها لملاك الأراضى فى اقليم كيانجسى ، بدأت ترى فيه وطنيا مخلصا بل وزعيما انشائيا ، وفى العقد التالى أخذت هذه الطبقة تعطف عليه وعلى أهدافه وبرنامجه الاصلاحى وأخيرا نقلت ولاءها بشكل اجماعى من شيانج كاى شيك الى «فلاح هونان» لم يكن فى مقترحات ماوتسى تونج فى الحقيقة أية تضحية، ذلك أن الطريقة العملية أمامه وأمام حزبه الشيوعى انه اذا أراد أن يصل الى مناصب الحكم هو وزمرته فان ذلك لن يتم الا على أنقاض الكومنتانج ، والقوة العسكرية الوحيدة التى تستطيع تحطيم الكومنتانج هى اليابان ٠ ولذلك فقد أعد ماوتسى تونج خطته على أساس أن يضع حدا لمهادنة شيانج كاى شيك لليابانيين وتنازله لهم عن الاراضى الصينية قطعة بعد قطعة فى سبيل كسب الوقت ٠ وكان ماو يعرف جيدا أنه لاقبل لقواته وقوات الكومنتانج مجتمعة بمواجهة الجيش اليابانى ، والنتيجة الحتمية لمثل هذه المعركة هى اجتياح اليابان لمعظم أراضى الصين، وفى هذه الحالة فسوف يعمد اليابانيون للانتقام من شيانج كاى شيك ورجاله ٠ حتى اذا ماجاء اليوم الذى تتم فيه هزيمة

اليابانيين يكون الجو قد خلا أمامه وبذلك يستطيع اقامة دولته الشيوعية على أنقاض جمهورية الكومنتانج ٠

وهنا تبرز أمام ماوتسى تونج مشكلة جديدة وهى : من الذى يتولى هزيمة اليابان ؟ ٠ أتتولاها روسيا ؟ قد يصبح من المستطاع أن تنمو قوة روسيا فى عشر سنوات وبذلك تعبىء جيشا للزحف من سيبريا ومساعدته ولكنه يكره فكرة قبول أى التزام لروسيا قد لايستطيع مستقبلا التحلل منه ، كما أنه من العسير اقناع جيوش التحرير الأجنبية بالعودة الى أوطانها واذا فليس أمامه الا البديل التالى : من المؤكد أن اليابان لن تقف عند غزو الصين ، بل ان ماقرأه من أنباء اليابان وما تلقاه من أولئك العائدين من طوكيو يؤكد أن الحكومة اليابانية قد عقدت النية على غزو الشرق الأقصى بأجمعه من منشوريا الى الملايو كذلك عرف أن بريطانيا وفرنسا وأمريكا ليست مسلحة تسليحا كافيا واذا فهى ليست على استعداد للدخول فى حرب ضد اليابان ، خاصة وان هذه الدول غارقة لأذنيها فى مشكلاتها مع هتلر وموسولينى فى أوربا وعلى الرغم من كل ذلك فان مالدى هذه الدول الثلاث من طاقة صناعية هائلة سوف تدعم قوتها وبذلك تستطيع صد القوات اليابانية وردها الى جزرها المزدحمة بالسكان ٠ ولم يطرأ على ذهن ماوتسى تونج مطلقا أن الاتحاد السوفييتى سوف يتحالف مع الدول الرأسمالية وأن يعمل الطرفان معا على تحرير الصين ، كذلك لم تخطر بباله مطلقا فكرة أن هؤلاء الحلفاء الجدد سوف يسلمون الصين المحررة الى شيانج كاى شيك ٠

هكذا كانت آمال ماوتسى تونج محصورة فى حرب طويلة الأجل يخسر فيها الكومنتانج زهرة رجاله وبذلك يسهل على ماو ورجاله الاستيلاء على الحكم فاذا انتقلنا الى منظر آخر من هذه الدراما التى تمثل على مسرح الشرق الأقصى نجد اليابان منزعجة لاستسلام شيانج كاى شيك للشيوعيين ، وهى لذلك تسعى جاهدة لاقناعه بأن يسحب كلمته بحجة أنه قبل اقتراحات ماوتسى تونج « تحت التهديد » واذا فقبوله لها باطل من أساسه وذكره اليابانيون بأنه مرتبط معهم بمعاهدات كما أنهم تعهدوا بالقضاء على العصابات المناوئة له ، كذلك قطع اليابانيون على انفسهم عهدا بأن يشتركوا مع شيانج كاى شيك فى حملة واسعة النطاق لسحق الشيوعيين اذا هو تبرأ من اتفاقية «سيان» مع شواين لاى وعاد الى حظيرة «التحالف الأخرى» كانت هذه العروض اليابانية اغراء قويا لشيانج كاى شيك خاصة وأن « أخاه الأكبر» ماوتسى تونج لايؤمن جانبه ، ولكن مما يذكر لهذا الرجل بالخير ، انه وفى بوعده ٠

وفى ٧ من يوليو تخلى اليابانيون عن محاولة اكتساب شيانج كاى شيك الى صفهم ، ثم هاجموا لوكوتشا وجنوب غربى بيكين ومن هناك زحفوا نحو الجنوب ، وفى ٣ من أغسطس كانت القوات اليابانية على مشارف مدينة شنغهاى فطالبت بتسليم المدينة طوعا دون قتال ، ولكن أدهشهم ان طلبهم قوبل بالرفض وصمدت الحامية الصينية فى المدينة أمام القوات اليابانية فى كفاية عسكرية وحماسة قوية ٠ ومما أذهل اليابانيين أن طابورهم الخامس فى المدينة أبلغهم أن سكان المدينة جميعهم وأصحاب المصارف والعمال وعمال النقل وموظفى الكومنتانج ، كلهم قد عقدوا النية على الصمود

أمام القوات المحاصرة بل أن الاسرات الكبرى الاربع أخذت تحارب بجانب قوات الجيش الشيوعي .

وبينما كان اليابانيون خارج أسوار شنغهاى اذ تولى صهر شيانج كاى شيك نشر تفاصيل اتفاقية سيان (التى تم الصلح فيها بين الكومنتانج والشيوعيين) مما آثار غضب اليابانيين الى درجة كبيرة ، فقدموا احتجاجا الى السفير الامريكي فى طوكيو بأن هذا الاجراء بعيد عن الشرف .

وفي يوم ٣٠ أغسطس عبأت الحكومة الشيوعية الصغيرة فى اقليم شنسى ٣٠ ألف جندى تحت قيادة تشوتيه وزحف الجيش رأسا الى ميدان المعركة ضد اليابانيين . كانت هناك قوة يابانية فى اقليم شانسى وجهتها السير جنوبا بشرق للانضمام الى الجيش اليابانى الذى يحاصر شنغهاى ولم تكن لدى هذه القوة اليابانية أية فكرة من وجود قوات تشوتيه على مقربة منها . وفى ليلة ٢٤ من سبتمبر وحينما كانت الجنود اليابانية مستغرقة فى النوم هاجمهم جيش تشوتيه على حين غرة ، ولم يأت الصباح حتى وجد اليابانيون أنفسهم وقد طوقتهم هذه القوة المغيرة وبعد معركة قصيرة لم تستطع القوات اليابانية الصمود فلم يسعها الا التسليم وكانت هذه أول هزيمة منى بها اليابانيون منذ بدءوا «غزو الشرق الأقصى» .

كان لهذا النصر الذى أحرزه الجيش الصينى الثامن (قوات تشوتيه) فعل السحر فى الصين كلها ، وانتهز ماوتسى تونج هذه الفرصة فطالب بالاعتراف لقوات العصابات فى اقليمى كيانجسى وهونان على اعتبار أنها قوات نظامية، وأن يطلق عليها اسم الجيش الرابع. وقد استطاع الجيش الرابع الجديد أن يقتحم المناطق التى احتلها اليابانيون فى جنوبى اقليمى كيانجسى وآنهوى ، وأن يشتت القوات اليابانية حينما التقى معها ، كانت القوات الصينية الجديدة تعرف كل شبر فى الأرض وكل «سمكة فى النهر» ولكن اليابانيين كانوا يفوقونها عددا وسلاحا واذا فالمعركة معركة كرامة وطنية ومعركة دعاية .

استطاع ماوتسى تونج بجيشيه الثامن والرابع وأربع أو خمس مجموعات من قوات العصابات أن يحل محل قوات الكومنتانج فى امتلاك زمام الموقف ، وكان يتوقع من وراء ذلك أن يحظى بنوع من الاعتراف من الحكومة السوفيتية ، ولكن حينما صدرت كلمة روسيا لم تكن لمصلحته . ففى ٢١ من اغسطس ١٩٣٧ وقع ستالين معاهدة صلح ومنع اعتداء مع شيانج كاى شيك ، وافق الاتحاد السوفيتى بمقتضاها على استنكار العدوان اليابانى ، كما وافق على تزويد كاى شيك بالأسلحة والطائرات فى «كفاحه البطولى» ضد العدوان اليابانى .

ولما بلغت ماوتسى تونج أنباء هذه الاتفاقية اعترته الحيرة والارتباك الشديد . لقد تلقى دعوة ليشهد حفلة توقيع المعاهدة ولكنه رفض تلبيتها وبدأت شكوكه فى رفاقه السياسيين فى موسكو تزداد ، حتى ليوشاوتشى صديقه الوفى أوشك أن يفقد مكانته لدى ماو الذى أبعده وجعل منه مندوبا سياسيا للجيش الرابع كمظهر من مظاهر الانتقام من الاتحاد السوفيتى .

لقد ارتكب المكتب الصينى فى موسكو أشنع الأخطاء بارتباطه

بشيانج كاى سيك بدلا من ماوتسى تونج ، وهذا دليل على سوء تقديره للحالة القائمة فى الصين • ومثلهفى ذلك مثل الدول الغربيةسواء بسواء. حقيقة أن بعض وحدات الكومنتانج كانت على جانب كبير من الكفاية الحربية وخاصة القوات التى كانت تدافع عن شنغهاى فى أثناء الغزو اليابانىولكن جيش شيانج كاى شيك فى مجموعه لم يكن فى عام ١٩٣٧ على مستوى مرض من الكفاية العسكرية اذا ماقورن بقوات الشيوعيين فى ذلك الوقت. وهكذا كان ستالين بعقده اتفاقية ٢١ من أغسطس مع شيانج كاى شيك يقامر على جواد خاسر •

فى نوفمبر ١٩٣٧ اضطر كاى شيك الى الجلاء عن عاصمته نانكنج والارتداد مسافةاربعمائة ميل الى هانكاو ، وفىالعامالتالى طرد منهانكاو وارغم على الاقامة فى شونكنج ، وما بلغ عام ١٩٣٨ النهاية حتى انتهى الدور الايجابى لقوات الكومنتانج ضد الغزو اليابانى •

كانت القوات اليابانية فى أوائل عام ١٩٣٩ قد احتلت جميع شمالى الصين والقسم الأوسط من وادى نهر يانجتسى والمنطقة الساحلية كلها • كذلك أصبحت جميع المدن الكبرى والمراكز الصناعية والتجارية الهامة فى أيدى اليابانيين • وكان كل ماتبقى لدى شيانج كاى شيك من أمل هو التمسك بالسهل الغربى والانتظار حتى تنشب حرب عالمية تشترك فيها اليابان وتبوء بالهزيمة وكان يتفق فى الرأى مع ماوتسى تونج من أناليابان تهدف الى انشاء امبراطورية ضخمة فى الشرق الأقصى وانها سوف تدخل فى معركة مع الدول الاستعمارية ان عاجلا أو آجلا •

فاذا انتقلنا الى ماوتسى تونج نجده الآن قد أصبح المسئول الأول عن أى عمل ايجابى ضد اليابانيين • وعلى الرغم من أن ماو لم يتلق أية معونة من روسيا ، وان كاى شيك كان يحول دون وصول أية معونة أخرى اليه فقد استطاع أن يرهق القوات اليابانية بحربالعصابات ، وفى الوقت نفسه يكون جيشا نظاميا يستطيع به يوما ما طرد اليابانيين والكومنتانج معا من أراضى الصين • وحينما كانت قوات ماو تشكل خطرا حقيقيا على الادارة اليابانية فى مناطق الاحتلال، كان ماو نفسه يقوم بدعاية قوية بينالصينيين المترددين فى ولائهم بينه وبين شيانج كاى شيك واستطاع بالتدريج أن يضم الى جانبه الجناح اليسارى من أعضاء الكومنتانج وكانت تشنج لنج أرملة الدكتور صون يات سن تساعده فى عمله خفية ، ولم يكن مسلكها هذا نتيجة اقتناع تام منها بحسن نوايا ماوتسى تونج ولننقل هنا ماصرحت به لأحد المراسلين : «أنا لاأثق فى أى سياسى صينى اليوم ، ولكن شكوكى فى ماوتسى تونج أقل من شكوكى فى الآخرين» • ومما ساعد ماو على كسب ثقة الطبقة المثقفة ماارتكبهبعض زعماء الكومنتانجمن خيانة للقضية الوطنية بانضوائهم تحت لواء اليابانيين ولماتمكن ماو أخيرا منضم المثقفين والفلاحين الى جانبه اطمأن الى المستقبل ، وعلى الرغم من عجز شيانج كاى شيك بصفته قائدا عسكريا فقد وجد لديه فسحة من الوقت ليثأر لنفسه من ماوتسى تونج ، ففى نوفمبر ١٩٣٩ شن هجوما عاما على اقليم شنسى الذى كان يضم حكومة ماوتسى تونج السرية ، وكان هدفه من ذلك أن يحطم القوى العسكرية والمدنية لهذه الحكومة،وكذلك هاجم قوات الجيش الثامن

التابع لماوتسي تونج والقوات المحاربة لليابانيين التي كانت تحت قيادة شيوعية ، ولما احتج شواين لاى على هذه الاجراءات المخالفة لنص التحالف، رد شيانج كاى شيك بأنه لايزال من واجبه المحافظة على القانون والنظام ٠

وفي ٢٠ من أغسطس ١٩٤٠ هاجمت عدة فرق من الجيش الثامن مواصلات اليابانيين في شمالى الصين وقطعت عددا من الخطوط الحديدية ثم نشبت معركة بينها وبين الجيش اليابانى كانت نتيجتها هزيمة اليابانيين وفى الفترة من ٢٠ من أغسطس الى ٥ من ديسمبر استطاعت قوات الجيش الثامن أن تشل حركة ٤٠ الف جندى يابانى وتدمر ٣٠٠ ميل من الخطوط الحديدية والف ميل من طرق السيارات ٠ وقد انتفخت أوداج ماوتسي تونج وتشوتيه بهذا النصر فأبلغوا أنباءه الى المراقب العسكرى الروسى والمراقبين العسكريين الغربيين فى الصين ٠

وفى ٢٢ من يونيو ١٩٤١ هاجمت ألمانيا الاتحاد السوفيتي وفى ٨ من ديسمبر أعلنت اليابان الحرب ، بطريقة فعلية لارسمية ، على الولايات المتحدة بمهاجمتها للاسطول الامريكي فى بيرل هاربور ٠ وكانت السياسة العسكرية للمحور القضاء العاجل على قوات العـــدو ، ولذلك تلقت القوات اليابانية فى الصين تعليمات بأن تنتهى من عملياتها فى الصين فى شهر ، ثم تتجه بعد ذلك الى جنوب شرقى آسيا ، وكان من نتيجة العمليات الحربية اليابانية العنيفة فى الصين أن هبط عدد الصينيين فى المناطق التى لاتزال خالية من الغزو اليابانى الى خمسين مليون نفس فقط ٠

وقد فقدت قوات الكومنتانج روحهـــا المعنوية فانضم نحو نصف مليون جندى منها الى القوات اليابانية واخذ يحارب تحت لوائها ، أما الجيش الثامن التابع لماوتسي تونج فقد ظل يقاوم ولكنه فقد ربع عدده فأصبح ٣٠٠ الف جندى بعد أن كان ٤٠٠ الف ٠

أما ماوتسي تونج فقد حوصر فى جبال شنسى وأصبح موقفه مشابها لمـا كان عليه فى الفترة من ١٩٣٠ الى ١٩٣٤ وقت ان ضرب شيانج كاى شيك الحصار على قواته فى مرتفعات كيانجسى ٠ وفى هـــذه الفترة نشر ماوتسي تونج كتيبا عنوانه « عن الديموقراطية الحديثة » ٠

وجاء فى هذا الكتيب ان ماوتسي تونج يجمع بين المبادىء الماركسية اللينينية والتراث التاريخى للمجتمع الصينى ٠ ومعنى ذلك أن الثـــورة الصينية تمر بمرحلتين وهما مرحلة الثورة الديموقراطية الحديثة ومرحلة الثورة الاشتراكية ٠ وفى أثنـــاء المرحلة الديموقراطية يتـــخذ الحزب الشيوعي الصينى برامج سياسية واقتصادية وثقافية تخـــالف كلا من الرأسمالية والاشتراكية وذلك لضمان مستقبل الثورة الاشتراكية ٠

وقد أثارت هذه الوثيقة اســـتياء أصـــحاب المذهبية الماركسية الصحيحة من أعضاء الحزب الشيوعى الصينى ، كما أثارت سخط موسكو على ماوتسي تونج فقد اعتبرها الاتحاد الســـوفيتى خروجا على المذهبية الماركسية اللينينية ان هناك نوعا وحيدا من الثورة وتلك هى الثـــورة الروسية السوفيتية الاشتراكية ٠ فكيف بهذا الرجل (ماوتسي تونج) ينشر مبادىء ثورة جديدة ثم يدعى بعد ذلك انه شيوعى ٠ ولما امتنع فى اقليم شنسى عن تطبيق نظام المزارع الجماعية وسمح بملكية المصانـــع

وبيقاء الصناعات الصغيرة ملكا للقطاع الخـــاص ، أثار فزع المتمسكين بأصول المذهب الشيوعي • كان هؤلاء في واد وماوتسي تونج في واد آخر فهم يريدون تطبيق الماركسية اللينينية تطبيقا كاملا ، أما ماوتسي تونج فكان يسعى الى وضع نواة مجتمع صيني مخلص لبلاده تنطوي تحت لوائه كل الطبقات ، كذلك ثبت لماوتسي تونج أن غلة الأرض الزراعية تتضاعف تحت نظام تعـاوني يحتفظ فيـه كل فلاح بملـكيته الخـاصة لأرضـه ، ويتوقف على ذلك نجاح المشروعات الصناعية الخاصة • ولما اعتقد هؤلاء المتزمتون أن ماوتسي تونج قد انحرف عن المذهبية الصحيحة بدءوا يعملون على تقويض دعائم سلطته •

ما كان ماوتسي تونج ليمانع في مناقشة اى موضوع مع أي شخص وفي أي وقت شاء ذلك الشخص ، أما ان يتحدى انسان سلطته فهذا ما لم يسمح به مطلقا انه مزيج من سعة الأفق الواعية واحترام العقيدة ، ولكنه في كلتا الحالتين سيد بيته والمسيطر على سلوكه ، وما ان بلغته أنبـاء للتهامسين والمتآمرين حتى أمر باعدامهم جميعـا • وهكذا أعدم ١٧٢ من الزعماء الشيوعيين فيما أطلق عليه « حملة التقويم لسنة ١٩٤٢ » •

وما ان انتهى ماوتسي تونج من القضـاء على « الاتجاهات المنحرفة حتى وجد قواته أمام عملية اجتياح كاسح من اليابانيين ، ففي مايو ١٩٤٢ بدأت القوات اليابانية تبني حصونا منفصلة داخـل اقليم شنسي (على طريقة شيانج كاي شيك في اقليم كيانجسي) وبعد أن تنتهي من بنـاء هـذه الحصون تقيم سياجا حـول القرى ثم تدخـل القرية بيتـا بيتـا وترغم القرويين على ملء بطاقات شخصية ، وكلما داخل القوات اليابانية شك في شخصية أحد القرويين أو اشتبهت في أن له ميولا نحـو الجيش الأحمر أعدمتـه رميـا بالرصـاص • ولم يأت شهر أغسطس حتى كان اليابانيون قد بنوا ١٥٠٠ حصن وطهروا ثمانية آلاف قرية من أنصـار ماوتسي تونج •

أخذ ماو يقدح زناد فكره في التخلص من هذا الخطر الياباني الداهم على اقليم شنسي وأخيرا هداه تفكيره الى خطة ناجحة • كانت الأسيجة التي أقيمت حول القرى مصنوعة من الأغصـان المضفورة ، وكان ماو يعلم ان شهر سبتمبر هو نهاية فصل الجفاف في شمالي الصين وأن هذه الأغصان لا بد وأن تكون قد جفت في هذا الشهر ، فأمر بعض الفصائل الباقية من جيشه الثامن بأن تختبيء في السهول المحيطة بمنطقة عمليات الجيش الياباني ، وفي سبتمبر خرجت هذه الفصائل من مخابئها واشعلت النار في الأسيجة وامتد اللهب مئات الأميال فشوى آلاف اليابانيين شيا وأحرق عددا كبـيرا من سياراتهم • حقيقة أن بعض القرويين احترقوا في هذه المغامرة الجريئة ولكن هذا أمر لم يكن من المسـتطاع تجنبه • وقد علق ماوتسي تونج على ذلك قائلا : لقد أنقذنا طليعة الثورة بأقـل خسارة في الأرواح الصينية •

ولما يئس اليابانيون من القضاء على عصابات ماوتسي تونج عرضوا مكافأة قدرها مليون دولار لمن يأتيهم برأس هذا البطل الثائر عليهم • وفي اكتوبر ١٩٤٣ وجهت القيادة اليابانية في الصين حملة قوامها عشرة آلاف

جندي ومعها « فرقة مراقبة خاصة » من خيرة الضباط لمهاجمة قوات ماوتسى تونج فى جبال تايوويه ، وكانت القيادة تعلم مقدما أن ماو سوف يجد وسيلة للقضاء على هذه الحملة ، ولكن القيادة سوف تستفيد بتضحية هؤلاء الجنود إذ أن فرقة المراقبة سوف تدرك أساليب ماوتسى تونج فى حرب العصابات ، وما ان وصلت الحملة معاقل الثوار حتى أبيدت عن آخرها باستثناء ثلاثة من المراقبين فقط • ليس هذا فقط بل ان ماو ومساعده الأيمن القائد لينى بياو قد أتقنا أساليب حرب العصابات لدرجة أن القوات المحاربة اليابانية التى خصصت لمواجهة هذه العصابات كانت أكبر من القوات التى خصصت لمواجهة جيوش الحلفاء الغربيين مجتمعه فى جنوب شرقى آسيا •

وفيما بين عامى ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ بدأت روسيا تساعد ماوتسى تونج فارسلت كميات محدودة من الأسلحة والذخيرة الى شنسى مباشرة كما أرسلت اليه كتاب « حرب العصابات » الذى يتضمن تجارب الروس فى شن حرب العصابات على الجيوش الألمانية فى أوكرانيا • اخذ ماو والقائد لينى فى قراءة هذا الكتاب وما انتهيا منه حتى صاح لينى قائلا : نشكر الظروف التى لم تهيىء لنا الحصول على هذا الكتاب مبكرا اذ لو أننا حصلنا عليه عام ١٩٤٠ لكنا اليوم فى عداد الهالكين •

وفى عام ١٩٤٤ قامت القوات اليابانية بمحاولة أخيرة لإخضاع الصين كلها فركزت عملياتها فى هذه المرة على اقليم هونان وكوانجسى وكوانتونج التى سيطر عليها الكومنتانج ، ولكنها كانت محاولة يائسة اذ أن الموقف أخذ يفلت من بين يديها وهذه الحقيقة كان يدركها معظم اليابانيين • وفى خريف ١٩٤٤ بدأت قوات الكومنتانج والقوات الشيوعية هجوما مضادا على اليابانيين ، وكانت الروح المعنوية عالية بين قوات ماوتسى تونج فى الشمال حيث تدفق عليها سيل من الأسلحة والذخائر • وهذا على النقيض من قوات شيانج كاى شيك فى الجنوب حيث أوشكت روحها المعنوية على الانهيار الكامل • ولذلك أصدر كاى شيك أمرا بتكوين جبهة متحدة تقوم بالهجوم المضاد • وفى ربيع ١٩٤٥ كانت الجبهة المتحدة قد حررت جانبا كبيرا من أراضى الصين وارتفع رقم السكان الذين تم تحريرهم الى مائة مليون مرة أخرى ، كذلك أدمج «الجيش الثامن فى الجيش الرابع والقوات الصينية المتحالفة ضد اليابانيين فاصبحت تقرب من مليون جندى نظامى يضاف اليها مليونان من الميليشيا ، واستطاعت هذه القوات الصينية أن ترد اليابانيين فى عزم وثبات نحو الشمال والشرق •

وفى ٨ من أغسطس أعلن الاتحاد السوفيتى الحرب على اليابان واحتل منشوريا ، وفى ٩ من أغسطس بدا لماوتسى تونج قرب نهاية الحرب فأصدر أوامره بشن هجوم شامل على ما بقى من قوات اليابان فى شمالى الصين ، ولم يمض شهر حتى أعلنت حكومة طوكيو التسليم ، ولكن جيش التحرير الشعبى الذى كان تحت امرة ماوتسى تونج استطاع ابادة ربع مليون جندى يقودهم ضباط يابانيون وتحرير ثمانية عشر مليونا من الصينيين فى اللحظات الأخيرة •

ولما رأى ماوتسى تونج علامات النصر تبدو فى الأفق القريب أدرك انه قد آن الأوان لتخطيط مستقبل الصين • وأول ما فعله فى هذا السبيل هو شن هجمات سريعة على اليابانيين حتى تصبح الأراضى الصينية التى فى أيدى الروس فى أضيق مساحة ممكنه وذلك لكى يتجنب وقوع حزبه تحت سيطرة الاتحاد السوفيتى فى المستقبل • ثم دعا الحزب الشيوعى الصينى لعقد مؤتمر وبحث الخطوات التى تتبع فيما بعد •

وقد طرح ماو امام المؤتمر الأسئلة الآتية : هل أصبحوا من القوة بحيث يستطيعون حكم الصين كلها وحدهم والتخلص نهائيا من شيانج كاى شيك ؟ ماذا ينبغى أن تكون عليه علاقاتهم مع بريطانيا وأمريكا اللتين لولا ما قدمتاه من مساعدات فى الشرق الاقصى لكان انتصار الصينيين مستحيلا ؟ • ما رأى الاتحاد السوفيتى فى الموقف ؟ ما الذى ينتظر أن يسلم به شيانج كاى شيك للشيوعيين بعد أن أصبح ثلثا الصين تحت سيطرتهم ؟ •

بينما كان ماوتسى تونج ومؤتمره يناقشون هذه المسائل جميعها ويبحثون عن اجابات للأسئلة المطروحة ، اذ بطريقة التسليم اليابانية تجيب على كل أسئلتهم ذلك ان الولايات المتحدة اقترحت أن يتم تسليم الأراضى التى يقودها الضباط اليابانيون الى الكومنتانج • وفى الحال نقل ضباط شيانج كاى شيك بالطائرات الى عواصم الأقاليم لاتمام عملية التسليم •

كانت هذه العواصم فى أيدى قوات الكومنتانج ، ولكن المناطق الريفية خارج هذه العواصم كانت فى أيدى قوات التحرير التابعة لماوتسى تونج ، وقد تمت عملية التسليم فى المدن دون أية معارضة ، وكان مفروضاً أن ينفذ ماو قرار التسليم دون أن يعارض هو الآخر ، ولكن معنى ذلك أن يجنى الكومنتانج ثمار الكفاح الطويل الذى قامت به قوات التحرير الشعبية ضد اليابانيين • وقد حاول ماوتسى تونج جس نبض روسيا لعلها تفعل شيئا لمصلحة الشيوعيين الصينيين غير أن روسيا أفهمته أن تسليم اليابانيين الى تشانج كاى شيك والكومنتانج هو الطريق الصحيح ، بل ذهب الاتحاد السوفيتى الى أبعد من ذلك بأن جلت القوات السوفيتية عن منشوريا وسلمتها الى الكومنتانج •

هكذا وجد ماوتسى تونج نفسه فى أواخر أغسطس ١٩٤٥ وقد هبط مركزه من بطل فاتح الى قائد عادى أو من يدرى فقد يهبط أكثر من ذلك فيصبح مرة أخرى فى صف زعماء العصابات •

ورأى ماو أن كثيرا من رجال الكومنتانج قد ملوا زعامة شيانج كاى شيك وخاصه بعد انزوائه فى شيونكنج فى حين كانت قوات ماو تشن الهجوم تلو الهجوم على قوات الغزو اليابانية ، كذلك أدرك أن الصينيين عن بكرة أبيهم لا يريدون حربا أهلية أخرى ، ولذلك استقر رأيه أخيرا على الدخول مع شيانج كاى شيك فى مساومة •

وفى ٢٨ من اغسطس ١٩٤٥ تزعم ماوتسى تونج وفدا من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى للاشتراك فى محادثات بين الكومنتانج

والشيوعيين بشأن مستقبل الصين • وقد اتخذ هذه الخطوة بتسرع ودون استشارة شواين ـ لاى الذى اعتقد أن ماو سوف يغتال فى هذه المرحلة • وقد وجد ماو أن كاى شيك تحت ضغط شـــديد من رجال الكومنتانج للوصول الى اتفاق مع الشيوعيين حتى لا تثار فى البــلاد حرب اهلية جديدة • ومن ناحية أخرى كان الجنرال الأمريكى جورج مارشال قد أشار على شيانــج كاى شيك بأن خير ما يفعله لمصلحة بلاده فى الظروف التى كانت تمر بها حين ذاك هو ايجاد نوع من الائتلاف مع الشيوعيين الى حين يرتفع مستوى معيشة الشعب الصينى وبذلك لا يرى ما يجذبه نحــو الشيوعية • وفى ١٠ من أكتــوبر ١٩٤٥ تم الاتفــاق بين الكومنتانج والشيوعيين على انشاء حكومة ائتلافية ، ونص الاتفــاق على أنه يجب تجنب الحروب الأهلية لأى سبب كان ، وبمــا أن الطرفين قد اقرا ذلك فعليهما أن يلقيا جانبا ما بينهما من خلافات • وجاء فى الاتفاق أنه يجب أن تبعث الصين من جديد على أن يسودها الرخاء والحرية وأن تقوم عـلى أسس من السلام ، والديموقراطية والوحدة القــومية ، وينبغى تشكيل لجنة مشــتركة لتسهر على تطبيق النظم الديموقراطية ، ووافق الحـزب الشيوعى على الجلاء عن ثمان من التسع عشرة منطقة التى تم تحريرها بما فى ذلك اقاليم آنهــوى وكيانجسى وتشكيانج ، وتعهــد ماوتسى تونج بتخفيض جيش التحرير الشعبى بنسبة ٢٠٪ فى مقــابل تسريح جزئى لقوات الكومنتانج •

لم يأت المؤتمر العام الذى عقده الكومنتانج والشيوعيون لوضــع اسس ديموقراطية للحــكم بثمرة طيبة فالطرفان لم يفهما معنى الحكم الديموقراطى ، كما أنهما يؤمنان بأن من الممكن قيام تعايش مشترك بينهما لفترة طويلة • وكان كثير من الأمريكيين يعتقدون أن الائتلاف سيؤدى الى تفكك الحزب الشيوعى ، فى حين اعتقد الجانب السوفيتى ان هذا الائتلاف سيؤدى الى تفكك البورجوازية الديموقراطية التى يمثلها الكومنتانج •

كانت الخطة الرسمية للسياسة الأمريكية هى تأييد هذا الائتـلاف القصير الأجل ، ولكن أمريكا أخذت تضغط على شيانج كاى شيك من وراء ستار كى يقوم بحملة نهائية ضد الشيوعيين • وهكذا يدرك القارى أن بذور الحرب الباردة بين الشرق والغرب قد نبتت على أرض الصين ، كما أن الصين أول من اكتوى بنسماتها الحارة •

بمجرد ان اطمأن شيانج كاى شــيك الى أن دوائر واشنطون تؤيد قيام حملة قوية ضد الشيوعيين ، شرع يدبر خطط الغدر ، وقبل أن يجف المداد على أوراق اتفاقية الائتلاف المعقودة بينه وبين ماوتسى تونــج • فى ١٠ من أكتوبر ١٩٤٥ نشر سرا كتيبا أطلق عليه اسم « مبحث فى القضاء على العصابات » وكان موضوع الكتاب الحملة القادمة لابادة الشيوعيين • وعقب على ذلك بشن هجوم على جيش ماوتسى تونج حين بدء انسحابه من المناطق التسع المحررة طبقا للاتفاق وقد اشترك فى هذا الهجوم الشامل على الشيوعيين نحو مليونى جندى من الكومنتانج ، ركزوا هجماتهم على الجيش الأحمر فى اقليمى شنسى وشاهار •

. وقد باء الهجوم بالفشل لأن الجيش الأحمر كان حسن التنظيم والتدريب وروحه المعنوية عالية فضلا عن أن كثيرا من جنود الكومنتانج نفروا من القيام بعمليات عسكرية قد تكون بداية لحرب أهلية جديدة .

وحينما تلقى ماوتسى تونج أنباء هذا الغدر أبدى من الأناة وبعد النظر ما أثار الاعجاب ، فقد رفض أن « يلقى قفازه » وأعلن أنه يفوض الأمر للشعب الصينى ليقرر من هم الخونة ومن المخلصون للوطن . وفى هذه الأثناء كان ليوشاوتشى قد أعد العدة لتكوين « الرابطة الصينية لمناهضة الحرب الأهلية» وكان حريصا على ان تكون غالبية الأسماء البارزة بين أعضاء الرابطة من الزعماء الشيوعيين .

وحين عقدت الرابطة أول اجتماعاتها كان فى استطاعتها أن تستعيد بعض الثقة التى بعثتها حكومة الائتلاف من قبل ، وكان فى استطاعة شيانج كاى شيك أن يصدر أوامره باعدام بعض القواد الذين شنوا الحملة على الشيوعيين وبذلك يتنصل من تحمل مسئولية هذا العدوان ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك كما أنه لم يتح الفرصة أمام الرابطة لعمل شىء . وفى ٢٥ من نوفمبر اجتمع بعض طلبة المدارس والجامعات وأعدوا قرارات تمهيدا لارسالها الى الرابطة ، وكان الاجتماع سلميا لا ضرر منه . ولكن البوليس السياسى حاول القبض على المجتمعين . واستطاع زعماء الاجتماع الفرار ثم انتقموا من البوليس بعقد اجتماع عام ضم الطلبة والمعلمين والقيت فيه « محاضرات عن الامور الجارية فى الصين » . وفى هذا الاجتماع أصدر الطلبة قرارات شديدة اللهجة وصمت حكومة شيانج كاى شيك بأنها «دكتاتورية بوليسية» . ولما كان الاجتماع سلميا فلم يجد البوليس مبررا للتدخل ولكن وكالة الانباء التابعة للكومنتانج أشاعت ان الطلبة جميعا من « رجال العصابات الشيوعيين » وهنا ثار الطلبة وتجمع منهم فى الشوارع ثلاثون الفا حاولوا احراق وكالة الانباء وأعلنوا الاضراب لمدة ثلاثين يوما حتى تعود حكومة الائتلاف الى العمل وأن يستبعد شبح الحرب الاهلية نهائيا . وواجه بوليس الكومنتانج (تحت اشراف شيانج كاى شيك نفسه) هذه الحركة باطلاق النار على الطلبة فأخذ هؤلاء يردون على عدوان البوليس بكل ما وصلت اليه أيديهم من سلاح واعتصموا بالحرم الجامعى وظل الاضراب قائما من نوفمبر الى أوائل يناير . وامتدت حركة الاضراب الى جميع المدن الصينية حيث أعلن الطلبة تضامنهم مع اخوانهم فى كون منج . وقد أشار بعض أعضاء المكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى على ماوتسى تونج بأن يمزق اتفاقية اكتوبر ويعلن الثورة النهائية ، ولكنه كان فى انتظار كلمة من موسكو اذ رأى انه لا ينبغى أن يخاطر بالدخول فى حرب أهلية الا اذا كان لديه ما يكفى من السلاح والذخيرة ، فضلا عن أنه مادام الفريق المعتدى عليه باقيا فان الصينيين سوف يهرعون الى الجبهة الشعبية من كل صوب وحدب . أما موسكو من ناحيتها فانها أخذت فى التلكؤ ، ذلك ان الكرملين كان يعتقد ان وجود شيانج كاى شيك ضرورى كمقدمة « للثورة الصحيحة » ولعل ستالين كان لا يزال عند رأيه الذى سبق أن صرح به الى هارى هوبكنز حيث قال : « يجب علينا ألا نأخذ الشيوعيين الصينيين مأخذا جديا » .

وعلى الرغم من تلكؤ موسكو فقد أفزع شيانج كاى شيك إتساع نطاق حادث أول ديسمبر وتحوله الى احتجاج وطنى فبادر بالتفاهم مع الطلبة وأصدر قرارا بوقف اطلاق النار على الشيوعيين وقدم ضمانا بألا تنشب حرب أهلية فى الصين ·

ما كان ماوتسى تونج ليخدع بقرارات كاى شيك فى هذه المرة ، فأوقف الجلاء عن شنسى وأخذ يرقب الحوادث ولكن لم يحدث ما يثير شكوكه فى الشهرين التاليين · ويذكر القارىء أن الجنرال جورج مارشال كان قد نصح شيانج كاى شيك عام ١٩٤٤ باقامة حكومة ائتلافية مع الشيوعيين ، وقد عاد الجنرال مارشال الآن ينصح كاى شيك مرة أخرى بألا يغامر بزج نفسه فى حرب مع الشعب الصينى وحاول أن يثبت له بشتى الطرق ان الكومنتانج قد فقد تأييد الغالبية العظمى من أنصاره فى داخل الصين وخارجها ، كذلك حاول مارشال أن يفهم أصدقاء شيانج كاى شيك ان كراهية هذا الرجل العجوز للشيوعية أعمته عن ادراك حقائق الموقف العسكرى ، ولكن محاولاته جميعها فشلت ، وعاد مارشال الى واشنطون ليقدم تقريرا لحكومته بأن حكومة شيانج كاى شيك فاسدة ضعيفة يجللها الخزى والعار · ولما كانت الولايات المتحدة فى ذلك الوقت تسير على سياسة « حصر الشيوعية » فقد قبلت رأيه ولكنها وجهت اليه السؤال التالى : « اذا كان شيانج كاى شيك غير صالح ، فمن غيره يستطيع تخليص الصين من الشيوعية ؟ » وهنا لزم الجنرال مارشال الصمت · فقبل مغادرته الصين بيوم واحد صدر قرار بأن وجود « عصبة الاحرار الديمقراطيين فى الصين » غير قانونى ، وكانت هذه هى الهيئة الوحيدة التى يعتبرها مارشال بديلا للكومنتانج فى حكم الصين · وما دامت الولايات المتحدة تعتنق مبدأ « حصر الشيوعية » وأن فى استطاعتها أن تنفذ ذلك بالقوة ، فلم يبق أمامها الا أن تواصل تأييدها لشيانج كاى شيك مهما تكن أخطاؤه ·

فى ١٠ من يوليو أعلن كاى شيك انه سوف يعد حملة أخيرة لتخليص الصين من العصابات الشيوعية ، وبعد يومين قامت قواته بهجوم عام على طول المجارى العليا لنهر اليانجتسى · وما أن أعلن كاى شيك حملته النهائية على الشيوعية حتى وقعت معه الولايات المتحدة معاهدة للصداقة والملاحة والتجارة · وفى اليوم التالى بعث الاتحاد السوفييتى تحية أخوية الى ماوتسى تونج معلنا قراره النهائى بتقديم كل المساعدات للحزب الشيوعى الصينى « فى كفاحه ضد الاستعمار الفاشى » ·

هكذا بدأت الحملة النهائية لشيانج كاى شيك ضد الشيوعية وببدايتها انتهى عهد التحالف بين روسيا وأمريكا ووضعت أسس جديدة لعلاقاتهما المستقبلة · أما القائد الاعظم فقد أخذ يتحسس طريقه نحو فرموزا ·

الفصل الثامن

حينما تخلى شيانج كاى شيك عن كل مظهر للتعـــاون مع ماوتسى تونج والشيوعيين ، كان على ثقه من أنه سوف يغزو الصين كلها فى مدى خمسة أشهر ، كان لديه جيش مكون من ٤ر٣٠٠ر٠٠٠ جندى حسنى التدريب ، وكان قواده يعرفون طبيعة الارض معرفة جيدة ، وقد قطعت امريكا على نفسها عهدا صريحا بأن تقدم له عونا كاملا فى حملته الشاملة للقضاء على الشيوعية ، وهذا التعهد الامريكى كان أقوى لديه من أى سلاح آخر ، وكان شيانج كاى شيك على ثقة من أن أمريكا صادقة فى وعدها له بتقديم المعونة الكاملة ، ذلك أن محور السياسة الخارجية الامريكية طوال عشر سنوات كان الخوف من التوسع الشيوعى ، ويعزز موقفها ضد الشيوعية فى الصين ضغط رجال الاعمال الامريكيين الذين فقدوا كثيرا من مصالحهم خلال الحرب الصينية ، وهؤلاء على ثقة من أن حقوقهم ســوف تعاد اليهم كاملة اذا ما بقيت الصين تحت حكم الكومنتانج فى رعاية الولايات المتحدة .

هذا الخليط من الخوف والطمع كان السبب الأول فى تزويد قوات شيانج كاى شيك بالسلاح والذخيرة والاغذية الكافية بل بأكثر مما يلزم .

اما قواد كاى شـــيك فهم الآخرون كان لديهم ما يبرر التفاؤل ، فخصومهم الشيوعيون وان كانوا مهرة فى حرب العصابات الا أنهم أقل كفاية فى معركة مكشوفة ، ومن ناحية أخرى كان الكومنتانج يسيطر على أقاليم صينية تضم ثلثمائة مليون من الســكان بما فيها المدن الكبرى والمؤسسات الصناعية والتجارية الهامة والبنوك . وكان فى استطاعة الكومنتانج أن يعتمد على تأييد البنوك والمؤسسات الكبرى لعلمهم ان الحكم الشيوعى لابد وأن يقترن به فرض القيود على المشروعات الحرة . هــذه خلاصة الموقف من وجهة نظر شيانج كاى شيك والكومنتانج .

فاذا انتقلنا الى الجانب الاخر نجد المستقبل أمام ماوتسى تونج ليس على هذه الصورة الزاهية . حقيقة أن جنوده أشداء حسنو التدريب ولكنهم لم يتمرسوا بالمعارك النظامية ، وكانت قوات الكومنتانج تحيط بهم من كل جانب وكل المدن الكبرى فى الشمال الشرقى وفى منشــــوريا فى أيدى الكومنتانج ، وما كان ماوتسى تونج ليعتمـــد على اقامة طابور خامس من العمال مع أنهم « العمود الفقرى للثورة » فى نظر موسكو ، فالاموال كلهـا فى الجانب الآخر والعامل الصينى يقدم ولاءه لمن يدفع له أجرا أكبــر بانتظام ، وكان ماو على يقين من أنه اذا ساءت حالة العمال كما حدث فى الحرب الاهلية السابقة فسوف يعمدون الى الاضراب وبذلك يتهار الاقتصاد ، كما أنهم لن يتحملوا المتاعب الوقتية الا اذا تحققوا من أن النصر ســوف

يكون فى جانب الشيوعيين • وأخيرا فان المليون ومائتى الف جندى الذين يكونون جيش التحرير الشعبى كانوا يجـــدون أصدقاءهم الحقيقيين بين الفلاحين الذين اثبت لهم ماوتسى تونج أن الشيوعية سوف تحل محل نظام ملكية الارض نظاما آخر أكثر ربحا وأشد ثباتا وأقل ارهاقا •

لكن ماوتسى تونج وجد له حليفا جديدا يتمثل فى الطبقة المتوسطة من التجار والموظفين الذين حطمتهم الحروب وجمعت الجـانب الاكبر من ثروات الصين فى أيدى الأسرات الاربع •

وهذه الطبقة المتوسطة سواء فى الصين او فى اى مكان آخر على وجه البسيطة لا تثير اضطرابا ولا تستشعر القلق ما دامت تأنس من أولى الامر استعدادا لاتاحة الفرصة أمامها كى تحيا حياتها العادية • ولما كان شيانج كاى شيك قد تسبب فى هبوط مستوى معيشة هذه الطبقة ، وعلى النقيض من ذلك كان ماوتسى تونج الذى هيأ الجو لقيـــــام مشروعات فردية فى مجتمعه الجديد ، فقد اظهرت الطبقة المتوسطة استعدادها للعمل معه على الرغم من انه شيوعى •

كذلك تلقى ماوتسى تونج بعض المساعدات المادية من الاتحـــاد السوفييتى ، فعلى الرغـــم من أن الروس سلموا منشوريا الى الكومنتانج فانهم تركوا مستودعات الأسلحة والذخيرة اليابانية فى الريف الى الميليشيا الشيوعية الصينية • وقد كان لهذه الكميات الضخمة من الاسلحة والذخيرة الفضل فى تموين قوات ماوتسى تونج فى منشوريا فى أثناء معاركها فى شمال شرقى الصين ، كما تبقى منها فائض استخدمه ماو فى تعبئة قوات جديدة حينما انتقلت المعركة نحو الجنوب • أضف الى ذلك كله ان الاتحاد السوفييتى كان بين حين وآخر يرسل الاسلحة والذخائر رأسا من منطقة جبال اورال الى القوات الشيوعية الصينية فى شمال غربى الصين •

كان لهذه المساعدات السوفييتية قيمتها بالنسبة لماوتسى تونج على الرغم من أن ستالين كان يمنحها بيد الشح ، ذلك أن ستالين ظل حتى عام ١٩٤٧ غير مقتنع اقتناعا تاما بأن ماو يستطيع أن يتزعم حركة ثورية ناجحة وينشىء حكومة سوفييتية قوية فى الصين •

لـمـا بدأت حملة شيانج كاى شيك ضد الشـــيوعيين عام ١٩٤٦ عززت ثقته بالنصر كما أيدت شكوك ستالين ومخاوفه ، ذلك أن قوات كاى شيك استطاعت أن تطرد الشيوعيين من ١٠٥ مدن ، وفى ١٩٤٧ استولت هذه القوات على ينان عاصمة الحكومة الشيوعية مما رفع الروح المعنوية بين قوات الكومنتانج ، وقد كان المفروض لاول وهلة أن ضـياع العاصمة سيؤدى الى انهيار معنويات جيش ماو ، ولكنه على العكس من ذلك تراجع بحكومته الى المرتفعات الداخلية فى اقليم شنتسى • وفى العام التـــالى أصبحت قوات الكومنتانج تسيطر على شمالى الصين وعلى كل أجزاء الصين الواقعة جنوبى نهر يانجتسى • وكانت خطة شيانج كاى شيك أن يحصر قوات ماوتسى تونج بين جيشه الشمالى وبين نهر اليانجتسى ثم يقذف بها الى البحر أو يدفعها للتقهقر نحو المناطق الجبلية الوعرة •

وفي يوليو ١٩٤٧ بدأت قوات الكومنتانج تزحف شمالا نحو شانتونج وهي مفتاح الطريق الى شمالى الصين والاستيلاء على المنطقة التى تقع فيها سكة حديد بيكين - تيينتسن - نانكنج ، وقد ادرك ماوتسى تونج انه لو استطاع الكومنتانج السيطرة على السكة الحديد لسهل عليهم طرده من آخر بقعة خصيبة باقية لديه واخضاع فرق الميليشيا التابعة له في منشوريا

وهنا صمم ماوتسى تونج على قطع الطريق على قوات الكومنتانج فأمر قواده باعداد اكبر تعبئة من الميليشيا ورجال العصابات والزحف بهم الى شانتونج ، وبهذه الطريقة فاجأوا قوات الكومنتانج وأوقعوا بهم شر هزيمة . اثارت هذه الهزيمة غضب شيانج كاى شيك ولكنه تخلى عن فكرة احتلال شانتونج مؤقتا واتجه الى اخضاع منشوريا .

ان التاريخ يقول : ان من يحكم الصين لن يكون آمنا فى الجنوب ما دام هناك ما يهدده فى منشوريا . ولما كانت قوات كاى شيك تحتل جميع المدن الكبرى فى منشوريا فقد خيل اليه انه من السهل اخضاع بقية اجزائها ، ولذلك ففى خريف ١٩٤٧ أنزل خيرة جنوده على ساحل منشوريا وأصدر أوامره اليها بالزحف نحو موكدن لرفع الحصار عنها .

وبادر ماوتسى تونج بارسال قواته تحت امرة قائده الشهير لين بياو ، ولم يحاول لين الدخول فى معركة مع احسن جنود كاى شيك تدريبا وأقواهم سلاحا ، ولكن ما ان استقر هؤلاء الجنود فى المدن حتى احاطت قوات لين بياو بهم من كل جانب وتركتهم أمام أحد البديلين : فاما أن يستسلموا أو يموتوا جوعا .

أما جيش التحرير الشعبى فقد أخذ يعزز مواقعه فى شمال وشمال غربى الصين ، فزحف من شانتونج الى هونان وهوبيه وحاصر بيكين وتيينتسن . وفى ٢٢ من ابريل ١٩٤٨ قاد ماوتسى تونج جيشا آخر واستعاد عاصمته ييبان . وهكذا استعاد ماو وقواته الجانب الاكبر من الصين شمالى نهر اليانجتسى .

فى حين كانت العمليات العسكرية على قدم وساق بين قوات الكومنتانج وقوات الشيوعيين ، كان الاقتصاد الصينى ينهار فى الجنوب وهى المنطقة التى يحكمها الكومنتانج دون منازع ، وقد اعلنت الطبقة المتوسطة الاضراب فتعطلت حركة التجارة ووقف دولاب العمل فى الحكومة ويرجع هذا الاضراب الى أن الاتفاقية التى عقدها شيانج كاى شيك مع امريكا نصت على أن تدخل الصين آية كميات من المنتجات الصناعية الامريكية على أن تعفى من الرسوم الجمركية ، ولما لم تستطع المنتجات الصناعية المحلية فى الصين منافسة هذه المنتجات الامريكية فقد توقفت ، كما توقفت معها تجارة الصادر ، وبادر التجار الصينيون بشراء سبائك الفضة وأخذوا يعللون النفس بقرب انتصار الشيوعيين أما الأسرات الاربع فهي الوحيدة فى الصين التى ازداد ثراؤها اذ كان الباب مفتوحا أمامها للاتجار حيثما شاءت كما اخذت تتلاعب بسوق العملة ولما احتجت الجامعات على هذا النشاط التجاري الضار بمصلحة الوطن وضعت تحت رقابة صارمة من البوليس .

ولما اخذت المصانع والورش والمكاتب التجارية الصينيه تغلق

أبوابهـــا بسبب التضخم النقدى الخطير وعجـزها عن الوقوف فى وجـه المنافسة الأمريكية بدأ العمال يدركون ان أصدقاءهم الحقيقيين هم ماوتسى تونج وحزبه الشيوعى العجيب • وفى ٣١ من مـارس ١٩٤٨ بدأ هـؤلاء العمال سلسلة من الاضرابات التى شلت حركة ماتبقى فى مدينة شنغهاى من نشاط صناعى وكلما أطلقت النار على المضربين ازداد عددهم بانضمام بقية أهل مدينة شنغهاى لهم ، وأخيرا عم الاضراب جميع المناطق الجنوبية فى الصين وفى يوليو ١٩٤٨ دعا ماوتسى تونج لعقد مؤتمر لبحث المرحلة التاليه من حملته للسيطرة على الصين ، وقد راى أنه يجب الاستيلاء على جميع منشوريا قبل البدء فى شن هجوم عام على الكومنتانج فى الجنوب ، ولكن رفيقه ليوشاوتشى أشار عليه بالتريث ، بناء على توجيه من ستالين الذى كان يمر بأزمة عنيفة ضد أمريكا فى برلين • ومن مصلحته اضعاف امريكا باستنزاف قوتها ومواردها فى جهات أخرى •

وقف ماو موقف المتردد ، ولكن كثيرا من رجاله أبدوا قلقهم وألحوا عليه فى بدء حملة عنيفة على حكومة نانكنج الضعيفة وباسقاطهـــا تكون ثورته قد حققت النجاح • وقد اتخذ ماو موقفا وسطا فترك قوات الكومنتانج فى منشوريا تحت الحصار حتى تموت جوعا أو تستسلم ولكنه من ناحية اخرى قام بحملة كبرى لتعزيز مركزه فى المنطقة الواقعة بين نهر يانجتسى وجنوبى منشوريا •

وفى سبتمبر ١٩٤٨ بدأ ماوتسى تونج تنفيذ خطتــه ولم يمض الا وقت قصير حتى تم طرد قوات الكومنتانج نهائيا من اقليم هونان •

وقد قام شيانج كاى شيك بمحاولة يائسة لانقاذ قواته المحاصرة فى منشوريا ولكن خطته فشلت فشلا ذريعا واضطرت خيرة قواته فى منشوريا الى التسليم بكامل عدتها • ولما بلغته أنباء استسلام قواته فى منشـــوريا وضياع هــذا الاقليم منه نهائيا لم يسعه الا الفرار عائدا الى عاصمته نانكنج • وفى ديسمبر ١٩٤٨ زحف جيش التحرير الشعبى نحو بيكين وتينتسن واستولى على عاصمة الامبراطورية فى ٣١ من يناير ١٩٤٩ •

ولما دخلت الحرب الأهلية مرحلتها النهائية ، ضغطت حكومة واشنطون على شيانج كاى شيك كى يعرض عـلى ماوتسى تونج اقتراحا بالصـــلح والتعاون بشرط اعتبار كل منهما يتكلم « من مركز القوة » ولكن ماو أعلن انه لن يقبل اية معاملة مع شيانج كاى شيك تحت اى ظرف من الظروف باستثناء حالة واحدة فقط وهى أن يتقدم شيانج كاى شيك لتسليم زمام الكومنتانج الى ماوتسى تونج ويقدم نفسه للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى •

وفى مارس ١٩٤٩ تنازل شيانج كاى شيك عن رياسة الكومنتانج الى القائد لى تسونج جين • وقد وضـــع الأحرار الصينيون كل أملهم فى الجنرال لى علّه يستطيع انقاذ الموقف فى أثناء مفاوضاته مع ماوتسى تونج وينشىء حكومة صينية جديدة لا يمثل فيها الشيوعيون •

أرسل ماوتسى تونج زميله شواين لاى ليجتمع سرا مع الجنرال لى فى بيكين ، وعرض شو على الجنرال شروط ماوتسى للصلح وهى تتلخص فى

تكوين حكومة ائتلافية يكون للشيوعيين فيها الاغلبية ووضع القوات المسلحة جميعهـا تحت اشراف شيوعى . وتسليم جميع مجرمى الكومنتانج رهن المحاكمة . ولما كان قبول هذه الشروط معناه التسليم المطلق فقد رفضها الجنرال لى وعاد الى الجنوب .

يرى بعض أعضاء المكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى ان ماوتسى تونج قد ارتكب متن الشطط فى المطالبة بهذه الشروط ، وكان الواجب أن يتساهل قليـلا كى يحفظ « للوطنيين » بعض ماءوجههم ، ويضيف هؤلاء أنه لو تم ذلك اذا لاستطاع الشيوعيون ان يصلوا الى الحكم بطريق قانونى ، ومن ثم فانهم يحلون محل شيانج كاى شيك فى مقعد الصين الدائم بالامم المتحدة وتكون حكومة شرعية تعترف بهـا جميع الدول الأجنبية . ولكن سبق السيف العزل .

وفى ٢١ من ابريل ١٩٤٩ أصدر ماوتسى تونج أمره اليومى الى جيش التحرير الشعبى وهذا نصه :«عليكم ان تتقدموا فى زحفكم ببسالة ، وتمحوا باصرار وعزيمة جميع العناصر الرجعية من الكومنتانج داخل حدود الصين محوا نهائيا اذا أثارت أمامكم أية مقـاومة ، وعليكم ان تحرروا الشعب الصينى وان تدافعوا عن سيادة البلاد ووحدتها الاقليمية . »

ولما أبلغ الأمر اليومى الى قوات جيش التحرير التى تزيد على مليون وقفت فى صفوف متراصة على جبهة عرضها عشرون ميلا على طول شاطىء اليانجتسى وارتفعت أصواتها بنشـيد « زحف المتطوعين » وهتفت من الأعماق « فليحيا ماوتسى تونج » . وفى اليوم نفسه رفـع علم الجمهورية الشعبية فوق قصر الرياسة الذى كان يقيم به شيانج كاى شيك فى تانكنج .

أما فى الشمال فان جيش التحرير اكتسح امامه كل ماصادفه من قوات ـ الكومنتانج ، وكلما مر باقليم اتخذ الفلاحون كل مااستطاعوا أن يتسلحوا به وانضموا الى الجيش الظـافر . وما أن تجمعت فيـالق جيش التحرير أخيرا على طول الساحل الجنوبى حتى كان عددها يزيد على ثلاثة عشر مليونا من الجند الأشداء .

حاول شيانج كاى شيك أن ينتحر ولكن أسرته حالت دون تنفيذ تلك الفكرة المرعبة وأخيرا فر الى فرموزا .

لم يبق له الا تلك الجزيرة الصغيرة التى يحرسها الأمريكيون ، والا سراب من الأمل فى أن يعود يوما الى بلاده . لقد تخلت عنه أسرته ، أما الاسرات الثلاث الكبرى فقـد فرت الى أمريكا وأما تشنج ـ لنج شقيقة زوجته وأرملة الدكتور صون يات سن « والرمز الحى لثورة ١٩١٦ » فقد انحازت الى جانب الشيوعيين .

وسار ماوتسى تونج فى أعقاب جيشه الى اقليم هونان ، وهناك قضى

يوما كاملا فى تشانج شا عاصمة الاقليم ومهد ذكرياته . ترى ، أيمكث هنا قليلا ليشاهد ماتبقى من مدرسته القديمة ، والمكان الذى شنقت فيه زوجته الأولى ، وأول اجتماع عقد تحت رياسته ؟ .

انها ذكريات غالية ولكن الرجل المرهف الحس لم يحتمل وقعها على نفسه ... لقد تناول طبقه المفضل من الأرز والفلفل الأحمر .. ثم طار الى بيكين .... « ليتوج » ..

الفصل التاسع

... بعدظهر يوم ٣١ من أكتوبر ١٩٤٩ اهتزت أعواد الخيزران تردد هتاف جماهير لا حصر لها من أبناء الصين تجمعت في ميدان تين آن مين في بيكين لتستمع الى زعيمها ماوتسى تونج يلقى خطابه التاريخى معلنا مولد جمهورية الصين الشعبية .

وفى الساعة الثالثة اعتلى ماوتسى تونج منبر الخطابة والقى كلمة موجزة أعلن فيها قيام الجمهورية الشعبية لتكون « طليعة للسلام فى آسيا » ، ثم رفع علم التحرير ، وقد بدت على ملامحه السكينة والصفاء ، ولكن مالبثت الصورة الهادئة ان انقلبت الى غضبة الثائر . فرفع صوته فى الميكروفون مهددا : « فليحذر الرجعيون داخل الصين وخارجها ! » . وهنا علا الهتاف مرة أخرى بحياة البطل ، وعزفت الموسيقى « نشيد زحف المتطوعين » وهو النشيد الوطنى المؤقت لجمهورية الصين الشعبية .

الى الغرب من بيكين ، جلس ستالين الى الراديو يستمع الى مراسل اذاعة موسكو وهو يصف الاحتفال بمولد الجمهورية الجديدة . فهز رأسه فى عجب اذ تذكر ماسبق ان صرح به الى هارى هوبكنز منذ أربع سنوات بأن الثورة الجديدة فى الصين لاينبغى أن تؤخذ مأخذ الجد .

والى الشرق من بيكين صورة قاتمة لجار آخر يتطلع الى نجومه الخمسين ثم حمد الله على أن بين بيكين وسان فرنسسكو محيطا واسعا متلاطم الامواج .

والى الجنوب من بيكين أخذت استراليا تنظر فى قلق الى أراضيها الفسيحة الخالية من السكان وتتخيل شبح « الخطر الأصفر » يبعث من جديد بعد أن دفنه الغرب تحت أنقاض هيروشيما .

لم يحفل ماوتسى تونج بعجب موسكو ولا بقلق واشنطون ولا بفزع كانبرا ، بل التفت مبتسما فى هدوء الى رفاقه فى الجهاد : ليوشاوتشى وتشوتيه وشواين لاى وتشن بيه وبنج تيه - هواى . لقد ظل هؤلاء الرفاق فى قلب المعركة عشرين عاما طويلة من أجل هذا اليوم . ورد الرفاق على نظرته الباسمة بنظرة حب وتقدير ، وكيف لا وقد أصبح هذا الفلاح الخشن ذو الحصل الثائرة فى سن السابعة والخمسين زعيما غير منازع لربع سكان العالم .

لم يقف البطل طويلا لينعم بمشاهدة النصر فما انتصفت الساعة الخامسة حتى تأبط ذراع ليوشاو تشيه قائلا : هيا الى العمل ..

كان هم ماوتسى تونج الأول توفير الغذاء والكساء للشعب ووضع اسس سليمة للاقتصاد ، وقد قام بحملة واسعة النطاق لتحقيق هذين الهدفين . ولماكانت الصين فى الأغلب الأعم بلادا زراعية فقد كان الفلاحون هم أول من أحس بهذه الانتفاضة الكبرى فى تاريخ الصين ، ففى بعض المناطق وضعت برامج واسعة للمزارع التعاونية ، وفى مناطق أخرى انتزعت الارض من ملاكها القدامى واعيد توزيعها على الفلاحين بحيث تحصل كل عائلة على ما يغطى نفقاتها الضرورية ووجه ماوتسى تونج عنايته الى انشاء نظام تعاونى لشراء البذور واستخدام الآلات الزراعية وتسويق المنتجات .

لقد واجهت الدولة الناشئة مصاعب فى فترة الانتقال من المشروعات الفردية الى التعاون مع الدولة ، وعارض الفلاحون الذين استمتعوا لأول مرة فى حياتهم بملكية الأرض فى التنازل عما اكتسبوه من حقوق . لقد اعلن أبو الثورة الصينية صون يات سن أن « الأرض لمن يزرعها » ولكنه لم يبين للمالك الجديد كيف يتصرف فيما ملك . وجاء ماوتسى تونج فسد هذه الثغرة ، فبعد الاستيلاء على أرض الملاك القدامى أعيد توزيعها على أساس الملكية الحرة .

واذا فكل محاولة لتحويل الأرض الى مزارع جماعية أو حتى اعلان ان النظام الجماعي سوف يطبق مستقبلا لابد أن تثير ثائرة الفلاحين الذين كانوا حين ذاك غير مطمئنين الى نوايا الشيوعيين . ولكن ماوتسى تونج يدرك ادراكا تاما أنه ما كان ليحقق أهدافه الثورية لولا تأييد الفلاحين . لا بل انه لن يستطيع البقاء فى الحكم اذا ما أغضب الفلاحين .

لذلك وضع حلا وسطا يرضى الاتجاهات المختلفة فقد تعهدت الحكومة بأن تمد الفلاحين بأحسن البذور وتقدم لهم الآلات الزراعية نظير ايجار منخفض وتبيع للجمعيات التعاونية أبقارا وخنازير من أجود السلالات حتى تكون نواة لثروة حيوانية مشتركة ، وذلك كله فى مقابل موافقة الفلاحين على النظام التعاونى . ولما انتشرت الحركة التعاونية فى جنوبى الصين ثم انتقلت الى شماليها بددت مخاوف الفلاحين ، ولم يعودوا يخشون أن ينتزع منهم ما امتلكوه أخيرا . ولم يتحدث ماوتسى تونج فى هذه الفترة عن برنامجه لخمسينات القرن العشرين فقد كان كل همه فى عام ١٩٥٠ أن يحصل على أكبر انتاج من الأرز والحبوب الأخرى وأن يكسب ثقة الصينيين الذين كانوا لا يزالون على شك فى نواياه .

بدأ بناء السدود والخزانات وقد أثلج صدر الفلاح أن هذا العمل قد تم دون أن يكلفه أى مبلغ من المال ، وكان الفلاح الصينى لا يزال يدفع الضرائب ولكنه الآن يدفعها مرة واحدة وفى موعد محدد ولمندوب الحكومة الذى لاينتظر رشوة فى مقابل تخفيض تقدير الضريبة ، وهنا وجه ماوتسى تونج خطابه الى الفلاحين قائلا : أنتم الآن تدفعون ضرائب للدولة وهى بدورها تقدم لكم خدمات فى مقابل هذه الضريبة . ولم تعودوا الآن تدفعون ضرائب أخرى للاقطاعيين من ملاك الأراضى لأننا قد ألغينا هذا النوع من الملكية .

لقد منعت الحكومة الجديدة نهائيا جباية الضرائب مقدما ، كما كان يحدث فى عهد الكومنتانج حيث كان الجباة يجمعون الضرائب لمدة عشرين سنة قادمة ، وغالبا ما كان الجانب الأكبر من هذه الضرائب يذهب الى جيوبهم ٠

وحقق البرنامج الأول للاصلاح الزراعى نجاحا كبيرا ، وهو وان لم يزد رقعة الأرض الزراعية كما كان يأمل ماوتسى تونج الا أنه زاد الغلة بنسبة ظاهرة ، واطمأن ماو على أن فصل الشتاء سيجىء ولدى الفلاح « ما يكفى لملء وعائه بالأرز » ٠

وبعد أن انتهى ماو من ملء البطون وجه اهتمامه الى كساء الأجسام العارية ٠ وجد أن مئات الألوف من المغازل الصينية معطلة منذ أن أغرقت أمريكا أسواق الصين بمنتجاتها الصناعية ، وكان لا بد له من التعاون مع الرأسماليين فى سبيل انعاش صناعتى الغزل والنسيج ٠ وهنا يفرق ماو بين نوعين من الرأسماليين : فهناك كبار الرأسماليين وهؤلاء ترتبط مصالحهم بالمصالح الأجنبية واذا فهم ليسوا على شىء من الوطنية الحقيقية ، وهناك فى الجانب الآخر فريق الرأسماليين الصغار وهؤلاء أطلق عليهم اسم « الرأسماليون الوطنيون » وقرر التعاون معهم على انعاش الصناعة الصينية حتى لو أدى ذلك الى « قلق كارل ماركس فى قبره » جمع ماو أصحاب المغازل ومصانع النسيج وطلب منهم تقدير الاستهلاك الشهرى لمصانعهم من القطن أو الخامات الأخرى فى السنوات الخمس السابقة وتكاليف المواد الخام وعدد العمال والموظفين اللازمين لتشغيل المصنع والثمن الذى يمكن أن تباع به المنتجات والمستوى العادى للأرباح التى يتوقعها صاحب المشروع ٠ بعد ذلك عرض ماوتسى تونج على هؤلاء الرأسماليين أن تبيع لهم الدولة الخامات وتضمن سوقا لمنتجاتهم الصناعية بالسعر الذى تحدده ، والفرق بين سعر التكلفة وثمن المنتجات المباعة يغطى الأجور (التى تحددها نقابات العمال) والنفقات الأخرى والربح الصافى بعد ذلك يعتبر « راتبا سخيا لصاحب المصنع بصفته مديرا للمشروع » ٠ وخير ماو هؤلاء الرأسماليين بين قبول اقتراحه أو رفضه ولكنه أشار الى أنه فى حالة الرفض عليهم أن يغادروا الصين بعد دفع الضرائب المتأخرة على أن تشترى الدولة منهم مصانعهم بأثمان عادلة ٠

أدرك الرأسماليون الوطنيون ما يقصده ماو بحديثه اليهم ، ففى حالة الرفض والتصفية سوف يرهقهم بضرائب متأخرة سوف تستنفد ما يقدر من ثمن لمؤسساتهم الصناعية ، فلم يسعهم الا القبول ٠ وهكذا فتحت المصانع أبوابها ، وحرصت الحكومة على الا يكون هناك من الفرق بين السعر الذى حددته لبيع الخامات والسعر الذى حددته لشراء المنتجات ، ما يسمح بأى نوع من الاستغلال أو تجميع الثروة ٠ وعندما اقترح أصحاب المصانع على شواين لاى رفع أسعار المنتجات لمواجهة أعمال الصيانة واستهلاك الآلات أبلغهم انه فى حالة عدم الرضا عن الاتفاق الحالى فالطريق أمامهم مفتوح للتصفية ومغادرة البلاد ، وأخيرا حاول أصحاب المصانع طرد العمال الزائدين على الحاجة فى مصانعهم ولكنهم أبلغوا أن الصين الحديثة لا تقبل أن يفصل عامل من عمله وأن عليهم أن يدبروا أمرهم مع المحافظة على الوضع القائم ٠

وعلى الرغم من جميع العوائق التى اعترضت طريق التنمية الصناعية فقد أعيد افتتاح المصانع بازدياد مطرد ، بل ان الصينيين الذين كانوا قد فروا الى هنج كنج وسنغافورة أخذوا يعودون الى بلادهم ليعملوا جنبا الى جنب مع ماوتسى تونج فى تنفيـــذ برنامجه الصناعى ، وخير تفســير للاتجاهات الفكرية لهـــؤلاء العـــائدين ما صرح به أحدهم للبروفسور فتزجيرالد الأستاذ فى الجامعة الأهلية باستراليا حيث قال هذا الصينى : « لقد عدت من هنج كنج الى شنغهاى لا لأنى أتوقع أن يسمح لى بتكوين ثروة جديدة ، ولكن لأنى أيقنت ان الشيوعيين لن يعترضوا على وجودى ما دمت لم أكن قاسيا على عمال مصنعى · وانا الآن أكسب عيشى وأهتم بأداء عملى ، وعلى الرغم من أن ابنى لن يرث مصنعى ، فهـو مهندس ذو كفاية فى أداء عمله واذن فقد ضمن العمل دائمـا كخبير فنى · لقد بذلت جهدا كبيرا فى ادارة مصنعى فى عهد حكومة شيانـج كاى شيك وجمعت ثروة كبيرة ولكن ثروتى كانت مهددة بـين آونة وأخرى أن يغتصبها أحد الدكتاتوريين العسكريين ، أو أن يمنـح أحد الاحتكاريين امتيازات يترتب عليها تبديد ما اكتسبته من أرباح · لقدكان العام الجديدبهيا وانا لا أدرى ماذا يكون مصيرى فى نهايته · أما الآن فقد أصبح هذا المصير واضحا أمام عينى ، فأنا أدير المصنع ، لحساب الدولة ، ولكن رزقى مكفول وســوف يظل كذلك حتى أموت » ·

وقد انشأ ماوتسى تونج نظاما ضريبيا جديدا لهؤلاء « الرأسماليين الوطنيين » حتى يبدد من أذهانهم أى وهم قد يصور لهم أن الأمور سوف تسير سيرا لينا فى المســتقبل · فابلغهم ان أية صناعة تبقى فى القطاع الخاص سوف تقدر لها ضريبة على جملة انتاجها ، فعلى أصحاب مصانـع النسيج مثلا أن يتضامنوا لســداد جملة الضرائب المفروضة على هــذه الصناعة ، وكل ما يهم الدولة هو أن تحصــــل على الضريبة المقررة على مصانع النسيج كاملة ، وقس على ذلك باقى الصناعات ·

أخذ أصحاب المصانع يئنون ويزمجرون ولكن المصانع ظلت مفتوحة واستطاع ماوتسى تونج أن يحصل على ملايين الياردات من الأقمشة اللازمة لكساء فـلاحيه فى مزارعهم التعاونية · ومن الطبيعى أن الأقمشة صارت أرخص المنتجات الصناعية ، وقد صنع منها للفلاحين أبسط الأزياء ، فهذا الزى يتكون بالنسبة للرجال والنساء على الســواء ، من قميص وسراويل مصبوغة باللون الأزرق وهو أرخص الاصباغ · ولم ينته عام ١٩٥٠ حتى خلت صورة المجتمع الريفى فى الصين من الألوان التقليدية الزاهية وماكان يتخللها من ملابس حريرية مطرزة ، وأصبحت المزرعة والمصنع مثل « عش النمل » تتجمع فيه وحوله ملايين النملات الزرقاء التى تعمــل فى عزيمة صادقة تحت توجيه شخصى من ملكة النمــــل الكبرى ممثلة فى شخص ماوتسى تونج ، أما روح الفردية القديمة فقد أصبحت فى زوايا النسيان ·

لقد عاد النظام الى المجتمع الصينى مع وحدة الهدف ووحدة العمل ، فبطلت السرقات فى الموانى والمدن بين عشــــية وضـــحاها ، ووجدت المؤسسات الأجنبية التى تعاملت مع الصين الجديدة أن القيود التى فرضت على نشاطها تعوضها السرعة والكفاية والأمانة التى أصبحت تسود الموانى،

وتسود الأسواق • وتحسنت المواصلات فدب الأمان والنشاط فى السكك الحديدية والطرق •

ولم يكن من المتوقع فى السنوات الأولى التى أعقبت فوضى الحرب ـ الاهلية واضطراب حكم الكومنتانج أن يصل الانتاج الى رقم قياسى ، ولكن ما أمكن انتاجه ـ وقد زاد كثيرا عن العهود الماضية ـ تم توزيعه بكفاية وعدالة • كذلك أمكن ايجاد حـل لتلك المشكلة الصينية التقليدية وهى وفرة المحصول فى الجنوب والمجاعة فى الشمال • لقد حدث فى السنوات الأخيرة للحرب الأهلية أن كانت شنغهاى تمون بالارز الأجنبى المنقـول اليها بحرا ، على الرغم من وجود فائض من محصول الأرز فى جهات أخرى من الصين ، ويرجـع ذلك الى أن الارز كان يوزع فى جنـوبى الصين عن طريق الوكالات وهذه كانت تعمـد الى « تخزين الفائض » ، وأحيانا كان هذا الفائض يترك تحت تصرف الحكام المحليين وهؤلاء بدورهم كانوا يختزنونه فى أثناء وفرة المحصـول ليبيعوه باثمان فاحشة فى أثنـاء المجاعات • فلما جاء العهد الجديد لم يجد ماوتسى تونج كبير عناء فى ايجاد حل للمشكلة ، وكل ما عمله هو ايجاد وسيلة منظمة للنقل بين المنـاطق المتخمة بالمحصول والمحرومة منه ، وخاصة فى حوض نهر اليانجتسى الذى كانت تظهر فيه هذه الفوارق الكبرى فى الانتـاج • وهكذا تم تموين شنغهاى وكانتون واقليم شنسى بما تحتاج اليه من الأرز •

فى عام ١٩٤٩ كان محصـول الأرز رديئا ولكن ماوتسى تونـج استطاع أن يملأ به جميع البطون مما أذهل كل صينى وجعـل مواطنيه ينظرون اليه وكأنه مبعوث السماء لانقاذهم من الفناء •

ورأى ماوتسى تونج أن برنامج السـنوات الاولى لاعادة البنـاء والتعمير يتطلب مواصلة نور الصباح بضوء المصباح حتى تتحقق مضاعفة الانتاج ، ولذلك حرم على مواطنيه الملاهى والتسلية بأنواعها ، وحدد معنى « التسلية » قائلا انها كل مايحول دون تركيز الصينى لاهتمامه فى عمله •

أصدر ماوتسى تونج قرارا بالغاء البغاء ، ولما كان يعـلم أن هذا صعب التنفيذ من الناحية العملية لأن النساء سـوف يعمدن الى البغاء السرى فقد استأنس بما اتخذته يوجوسلافيا فى هـذا السبيل • عمدت السلطات فى يوجوسلافيا الى جمع « بنات الهوى » فى فصل الربيـع وارسالهن الى مزارع خاصة ليعملن هناك فى زرع البطاطس ، فاذا ما حل الصيف عدن الى المـدن لتسلية السائحين ، على أن يعدن الى المزارع فى الخريف لجمع محصول البطاطس •

ولم يكتف ماو بجمع هؤلاء الفتيات لفترة من العام واطلاق سراحهن فترة أخرى بل أرسلهن الى المزارع على أن يبقين بها ، وقد أدرك بعضهن ما تردين فيه من خطأ فاعلن التوبة وتطوعن للعمـل الدائم فى المزارع والمصانع بل على أرصفة الموانى • ولقد كان العمـل على أرصفة الموانى تجربة قاسية لهؤلاء الفتيات فقد شاهدن هناك البحارة ، وكان كثير من هؤلاء من « الزبائن » القدامى ، ولكن لم يسـتطعن الحديث اليهم خشية العودة الى السجن ، وبدلا من أن تتبع الفتاة طريق الاغراء والاثارة عمدت الى حمل حقيبة السائح والمضى بها الى حيث يريد ، واذا عن لبـحار فى

الميناء أن يغازل احدى « التائبات » ألقي القبض عليه فورا — حتى لو كان أجنبيا — وزج به في السجن • وهكذا أصبحت الدعارة والزنا منذ ١٩٥٠ جرائم يعاقب عليها بالسجن •

يعزو البعض موقف ماوتسى تونج من هـذا الانحراف الاجتماعى فى السلوك الجنسى الى عزوفه عن النساء هـو وصديقه ليوشاو — تشى والى أنهما من أولئك المتطهرين المتزمتين الذين تضيق بهم المجتمعات الحديثة ، ولكن ماو تزوج ثلاث مرات ، وليو على وشـك الزفاف الى زوجته الرابعة وهى فتاة تصغره بخمسة وعشرين عاما • والحقيقة أن هذا التزمت الذى يبدو من ماوتسى تونج مبعثه نشأته الريفية التى جعلت طبيعته مزيجا من الغـيرة والنفـور من أن تكون المواطنة الصينية سلعة تتبادلها الأيدى الأجنبية • كذلك كان ماو يكره أن يرى ثروة بلاده تتـدفق على الأجانب فينفقون بعضها فى شراء أعراض الصينيات ، وفوق ذلك فاستهلاك الطاقة البشرية فى المصانع والمزارع خير من تبديدها فى العبث ، ومن هنا حرم على الشباب الصينى تبديد طاقته فى القبلات ومطارحة الهوى فى المتنزهات العامة واعتبر ذلك جريمة تقع تحت طائلة قانون العقوبات • وهنا يقول ماو : اذا كان الأورانيوم يتحول الى طاقة كهربية فلم لا نحول الدافـع الجنسى الى نشـاط يقف فى المصنع أمام المخرطة أو فى المزرعة ليشق الأرض بالمحراث •

موقف ماوتسى تونج من الديانات :—

ولم ير ماوتسى تونج فى المسيحية الا نوعا من اللهو والعبث وانهـا على كل حال « بضاعة أجنبية » ولو ترك وشأنه عام ١٩٤٩ لقضى عليهـا نهائيا ، ولكن صديقه ليوشاو — تشى ذكره بأنه لم يضر الاتحاد السوفيتى فى شىء أن ضمن دستوره مادة تنص على حرية العبادة ، ونتيجة لذلك فقد نصت المادة الخامسة من الدستور الصينى على « حرية الضمير » ولكن ماو أصر على ابلاغ الكنائس المسيحية الشروط التى تتم « حرية العبادة » طبقا لها ، وموقفه هنا يذكرنا بموقفه من « الراسماليين الوطنيين » حينما وضع شروطه لامكان استئناف نشاطهم الصناعى •

ففى يونيو ١٩٥٠ كلف شواين لاى بأن يعقد اجتماعا مـع رؤساء الكنائس البروتستانتيه • وقد أوضح شواين لاى لهـؤلاء أن ماو يكره استمرار بقائهم فى الصين « ولكن طبقا لسياسة التسامح التى تسير عليها حكومتنا ازاء الأقليات » فلا مانع من بقاء الكنائس المسيحية • ثم أضاف قائلا : « لقد بينت الى الرئيس (ماوتسى تونج) أن الكنائس البروتستانتية أدت خدمات اجتماعية عظيمة خلال الحرب الأهلية والحرب ضد اليابان ، وأن كثيرا من المسيحيين وقفوا فى صفوف المحاربين ضد العدو المشترك ، وعليه فقد وافق الرئيس على بقاء هذه الكنائس تؤدى عملها دون عائق على أن البعثات الدينية الأجنبية تعود الى أوطانها وألا يبقى فى الكنائس غـير رجال الاكليروس الصينيين فقط ، على أن يكون مفهوما أن أى قس يسافر الى الخارج ليتلقى تعليمه هناك لن يسمح له بالعودة الى الصين » •

ومضى شواين — لاى يقول : « ان الرئيس كان يفضـل لو قصرت

«الكنائس نشاطها على الخدمات الاجتماعية ولكنه يعلم أن هدفها الأساسى هو السعي لتنصير الصينيين وأنها لو منعت من ذلك العمل لامتنعت عن مواصلة التعليم والعلاج ، ولما كانت الصين فى حاجة الى المدارس والمستشفيات فلنعمل على ايجاد حل وسط يتلخص فيما يلي : سوف يسمح لكم بمواصلة أعمالكم ومحاولة تنصير الصينيين بشرط أن تواصلوا الخدمات الاجتماعية من تعليم وطب • وعلى كل فالشيوعيون والمسيحيون يدركون تماما أن الحقيقة سوف تتغلب فى النهاية • نحن على يقين من أن عقائدكم باطلة فان كنا على حق فسوف يرفض الشعب الصينى قبول عقائدكم وبذلك تفنى الكنائس تلقائيا ، أما اذا كنتم على حق فان الشعب سوف يتبعكم ، ولكن لاعتقادنا بأنكم على باطل فنحن على استعداد لمواجهة الموقف • »

وهكذا قبلت الكنائس البروتستانتية شروط ماوتسى تونج كما رضى بها « الرأسماليون الوطنيون » من قبل •

وبعد هذه « الاتفاقية الدينية » اتخذ ماو خطوة جديدة فأنشأ ما يسمى « مكتب العقائد » واقترح على الكنائس المسيحية وأية هيئات دينية أخرى اجراء « تبادل ثقافى » وقال مازحا : « نحن على استعداد لتبادل البعثات التبشيرية مع اى بلد آخر على أساس نظام الحصص ، واذا قبلت بريطانيا أربعين مبشرا صينيا فسوف نقبل أربعين مبشرا بريطانيا • »

كان من الواضح حتى قبل عام ١٩٤٩ ، أن ماوتسى تونج سيبذل قصارى جهده لمحو الكاثوليكية من الصين ، كان معارضا للبروتستانتية لأنها « شر أجنبى » ولان شيانج كاى شيك كان من أتباع منهب وسلى البروتستانتى ، مثله فى ذلك مثل أسرتى كونج وسونج ، ولكن يخفف من كراهية ماو للبروتستانت أنهم قاموا بخدمات اجتماعية طيبة وكانوا يتظاهرون بالوقوف موقف المحايد •

أما الكاثوليك فكلهم فى نظره اهل شر وسوء فالغالبية العظمى من قساوستهم اجانب يدينون بالولاء للبابوية فى روما ، كذلك كان يعتقد أن نشاطهم الدينى ستار يخفى وراءه عمليات التجسس ، وهذا ما اكتشفه الاتحاد السوفيتى • ومما زاد فى كراهية ماو للمبشرين الكاثوليك أن غالبيتهم من الألمان والايطاليين وهم حلفاء اليابان فى الحرب العالمية الثانية • ولقد بدأ ماو فى عام ١٩٥٠ خطة منظمة لاضطهاد القسس الكاثوليك مستهدفا التخلص منهم ، وفى نهاية سنة ١٩٥٤ لم يبق فى الصين أسقف كاثوليكى واحد ، واقترح شواين ــ لاى على الفاتيكان تعيين أساقفة صينيين ولكن اقتراحه لم يلق من البابا الا الصمت • هكذا أصبح الاتجاه هو صب البروتستانتية فى قالب صينى وممارسة الضغط على الكاثوليكية حتى تختفى من الصين نهائيا ، كما اختفى المذهب النسطورى من العالم المسيحى قبل ذلك بالف سنة •

ماوتسى تونج والاسلام :ـ

يعتبر ماوتسى تونج المسلمين في الصين أقلية عنصرية ويعاملهم على هذا الأساس • ومسلمو الصين لا يكنون عداوة لنظام الحكم الجديد فى الصين ، هذا بالاضافة الى أن الدول الاسلامية الكبرى فى العـــالم على علاقات ودية مع جمهورية الصين الشعبية • والمسلمون على العموم يكونون قطاعا صغيرا من سكان الصين ولم يضمق المكتب السياسى للحزب الشيوعى الصينى بوجودهم يوما من الأيام •

والبوذية تدعو الى تجنب العنف والى التعاون ولذلك فان ماوتسى تونج يعتبر أن الخمسين مليونا من البوذيين فى الصـــين لا يقلون ولاء للدولة عن أعضاء الحزب الشيوعى أنفسهم •

ان عملية بعث الصين تسير على قدم وســــاق ، وكلما استشعر ماوتسى تونج التهاون من مواطنيه ذكرهم بأنهم ان لم يضاعفوا جهودهم اجتاح الامريكيون جمهوريتهم الناشئة ، وهنا يشير ماو الى « العصابات » فى فرموزاوزعيمها شيانج كاى شيك قائلا انها مثال حى على نوايا أمريكا العدوانية •

ويستخدم ماو المعارض للدعاية ضد الاستعمار وخاصة الاستعمار الامريكى ، وحينما تقع حوادث مثيرة مثل ضرب جزيرة كيموى بالقنابل فانه يستغل هذا الحادث لشحذ عزائم العمال الصينيين ، وقد تدفع حرب الدعاية والاثارة بماوتسى تونج أحيانا الى طرق خاطئة بل الى حافة الحرب كما حدث فى كوريا حين أثار الكوريين الشماليين على غزو كوريا الجنوبية بعد أن أقنعهم بأن أمريكا لن تقامر بخوض غمار حرب عالمية ثالثة ، وكان مانعرفه جميعا من قيام الحرب الكورية واحتلال أمريكا لجانب من شبه الجزيرة ، ولولا مهارة شواين لاى فى المفاوضة عند اجتماع مؤتمر جنيف لتسوية المشكلة الكورية لبددت الحرب ما لدى الصين من طاقة زراعية وصناعية •

برنامج التصنيع ومضاعفة الانتاج الزراعى :ـ

لقد كانت الحرب الكورية حافزا للصين على مضاعفة جهودها فى التصنيع وفى الانتاج الزراعى ، ففى نهاية البرنامج الخمسى الأول زاد الانتاج الصناعى والزراعى بنسبة ٦٨٪ وارتفع انتــــاج الصلب من ١،٢٥٠،٠٠٠ الى ١٠،٥٠٠،٠٠٠ طن وارتفع انتاج الفحم من ٦٠ الى ١٣٠ مليون طن ، والكهربا من ٧٠٠٠ مليون الى ١٩٠٠٠ مليون كيلووات ساعة والزيت الخام من ٤٠٠،٠٠٠ الى مليون طن • وارتفع انتــــاج القاطرات من ٢٠ عام ١٩٥٢ الى ٦٧ عام ١٩٥٧ وعربات البضاعة من ٥٠٠٠ سنة ١٩٥٠ الى ٧٣٠٠ سنة ١٩٥٧ وأنشأ صناعة جـديدة فى الصين وهى صناعة السيارات وفى عام ١٩٥٧ انتجت الصين ٧٥٠٠ دونج فنج أى سيارة شعبية •

ولكن لا ننسى أن الفترة من ١٩٤٩ الى ١٩٥٧ اذا كانت قد كللت بالظفر فى كثير من نواحيها فهى لم تخل من الكوارث • بعض هـــذه

الكوارث طبيعية كالفيضانات وما يعقبها من مجاعات وبعضها بايعاز من ماوتسى تونج نفسه كحرب كوريا وغزو التبت وهناك أيضا بعض حركات التطهير وما يلازمها من حوادث الاعدام نتيجـــة حماس زائد للماركسية اللينينية من بعض أعضاء الحزب الشيوعى الصينى .

ماوتسى تونج والماركسيه اللينينيه :ــ

فى صيف ١٩٥٧ القى ليو شاو ـ تشى خطابا قال فيه ان الصين تسير فى طريق النصر وأنها فى عملية الانشاء والتعمير تتبع النهج القديم الذى اختطه الاتحاد السوفيتى من قبل . ولكن ليس من الصواب ان تحكم اطلاقا على الاتجاه الفكرى لماوتسى تونج حتى ولو كنت من أقرب المقربين اليه مثل صاحبيه ليو أو شواين ـ لاى . أن كل ما فعـله الرجلان حتى اليوم يثبت أنهما يتبعان « المنهج القويم الذى اختطه الاتحاد السوفيتى » ، ولكن ماو لا يرتاح الى هذا الرأى ، انه يعيد النظر فى الثورة الصينية ، فقد كان ولايزال يؤمن بأن الثورة الوحيدة التى تتاح لها فرص النجاح فى الصين هى الثورة التى تنبع من مشاعر الشعب الصينى وحاجاته وتعبر عن مطالبه وأمانيه .

ولامانع لديه من أن يسبح بحمد لينين وماركس وانجلز بل وستالين نفسه ولكنهم فى نظره آلهة للجميع لا لدولة معينة ، فهم ليسوا ملكا لالمانيا ولا لروسيا ، بل انهم ملك للجميع ، واذا أردت الحقيقة فهم فى نظر ماوتسى تونج ملك للصين أكثر مما هم ملك لروسيا ، ذلك أن ماو يعتقد أنه « أنقى شيوعى » فى العالم .

لقـــد خلفت وفاة ستالين عام ١٩٥٣ أثرا عميقا فى نفس ماوتسى تونج ، هذا على الرغم من أن ستالين هو الذى أصدر من قبل أمرا بطرده من الحزب الشيوعى باعتباره « منحرفا » فهو فى نظره « العظيم الراحل » ، ولكن فيما بينه وبين نفسه قرر أنه مادام آخر « الآلهة » قد زال عن عرشه فقد آن الأوان للثورة الصينية كى تنبذ كل ماهو روسى وتصبح ثورة صينية من جديد . وبعد خمس سنوات من ذلك التاريخ أعلن ماوتسى تونج برنامجه الجديد .

برنامج ماوتسى تونج للثورة الصينية الخالصة :ــ

منذ عام ١٩٥٨ قرر ماو الا يطلب مساعدات من الخارج وقال فى ذلك : « ان الشعب الصينى ليس فى حاجة الى هذه المساعدات » ، فأخذ يعيد الفنيين الروس الى بلادهم ويحل الصينيين محلهم ، وكانت المشروعات الجديدة توصف بانها « مظهر التعاون الأخوى الصينى السوفيتى » ولكن تغير الوضع فاصبحت المنشآت توصف بانها « منشآت قومية مع بعض مساعدات سوفيتية » حتى اللافتات التى تستحث العمـــال على زيادة الانتاج تغيرت من الشعارات الروسية الى شعارات صينية تقليدية تحمل صورة التنين والأعلام الحريرية والباجودا (المعابد الصينية) ، وحلت الأدوية الصينية القديمة محل الأدوية الغربية وأخذ طلبة الجامعات يتعلمون الحرف القديمة التى كان يمارسها أسلافهم ويدرسون وسائل العـــلاج

التقليدية الصينية بجانب الطب الحديث وأشاع العلاج بالأعشاب الطبية والوشم وهي تقاليد صينية قديمة ·

لقد اعترض الطلبة الصينيون الذين تلقوا تعليمهم في الجامعات الغربية على محاولة ماوتسي تونج احياء الطب الصيني التقليدي ، أما الفلاحون فقد رحبوا بها أيما ترحيب ، ولم يفت ماو أن يعلق على هذه الظاهرة فقال لصديقه ليوشاو ــ تشي ــ : « ان الفلاح الصيني سوف يتزعم الحركة الثورية في كل ميادين التقدم ، حتى لو استطاع عامل المصنع أن يسيطر على زميله الفلاح في الاتحاد السوفيتي ·

ودعما لرأيه هذا بدأ مرحلة جديدة ، تلك هي نظام الكوميونات على الرغم من استنكار خروشوف واستهجان ميكويان ·

أما الكوميون فهو مجتمع مترابط وثيق الصلة يتكون من خمسين الفا يفترض فيهم الاكتفاء الذاتي في حاجاتهم المعيشية اليومية · والمفروض في كل عضو في الكوميون أن يكون فلاحا وصانعا وجنديا في آن واحد · أما ادارة الكوميون فهي مثل التشكيلات العسكرية فهناك رئيس ونائب رئيس للتخطيط والادارة ، وتحتهما قواد الفرق والكتائب الذين يناط بهم تنفيذ الأوامر الصادرة من الجهات العليا على أن يجروا استشارات مع الجملة قبل التنفيذ . وعلى كل عضو في الكوميون أن يحمل بندقيته الى الحقل وألا يتناول الطعام وحده في الدار بل في مطاعم عامه يتسع كل منها لنحو خمسة آلاف نفس ، أما الطبخ فتقوم به العجائز اللاتي لا يستطعن العمل في الحقل أو في المصنع · وفي كل صباح يقوم قواد الفرق والكتائب بتوزيع العمال على المزارع والمصانع ·

وما ان يتم توزيع الآباء والأمهات حتى يبدأ توزيع الأطفال فصغارهم الى مربي الأطفال وكبارهم الى المدارس · ويتلقى كل طفل تدريبا عسكريا منذ سن الثامنة حيث يحمل بندقية خشبية ثم يدرب على الأناشيد الوطنيه وخاصة منها نشيد : « تحرير فرموزا » ونشيد « محاربة الاستعمار » ·

وفي بعض الكوميونات المتقدمة يفصل الاطفال عن آبائهم وأمهاتهم طوال الاسبوع كما يفصل الزوج عن زوجته على أن يقضى معها يوم العطلة الأسبوعية . ولا يسمح لشخص بالملكية الفردية باستثناء عدد قليل من الخنازير والملابس الضرورية · ويقوم الكوميون بالاشراف على حفلات الزواج ويقدم للعروسين هدية العرس · والصين في الوقت الحاضر مقسمة الى ٢٧ الف كوميون ·

والكوميون ينتج حاجته من الحاصلات الزراعية على أن يقدم فائض الانتاج الى الدولة وكذلك يقدم العدد والآلات اللازمة له · ويأمل ماوتسي تونج أن يجيء اليوم الذي تستطيع فيه الكوميونات أن تنتج حاجتها من المنتجات الصناعية وان تستخرج ما في باطن الأرض من معادن · ومما يثير الدهشة أنه لم يجيء شهر يوليو ١٩٥٨ حتى كان ٩٨٪ من الصين قد تحول الى نظام الكوميون · وهنا يقول ماوتسي تونج ان الصينيين قد بدءوا يعملون بجد ونشاط عندما ادركوا ان ما يقومون به ليس « ثورة ماركسيه » ولكنها « ثورة ماركسيه صينيه » ولقد استولى على ماوتسي

تونج اخيرا شعور كاسح من الوطنية أنساه كل احقاده القديمة حتى مع شيانج كاى شيك نفسه ، وهنا يقول ماو : « ان شيانج رجل ذو ماض اجرامى ، ولكنه صينى واذا فهو من عنصر متفوق ، ويرى ماو أن خير طر . يسلكه الآن لاعادة فرموزا الى حظيرة الوطن الصينى هو أن يبتعد عن سياسة حرب الأعصاب القائمة حاليا بين روسيا وأمريكا ويحل محلها سياسة صينية خالصة سياسة « أخ يدعو أخاه » ومن هنا فقد اوقفت الصين الشتائم التى توجهها الى كاى شيك فى اذاعتها لفرموزا وهى تدعوه الى مغادرة « حماته الأمريكيين القذرين » والعودة الى أرض الوطن . ولقد أصبح شعار الصينيين الآن « فلنوحد الصين » ، وقل الحديث عن غزو فرموزا . وقد لا يأبه شيانج كاى شيك لهذه الدعوة ولكن كثيرا من رجاله يتوقون الى العودة لأهلهم خاصة وأن أغلبهم ليسوا من أهالى فرموزا .

وقد يقال ان الخلاف العقائدى يعد عقبة كئودا فى سبيل التقارب بين كاى شيك والشيوعيين ولكن المعروف عن الصينيين انهم لا يهتمون كثيرا بالخلافات المذهبية فالعنصرية لديهم تفوق كل اعتبار آخر .

لاشك ان ماوتسى تونج يحظى بتأييد أبناء وطنه لا فى داخل الصين فقط بل فى الخارج أيضا ، فهو قد رفع شأن بلاده ونفض عنها غبار الانحطاط والذل اللذين انحدرت اليهما خلال القرن التاسع عشر ، وهو يعمل باخلاص لاسعاد الفلاحين وهم الفئة الحبيبة الى قلبه بنوع خاص من بين فئات المجتمع الصينى . أما العمال فهم على الاقل راضون بنصيبهم فى الجمهورية الشعبية .

ويمتاز ماو بملكة خاصة يدرك بها احساس الشعب ومشاعره ، فاذا اشتدت موجة الحماسة فى العمل وبذل الزراع والعمال فى غمرة هذه الحماسة جهدا فوق طاقتهم أدرك ذلك بغريزته وبادر بالعمل لوقف الارهاق واخذ فترة «من الاستجمام» . مثال ذلك أنه فى خلال الحملة الكبرى للبحث عن الحديد وانشاء افران الصهر اندفع الصينيون فى العمل بحماسة جنونية حتى بلغ التعب منهم مبلغه . وقبل أن يتثاءب العمال من أثر الانهاك ، كان ماو قد سبقهم الى التثاؤب باحساسه الغريزى ، وهنا كتب مقالا فى « صحيفة الشعب » طلب فيه الى الصينيين ان يناموا فى اليوم ثمانى ساعات على الاقل واوضح لهم أنه ليس من الوطنية فى مثل تلك الفترة أن يواصل اى صينى العمل ويترك نصيبه من الراحة ، وهكذا آوى ستمائة مليون الى فراشهم مبكرين لان فى هذا استجابة لرغبة الوالد الرحيم .

ويحظى « الرئيس » بشعبية تفوق حد الوصف ، فحينما بدأ يتجه فى سياسته اتجاها صينيا خالصا ويحررها من الارتباط بموسكو صدرت أصوات الاحتجاج من بعض المتزمتين ، ولم يسكت ماو عن هؤلاء المنتقدين لسياسته . وما هى الا عشية أو ضحاها حتى استطاع ماو وصديقه ليو شاو ــ تشى أن يستأصلا شأفة « الاتجاهات الرجعية » دون اراقة كثير من الدماء .

ويسير ماو فى بث الفضائل الوطنية والاجتماعية فى الشعب الصينى

على مبدأ « قدم نفسك بنفسك » وقد استطاع عن هذا الطريق ان يضع حدا للاداء الشكلى المفتقر الى الحماس والسيطرة وحب التسلط على الغير والانفراد بالعمل دون استشارة من هم أعلى مركزا وأكثر حكمة والامور الشخصية التافهة « كمسائل الحب والجيال والبحث وراء الحقائق الميتافيزيقية وغيرها » مما يعتبر اضاعة للوقت فيما لايفيد والظهور بمظهر البطولة والتردد فى تحمل المسئولية وأخيرا التعالى والشعور بالتفوق على الغير ٠

قد تبدو هذه الاتجاهات فى نظر الغربيين مثارا للتهكم والسخرية ولكنها ليست كذلك فى نظر الصينيين ، فالصينى انسان عملى وما أن تقنعه بسلامة الفكرة وجديتها حتى يؤدى المطلوب منه أحسن أداء ٠

فى عام ١٩٥٨ أصبح ليو شاو ــ تشى رئيسا للدولة ، وفى عام ١٩٥٩ قام بحركة تطهير على نطاق ضيق استعدادا لبرنامج « الوثبة الكبرى » ٠ ولم تبلغ الوثبة الحد الذى أراد ماوتسى تونج أن تبلغه ، ولكنها كانت بلا شك « وثبة الى الامام ٠ »

ولكن من الذى يضطلع بأعباء العمل لتوجيه هذا البرنامج التقدمى الهائل ؟

لقد ظل جهاز « الخدمة المضنية » منذ آلاف السنين الأداة التى أقامت حضارة من أقدم الحضارات الانسانية ، وهذا الجهاز يعتمد على النخبة الممتازة من الطبقة المتعلمة ، ولما ذهبت الامبراطورية وحلت محلها الجمهورية الشعبية لم تتغير الأوضاع الا من ناحية الشكل فقط ، فقد اتخذ الحزب الشيوعى الصينى مكان جهاز الخدمة المدنية فى الاضطلاع بشئون الدولة ــ والحزب الشيوعى الصينى يضم النخبة من الطبقة المتعلمة القديمة وبجانبها الجيل الجديد من خريجى الجامعات ٠

ويعنى ماوتسى تونج أشد عناية بالتعليم٠ والطبقة المتعلمة حتى خارج نطاق الحزب الشيوعى الصينى تنظر اليه فى هذه الناحيه نظرة تقدير واعجاب ٠ فعندما تولى ماو الحكم كانت نسبة من يستطيعون القراءة والكتابة لاتزيد عن ١٦ ٪ وفى عشر سنوات ارتفعت النسبة الى ٦٠ ٪ ٠ وتضم المدارس الابتدائية والثانوية فى الصين فى الوقت الحاضر مائة مليون طفل وفتى ؛ كما تضم الجامعات نحو ٦٠٠ ألف طالب .

أما حياة ماوتسى تونج الخاصة فهى بدورها تسترعى الانتباه ، فهو يحب حياة الوحدة والزهد والتقشف ، لقد كانت حياته سلسلة طويلة من المشاق والمتاعب وكثيرا ماكانت تشوبها فترات من الضعف والحرمان القاسى ٠ كان طفلا مثالا للتعاسة ، وما ان ابتسمت له الحياة قليلا فى باكورة الشباب حتى انتهت البسمة العابرة بمأساة مؤلمة ، وما أن بلغ مبلغ الرجال حتى خاض معركة كفاح طويل ٠ وهو اليوم يعيش فى بيت صغير فى « المدينة القديمة المحرمة » من بكين مع زوجته الثالثة دون أن ينجب أطفالا ٠ وطعامه قليل ومن نوع متواضع ولا يزال طبقه المفضل هو « صحن الأرز بالخضار تعلوه كمية من الفلفل الأحمر » وحبه لهذا الطبق بدأ منذ أن كان فلاحا فى اقليم هونان ٠ فاذا فتحت خزانة ملابسه

فلن نجد فيها غير بعض سترات ذات أزرار تبدأ من أسفل العنق وبعض السراويل ، ولا يأنس كثيرا للضيوف باستثناء ليو شاو ـ تشيه وشواين ـ لاى ، وفى هذه الجلسات الأخوية الخاصة يسخر من شو لحبه للأطعمة الفرنسية الشهية ، كما يسخر من ليو لحبه للملابس الفاخرة ويقـــول ماو ان العيش المتواضع يشحذ الذهن ويبعث القدرة على العمل ٠

وليس بين كبار ساسة الغرب من يشتغل بجد كما يعمل ماوتسى تونج انه يعمل يوميا سبع عشرة ساعة وينام خمس ساعات فقط ٠ ولا هم له فى أثناء فترات العمل الا أن يضيف كل يوم لبنة فى بنـــــاء الصين الحديثة ٠ ويوم ينتهى من اقامة هذا البناء الشامخ فلا يدرى أحد كيف يصدر « ثورته الى خارج حدود الصين ٠ »

الفصل العاشر

في عهد الامتيازات الاجنبية في الصين كان المواطن الصيني الذي يقدم الى المحاكمة يفضل المحلفين الاوربيين على المحلفين الوطنيين ٠٠ ذلك لانه كان يتوقع الرأفة من الاوربي دون الصيني ، ولم يكن يخشى شيئا من هؤلاء الاوربيين ولكنه كان يخشى مواطنيه ٠

وفي الوقت الحـاضر يقول المتفائلون ان ماوتسي تونج لن يوجه الصينيين لغزو العالم لانه يخشى بأس أمريكا والعالم الغربي من ورائها وفي رأينا ان هذا التفاؤل لا يقوم على أساس ذلك لانه لا ماو ولا الصينيين من ورائه يخشـون بأس « الأجانب ذوى الأنف الطويل » ، حقيقـة أنهم يكرهون الاجانب ويحتقرونهم ، ولكنهم لا يخافونهم ويعتقد الصيني أن كل من هو غير صيني فهو همجي ، واذا كان « الهمج » قد تفوقوا على الصينيين في القرن العشرين فان الصيني يرى أن هـذا تفوق مؤقت ، وتقوم السياسة الخارجية الصينية على أساس أن طبيعة الاشياء المستمدة من ارادة سماوية تقضي بأنه لا بد من أن يلحق الصين بالموكب ثم يتقدم عليه ومن يدرى فقد يجيء بعد ذلك دور الغزو٠واذا كان هناك ما يحول دون غزو الصين للعالم فليس ذلك مصدره الخوف وانما هو الاستهانة والاحتقار ٠

ان ماوتسي تونـج يضمر الكراهية للروس لعدة أسـباب : فهم انانيون كثـيرو الزهو بانهم رواد الثورة الاشـتراكيـة ، ويكرههم لانهم استطاعوا في فترة ما أن يضلوا ليوشاو ـ تشي ولكنه استطاع أن يهديه الى الطريق المستقيم وقد عقدوا كثيرا من الاتفاقيـات مع الـكومنتانج ، وفي عام ١٩٢٧ تنـكروا للثورة الصينية التي كان من شانها ان تضـع مقاليد الحكم في أيدى الحزب الشيوعي الصيني ، وكان من نتيجة تنكرهم ان ماو ظل مشردا لفترة طويلة من حياته وفقد زوجتيه . وعندما استطاع رجال ماوتسي تونج إختطاف شيانج كاي شـيك عام ١٩٣٦ ثارت ثائرة الاتحاد السوفيتي وطالب باعادته سالما الى عاصمته نانكنج كذلك رفض الكومنترن الاعتراف بماو كزعيم للشيوعية في الصين ، ولم يتم الاعتراف الا بعد ان أكرهت الظروف الاتحاد السوفيتي على ذلك ٠

وفي عام ١٩٤٥ أساء الاتحاد السوفيتي معاملة الشيوعيين الصينيين بأن سلم مدن منشوريا الى الكومنتانج مما سبب للشيوعيين خسائر كبيرة في الأرواح فيما بعد ٠ هذه اساءات لاينساها ماوتسي تونج ولا أي مواطن صيني آخر ٠ كذلك لا ينسى ماو ان القوات السوفيتيـة لا تزال تحتل جانبا من منشوريا وأن اتجاه خروشوف الجديد لانشاء مزارع الحبوب

فى الشرق الاقصى قد يخفى وراءه تجميع القوات المسلحة الروسية على حدود الصين • وقد أوضح ماو الى خروشوف بما لا يدع مجالا للشك أنه ندله في كل شيء بل ربما يتفوق عليه استنادا الى أن شيوعيته أنقى من شيوعية خروشوف ودليل ذلك نجاح نظام الكوميون مع عجز روسيا فيما قبل عن تنفيذه • ولا يخفى انه حينما اتجه خروشوف لانزال مالنكوف من مركزه السامى ، أصر ماو على أن يؤخذ رأيه أولا وأن يتم ذلك بانتقال خروشوف نفسه الى بيكين ، وليس بانتقـــال ماو الى موسكو ، ويقول ماو انه ظل زعيما غير منازع للحزب الشيوعى الصينى منذ ١٩٣٤ على حين أن خروشوف حديث عهد بالزعامة ، فلم يتقلدها الا عام ١٩٥٦ • ويعيب ماو على خرشوف عدم المامه بالمبادىء الشيوعية وسياسة التعايش السلمى التى يتبعها مع الغرب •

لقد ظل ماو فى خلال عام ١٩٦٠ يسخر من سياسة خروشوف الخاطئة ففى أول ابريل ١٩٦٠ شنت مجلة « العلم الاحمر الصينية هجوما عـــلى « الفكرة الخاطئة القائلة بأن طبيعة الامبريالية قد تغيرت منذ أن أصدر لينين تحليله الاول للامبريالية • » وفى ١٥ ابريل من العام نفسه اتخذ الهجوم مظهرا اشد عنفا فقالت المجلة « ان على أولئك المتغافلين (تقصد خروشوف) الذين يعتقدون أن طبيعة الامبريالية قد تغيرت أن يحذروا والا فان عملهم هذا يقوض دعائم الاشتراكية فى العالم أجمع » •

وفى عيد أول مايو عند اجتماع رؤساء الدول الشيوعية فى موسكو اوصى خروشوف الى كوزينين عميله السابق فى فنلنده أن يلقى خطابا يقول فيه « : يجب أن تكون على حذر من أولئك الذين يزعمون أن لينين كان ضد التعايش السلمى فالولاء للماركسية اللينينية فى هـــذه الأيام لا يقتضى التمسك بالرأى القديم بأن الامبريالية تقف موقفا عدوانيـــا • وعلى كل فالتزمت فى تفسير أسس العقيدة نكسة لا تقدم » •

ولم يفت ماوتسى تونج أن يرد على هذا الهجوم المقنع ، ففى ٢٥ من يونيو نشرت صـــحيفة الشـــعب التى تصـــدر فى بيـــكين مايلى : « أن المنحرفين (يقصد خروشوف) قد أفزعهم تهديد الامبريالية بالحرب النووية فأخذوا يتوددون الى الغرب ويتوسلون الى السلام بأى ثمن » •

وفى المؤتمر الثالث للحزب الشيوعى الرومانى الذى اشترك فيه خروشوف وبنج تشن (السكرتير العـــــام للبرلمان الصينى) القى خروشوف خطابا أكد فيه أن الاتحـــاد السوفيتى لن يعدل عن سياسة التعايش السلمى والعمل من أجل السلام • وأضاف ان ما قاله لينين منذ زمن من أن الحرب ضد الرأسمالية أمر حتمى لا يمكن قبوله اليوم •

وفى اغسطس رد ماوتسى تونج على هذا الخطاب قائلا : « بما أننا من اتباع لينين فيجب علينا أن نقضى على كل محاولة يقوم بها المنحرفون فى الوقت الحاضر لتحريف معنى التعاليم اللينينية » •

وحينما انعقد مؤتمر أقطاب الدول الشيوعية فى موسكو فى شهر نوفمبر ، شهده من الجانب الصينى ليوشاو ـ تشى ، وفى هذا المؤتمر ايد

ليو مبادىء لينين فى حين تنكر لهـــا ممثلو الاحزاب الشيوعية فى أوربا الشرقية مقتفين أثر خروشوف ، وذلك باستثناء مندوب البانيـــا اذ هو الوحيد الذى أيد ليو شاوتشى فى موقفه . ومنذ ذلك الحين أخذ ماو يهمل الممثلين الدبلوماسيين للاتحاد الســـوفيتى ودول أوربا الشرقية ويركز اهتمامه على « أفريقيا والشرق الاقصى » والموقف الآن ؟ .

ان ماوتسى تونج يتخذ خطوات عملية لانهاء احتلال الاتحاد السوفيتى لمنشوريا ، ففى منشوريا ٤٥ مليونا من الصينيين وفى اقليم سينكيانج على الحدود السوفيتية يوجد أكثر من مليون صينى وقد تسلل الى منغوليا الخارجية وهى أحد أذناب الاتحاد الســوفيتى ، وكانت يوما ما جزءا من امبراطورية الصين ، عدد كبير من «المتطوعين» الصينيين . وقد يأتى يوم يرى فيه ماو الفرصة سانحة لعقد معاهدة جديدة للعدالة مع الاتحاد السوفيتى ترد الى الصين بموجبها جميع الاراضى التى كانت سابقا تحت حكم الصين .

فاذا انتقلنا الى الجانب السوفيتى نجد حذرا شديدا وقلقا ظـاهرا من اتجاهات ماوتسى تونج المذهبية والعلمية . ولنذكر هنا قصة طريفة ، فقد وجه أحد الامريكيين سؤالا الى السفير السوفيتى فى واشنطون عما اذا كان من المستحسن أن يعـلم ابنه الروسية ، وهنا رد السفير قائلا : « اذا كنت متفائلا فعلم ابنك الروسية ، أما ان كنت متشـائما فدعه بتعلم الصينية » .

هل يحدث صدام صينى ـ سوفيتى يحاول فيه كل منهما ان يقضى على الآخر ؟

لقد بنت بريطانيا سياستها فيما بين ١٩٢٠ ، ١٩٣٩ على أساس انه سوف يحدث صدام مهلك بين المانيا وروسيا . ثم جاءت الحرب ـ العالمية فقلبت الاسس البريطانية رأسا على عقب . وقد يراود الغربيين الامل فى أن يدعوا خروشوف يبتلع الصــين فى مقابل تخليه عن دول أوربا الشرقية ، ولكن هــذه آراء خاطئة . ذلك أن ماوتسى تونج ، على الرغم من كراهيته للروس ، فهو ينظر الى موسكو ، كما ينظر المسلم الى مكة ، حتى ولو كان هذا المسلم مستهترا غير مكترث بشعائر دينه ، فهى مثابته وقبلته .

ومهما يكن من أمر فلن يرتكب جريمة قتل أخيه ، أما السيطرة على العالم الشيوعى فاعتقاده انها من نصيب الصين حتما ، ان عاجلا أو آجلا . أما أن يقبل الروس زعامة صينية فهذا ليس بمستغرب ، فقد قبلوا زعامة قس مارق من جورجيا وفلاح أوكرانى . وسياسة الصين الخارجية التى يضــع خطوطها العريضــة ماوتسى تونج وشواين ـ لاى ويســهر عـلى تنفيذها تشن ـ يى ، تقوم على التعاون « غير الودى » مع البلاد الآسيوية الاخرى من شيوعية وغير شيوعية وعلى درجات متفاوتة من العـــداء مع الدول الرأسمالية وفى أوربا ، ولكن عدو ماو رقم واحد هو أمريكا خاصة اذ أنها السبب فى حرمان الصين الشعبية من مقعدها الشرعى فى مجلس الامن والامم المتحدة . ولا يهتم ماو بالامم المتحدة وعضويتها وكل مايرغبه

هو ان نتاح له الفرصة من وقت لآخر لسماع شكوى الشعوب الاخرى من الصين ورأى هذه الشعوب فيها ، وكذلك ليضيف صوتا جديدا للكتلة السوفيتية والكتلة الافريقية الآسيوية ولا ننسى انه ما دامت الصين خارج أبواب الامم المتحدة فان الهند هى المتحدثة باسم الشعوب الملونة ، ويرى ماو انه اذا كان هناك من يحق له التحدث باسم هذه الشعوب فهى الصين الشعبية .

ويعلق ماوتسى تونج على سياسة امريكا قائلا : « انها سياسة خرقاء تتسم بالغباء ، وأكبر مظهر لذلك احتفاظها بشيانج كاى شيك فى فرموزا . كذلك يرى ان سياسة أمريكا الخارجية أسوأ من سياسه بريطانيا ، ذلك ان أمريكا تضع شعوب البلاد المتخلفة تحت سيطرة حكام فاسدين كما هو الحال فى أمريكا اللاتينية أو تتركهم وشأنهم لحكم الامراء كما هو الحال فى بعض البلاد العربية وتكتفى باستخدام الدولار لاخضاع هذه البلاد لمشيئتها » .

ماوتسى - تونج والحكومات الموالية للغرب فى الشرق الاقصى : -

١ - فرموزا وكوريا الجنوبية : -

ينعى ماو على امريكا أنهـا بعيدة عن الواقعية وهى فى ذلك تخالف حليفتها الرأسمالية بريطانيا ويقول انها سوف تجنى ثمرة مرة لتعاميها عن الواقعية . ويأمل ماو ان يجىء يوم تنهار فيه حكومة كاى شيك أو ينحاز خلفه الى جانب « الوطن الكبير » ويسلم تلك القاعدة الامريكية (فرموزا) الى الصين الشعبية وهناك تقع أمريكا فى حيص بيص ويعتقد ماو أن هذا لابد أن يحدث يوما ما ، ويبنى اعتقاده على ماحدث من قبل فى كوريا الجنوبية لحكومة سنجمان رى التى أقامها الامريكيون .

٢ - كوريا الشمالية : -

يعتقد ماو أن كوريا الجنوبية سوف تنضم الى كوريا الشمالية ويعزو ماو السبب فى عدم اتحاد كوريا الشمالية والجنوبية الى السياسة الروسية الخاطئة فبدلا من أن تدع روسيا الشعب الكورى يعمل على تشكيل حكومة ائتلاف ديموقراطية أخذت تضغط على هذا الشعب لتكوين مزارع جماعية وأممت الملكية الفردية وعلى العموم تجاهلت الامانى القومية للشعب الكورى الذى كان يكره أى تدخل أجنبى حتى ولو كان من صديقته روسيا .

٣ - اليابان : -

يقول ماو أن محاولة أمريكا تحويل اليابان الى ديموقراطية على النسق الامريكى خطأ فاحش ، ذلك ان الديموقراطية التى يفهمها اليابانيون هى من نوع « الدكتاتورية الديموقراطية » . وهذه ان تحققت فى اليابان فسوف تكون معادية لامريكا . ويضيف ماو قائلا : « اذا كانت

أمريكا تريد « يابانا » قوية تستطيع الوقوف في وجه الصين فلتتركها تعود الى عبادة الامبراطور والى الشركات الاحتكارية الكبرى أما ان تجعل من اليابان منطقة نفوذ أمريكي فهذه سياسة غير مفهومة ، وتخطىء أمريكا كل الخطأ اذا اعتقدت ان اليابان الديموقراطية سوف تقف حائلا دون امتداد تيار الشيوعية ، فهي بذلك تتجاهل مصالح اليابان الحقيقية ومصالح اليابان في آسيا وليست في أمريكا .

ماوتسي ــ تونج وبريطانيا : ــ

يرى ماو ان بريطانيا لم تعد عدوا يخشى باسه ولا منافسا خطيرا للصين في الشرق الاقصى ويعتقد ان الصين سوف تستطيع في عام ١٩٦٨ أن تلحق ببريطانيا في الانتاج الصناعي ، وتنتزع منها أسواق الشرق الاقصى وجنوب شرقي آسيا ويضرب مثلا لذلك الدراجات فيقول ان الدراجات الصينية أخذت تزاحم الدراجات البريطانية في جنوب شرقي آسيا وان كانت أقل منها جودة في الصناعة لكن أثمانها رخيصة وفي هذا اغراء للشعوب الفقيرة .

ويتحدث عن هنج كنج فيقول « ان عقد امتيازها ينتهي عام ١٩٩٨ ولسوف ننتظر ذلك اليوم فهو ليس منا ببعيد » وعلى كل فوجودها في أيدي بريطانيا في الوقت الحاضر لا يخلو من فائدة للصين الشعبية .

ماوتسي ــ تونج والدول الاسيوية والافريقية ودول الشرق الاوسط :

ان موقف ماو من هذه البلاد المختلفة يختلف من بلد الى بلد . فسياسته نحو الهند مزيج من المجاملة والكراهية والحسد . ويقول ماو ان الهند تلعب « لعبة تيتو » فهي تحاول ان تكون صديقة للطرفين الرجعي والتقدمي . وهو يكره نهرو شخصيا لانه كان جريئا في كتابته ضد الماركسية وهذا مالا يغتفره له ماو .

أما دول جنوب وجنوب شرقي آسيا فيقول ماو انها كانت يوما ما تدين بالولاء والتبعية لامبراطورية الصين ، ومما يبعث على ارتياحه تسلل بضعة ملايين من الصينيين الى كمبوديا وتايلاند وبورما والملايو ، على أمل ان يشكلوا يوما ما « تحالفا أخويا » بين هذه البلاد والصين الشعبية .

ويرد ماو على الفكرة القائلة بأن بعض دول جنوب شرقي آسيا تقع تحت سيطرة أمريكا فان هذا وضع مؤقت الا اذا أقامت هذه البلاد من الحشود العسكرية ما يصبح خطرا على الصين فهنا لابد من استئصال الخطر قبل أن يستفحل ، ويضرب لذلك مثلا حملة لاوس عام ١٩٦٠ . ويفضل ماو في الوقت الحاضر ان ينفق ثروة الصين ويعبىء قوتها البشرية لرفع مستواها وبذلك تصبح موضع اعجاب الشعوب الاسيوية الاخرى ، وبعد الاعجاب يجيء دور الصداقة ثم التحالف .

ويركز ماو اهتمامه الاكبر على افريقية ، وهو لا يهتم بشمال

افريقية الغربي ولا بالشرق الاوسط الا بقدر ما تتعرض له هذه المنطقة من عدوان استعماري وهو يتخذ موقف الحياد في النزاع القائم بين ناصر وقاسم لأنه معجب بالرجلين ٠

ولنعد الى ماوتسي تونج وافريقية فنقول انه لا يتوقع ان تثير خلافاته المذهبية مع خروشوف اهتماما كبيرا في افريقية ، ولكن يامل أن تثير التجارب — التي مر بها بعض الاهتمام في هذه البلاد ٠ فالثورة الصينية تمثل كفاح شعب حرم الانتاج الصناعي ولم تكن لديه طبقة عاملة ووقع تحت سيطرة استعمارية واستغلال أجنبي وهذا هو ما حدث في افريقيه لا بل ان العناصر الاستعمارية التي استغلت الصين (بريطانيا وفرنسا) هي نفسها التي استغلت الافريقيين ٠ ويقول ماو ان غانا وغينيا ونيجيريا وتوجولاند يجب ان تقيم حكوماتها المستقلة على نظام صيني ، أما المستعمرات البرتغالية وجنوب افريقية فهي مناطق في حاجة شديدة الى ثورة كالثورة الصينية ويبدي ماو لهفة على تقديم العون لمثل هذه الثورة ٠

في ٢٥ يونيو ١٩٥١ تحدث أحد المعجبين بماوتسي تونج عن اهتمامه الخاص بافريقيا فقال « ان نظرية ماوتسي تونج في الثورة الصينية يعتبر تطورا جديدا في الماركسية اللينينيه في ثورات البلاد المستعمرة وشبه المستعمرة ٠ وهذه النظرية ليست ذات دلالة خاصة للصين وآسيا ، ولكنها ذات دلالة عامة شاملة للحركة الشيوعية العالمية » ٠

كان عدد الصينيين الذين يوجهون اهتمامهم السياسي لافريقية حتى عام ١٩٥١ محدودا جدا ، وكانت هناك جاليات تجارية صينية على ساحل افريقية الشرقي والغربي وبعض أفراد من الصينيين متناثرين في أماكن مختلفة من جنوب افريقيا ، ولما حققت الثورة الصينية نجاحا اثر نجاح ، اتصل هؤلاء الصينيون الذين يعيشون في الخارج بوطنهم وأعلنوا تضامنهم مع النظام الجديد في الصين ، وقد احتضنتهم الصين الجديدة وجعلت منهم « هيئة استعلامات » لها في الخارج ، تزود وزارة الخارجية الصينية بالمعلومات عن البلاد التي يعيشون فيها ٠ ولما تجمع لدى وزارة الخارجية الصينية مايكفيها من معلومات عن آسيا وجهت اهتمامها نحو افريقية ٠ وفي أثناء الاضطرابات التي حدثت في افريقية الغربية سواء البريطانية أو الفرنسية ، قرر ماوتسي — تونج أن يضع نظرية عن ثورات المستعمرات واشباه المستعمرات موضع التجربة في هذه المنطقة — فبدأت الجاليات التجارية الصينية في الازدياد ، وكلما وجدت حكومة الصين الشعبية عقبات في سبيل تسلل الصينيين الى بلد ما (كما هو الحال في اتحاد جنوبي افريقية) عمدت الى تجنيد عدد من الهنود لخدمة الاستعلامات الصينية وخاصة في ميناء دربان في ناتال ٠ ولم تجد الصين الشعبية حينذاك صعوبة في استخدام هؤلاء الهنود ٠ فقد كانت علاقتها بالهند طيبة جدا وماجاء منتصف عام ١٩٥٨ حتى كانت مراكز الاستعلامات الصينية ممتدة على طول ساحل افريقية الغربي من لاجوس الى داكار ، وكذا على طول الساحل الشرقي من مصر الى اتحاد جنوب افريقيا ٠ والصعوبة التي وجد ماو نفسه أمامها هي اختيار بلد في هذه المنطقة

ليكون قاعدة يتجمع فيهـا أكبر عدد من « الفنيين الصينيين والمهيجين والمنظمين » وكانت روسيا فى ذلك الوقت تسعى للغرض نفسه • وقد اختار ماو شرقى افريقية فى حين فضلت موسكو الساحل الغربى للقارة •

وفى أكتوبر ١٩٥٨ أعلنت غينيا استقلالهـا • ولما كانت الدوله الناشئة مجردة من كل المواد ماعدا بعض كميـات من البوكسيت ومن انتاج الموز فقد أخذ زعيمها سيكوتورى يتطلع الى أصدقاء لينقلوا بلده مما هو فيه من متاعب •

كان هـذا الزعيم قد تلقى دراسـاته فى أحد المعـاهد السـياسيه السوفيتية فى براج وأكمل الدراسة فى العاصمة السوفيتية نفسهـا . وهنا أخذ الغرب يفيق من غفلته فعينت بريطانيا قائما بالاعمال واشترت المانيا الغربية من سيكوتورى محصول الموز ولكن لم يمض أسـبوع على اعلان الاستقلال حتى كان فى غينيا خمس بعثات شيوعية من روسيا والمانيا الشرقية وتشكو سلوفاكيا ، ولما ثبت بعد عام ان سـيكوتورى سياسى أكثر نجـاحا من نكروما فى غانا وأنه فاز باعجاب وولاء الجـانب الاكبر من افريقية الغربية كثر أفراد هذه البعثات • وفى ديسمبر ١٩٥٩ كان فى كوناكرى أكثر من خمسمائة من أعضاء الهيئات الدبلوماسـية فى الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية ، وتقدم الاتحاد السوفيتي بمشروعات لاقامة محطة للاذاعة تستطيع نشر الانباء من مدينة كوناكرى فى الشمال الى مدينـة جوهانسبرج فى الجنوب وافتتاح معهد سـياسى فى كوناكرى تحت اشراف سوفيتى لتدريب أبنـاء المستعمرات الافريقية الاخـرى على نظم الحكم عندما يعلن استقلال بلادهم • ويبدو أن بريطانيا توقفت عن « معركة التسابق على غينيا » بعد ان وجهت الدعوة الى سيكوتورى لزيارة لندن وأقرضته عشرة ملايين جنيه استرلينى ولما أدركت وزارة الخارجية الامريكية ان كوناكرى أصبحت مركز الجاذبية السياسية والدينية فى افريقية بدأت تزيد تمثيلها فى هذا البلد باطراد • أما الصين فكان لهـا فى غينيا خمسة وعشرون وطدوا علاقاتهم مع الغينيين وبدءوا يعلمونهم بناء السدود بلا آلات على « الطريقة الثورية الجديدة » وينشرون بينهـم فكرة ان القرية الافريقية صورة طبق الاصل من الكوميون الذى أنشـاه ماوتسى تونج فى الريف الصينى • وهذه الصورة من الكفاح والتسابق سوف تتكرر فى كل بلد فى شرقى أو غربى أفريقية يحصل على استقلاله ولما كانت روسيا قد سبقت فثبتت أقدامها فى غينيا فمن المحتمل ان تصبح غينيا وما حولها من بلاد ساحل افريقيا الغربى منطقة نفوذ سوفيتى ، أما شرقى افريقيا وجنوبيها فمن المحتمل أن يعملا بتوجيه صينى • ويعلم ماوتسى تونج أن لديه ثلاث ورقات رابحة فى محاولة الفوز باكتسـاب الافريقيين الى صفه ، فهو قد انتشل بلاده من الحضيض الاسـتعمارى الى دولة عالمية كبرى فى عشر سنوات فقط ، وهو ليس « رجلا أبيض » بل هو ملون كالافريقيين ، والنقطة الثالثة وقد تكون الاكثر اهميـة ان ماوتسى تونج له ماض طيب مع المسـلمين فى كل مكـان • ومن الظواهر التى تسترعى الانتباه أن المسيحية أخذت تضمحل فى افريقية فى السـنوات الاخيرة فى حين أن هناك بعثا جديدا للاسلام ولقد اعتنق

الاسلام فى افريقية أكثر من أربعة ملايين منذ عام ١٩٥٠ وغالبية هؤلاء كانوا من المسيحيين ، ذلك ان الاســـلام الذى لا يستلزم وجود رجال الاكليروس « البيض » ولا الاوثان « البيضـــاء » يجتـذب الافريقـيين . وماوتسى تونج لا يضيق بالاسلام كما لا ينجذب اليه .

ونشاط الصين الخارجى لم يبلغ حتى الآن فى مداه ولا فى قوته حدا يثير الجزع ، ولـكن لن يجىء عام ١٩٧٠ حتى تكون المعركة من أجل السيطرة على افريقية على أشدها بين الشرق والغرب .

ويوجه ماوتسى تونج كل اهتمامه فى الوقت الحاضر لشـــئون الصين الداخلية ويحاول ان يبدو فى نظر العالم الخارجى رسول ســلام ومودة ، وسوف يواصل استفزاز الهند وجزر كيموى ليذكر العالم عامة وآسيا خاصة أن الصين بلد قوى وكفى . ولو أن السلام مسألة نسبية الا أن ماوتسى تونج قد أمضى الجانب الاكبر من حياته جنديا فى الصف الاول من المعركة . وهو يعتقد ان العمل حافز على النشاط العقلى والبدنى ويروى عنه انه قال ذات مرة « أنا اشكو الامساك . وهذا هو سبب تفضيلى لحياة الجندية . لم تطلق أمعائى انطلاقا جيدا الا يوم كنت أخوض المعركة للاستيلاء على تشانج شا » . ومن يدرى فقد يخطر بباله يوما أن يصلح معدته ويطلق أمعاءه تغزو العالم .

تم الكتاب

فهرس

الموضوع	الصفحة

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عتبيد - روض الفرج

المبقرن ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج
تليفون ٤٠٧٥٣ / ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ / ٤٠٨١٤

العدد ٤٩ الثمن ١٦ قرشا